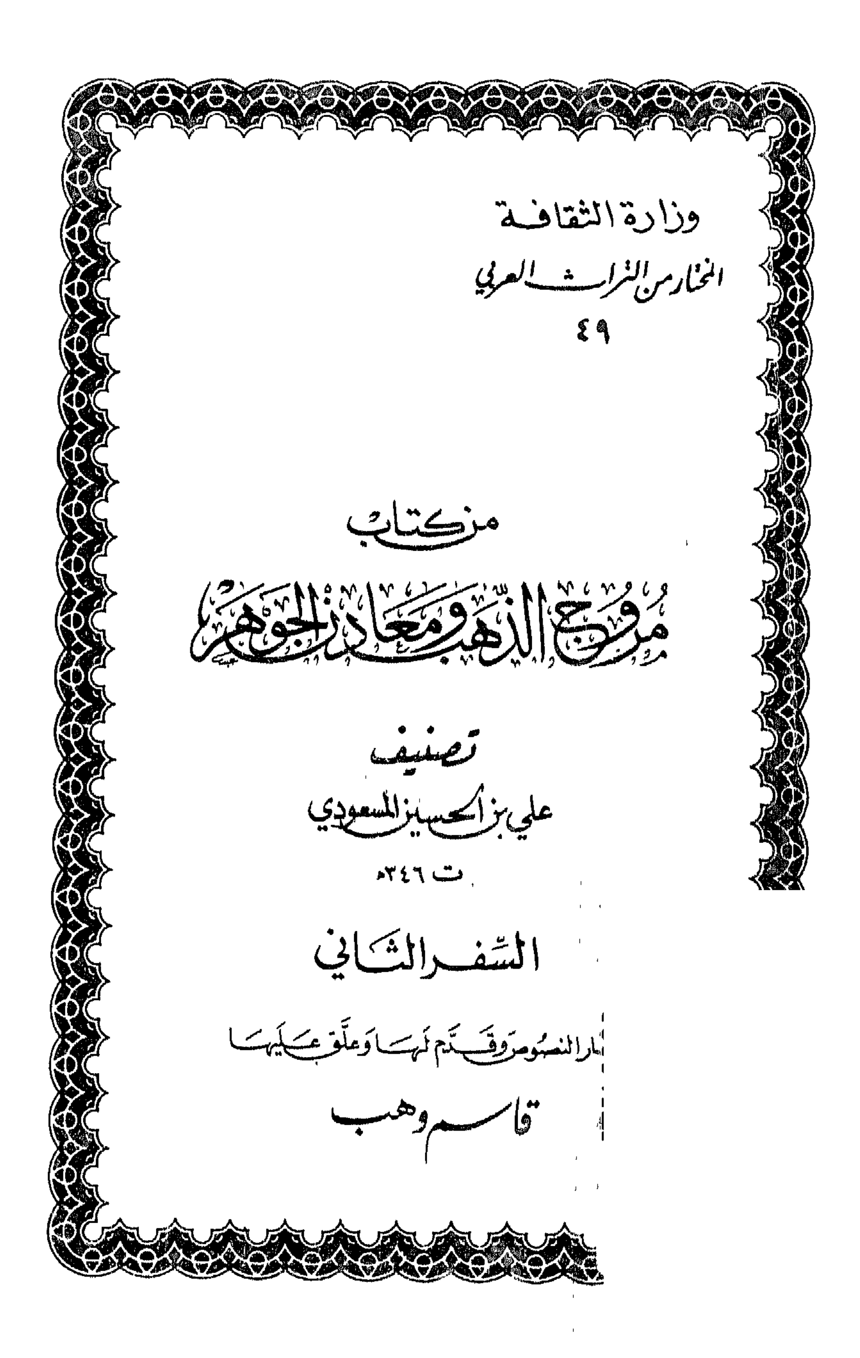


وزارة الثقافة

المختار من التراث العربي

٤٩

من كتاب

مروج الذهب ومعادن الجوهر

تصنيف

علي بن الحسين المسعودي

ت ٣٤٦هـ

السفر الثاني

ار النصوص وقدم لها وعلق عليها

قاسم وهب

الإشراف الفني: زهير الكسمو

من كتاب



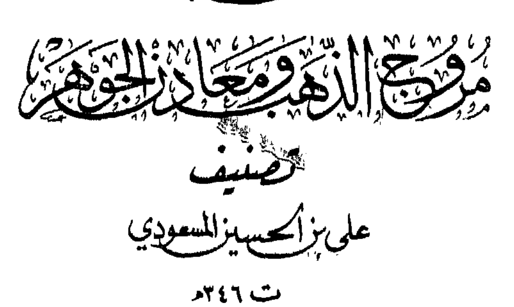
السفر الثاني

وزارة الثقافة

المختار من التراث العربي

٤٩

من كتاب



مروج الذهب ومعادن الجوهر

تصنيف

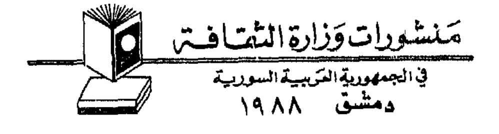
علي بن الحسين المسعودي

ت ٣٤٦هـ

السفر الثاني

اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها

قاسم وهب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٨٨

من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر / تصنيف علي بن الحسين المسعودي ؛ اختيار وتعليق قاسم وهب . — ط ١ . — دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٨ . — ج ٢ (٤٤٧) ص . — ٢٠ سم . — (المختار من التراث العربي ؛ ٤٩) .

١ — ٩٥٦ م س ع
٢ — ٩٣٠ م س ع م م
٣ — العنوان
٤ — المسعودي
٥ — وهب
٦ — السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع — ١٩٨٨/٩/١٠١٣

ذكر تنازع الناس
في المعنى الذي من أجله سمي اليمن يمناً ، والعراق عراقاً، والشام شاماً ، والحجاز حجازاً

تنازع الناس في اليمن وتسميته ؛ فمنهم من زعَم أنه إنما سُمِّيَ يمناً لأنه عن يَمينِ الكعبة وهو التَيْمَنُ (١) وسُمِّي الشامُ شاماً لأنه عن شَمَالِ الكعبة ، وسُمِّيَ الحجازُ حجازاً لأنهُ حاجزٌ بين اليَمَنِ والشَامِ ، نحو ماأخبر الله عزوجل عن البرزخ الذي بين بحر القُلْزُمِ وبَحْرِ الرُّومِ بقوله عز وجل: «(وَجَعَلَ بينَ البَحْرَيْنِ حَاجزاً)».
وإنما سُمِّيَ العراقُ عِراقاً لمصبِّ المياه إليه كالدِّجلةِ والفُراتِ وغيرِهما من الأنهار ، وأظُنهُ مأخُوذاً من عَرَاقي الدلو وعَرَاقي القربة (٢) .

ومنهم من زَعمَ أنَّ اليَمَن إنما سُمِّيَ يَمَناً لِيُمْنه ،

---

(١) التيمن : أفق اليمن وجهته .

(٢) العراقي : ج عرقوة : خشبة معروضة على الدلو يربط بها طرف الحبل .

والشامُ شاماً لشُؤْمه، وهذا قول يُعزى إلى قطرب النحوي(١) في آخرين من الناس .

ومنهم من رأى أنه إنما سُمي اليمنُ يمناً لأن الناسَ حين تفرقت لغاتهم ببابلَ تَيامَنَ بعضهُم يمينَ الشمسِ وهو اليَمَنُ ، وبعضهُم تشاءم فوُسِمَ له هذا الاسمُ ، وسنذكرُ تفرُّقَ هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع ، وبعضَ ماقالوه في ذلك من الشعر ، عند مسيرهم في الأرض واختيارِهم البقاع .

وقيل : إنما سُمِّي الشامُ شاماً لشاماتٍ في أرضه بيضٍ وسُودٍ ، وذلك في التُّرَبِ والبقاع والحجَرِ وأنواع النباتِ والأشجارِ ، وهذا قولُ الكلبي (٢) .

(١) قطرب النحوي: محمد بن المستنير بن أحمد، أبوعلي (ت ٢٠٦ هـ) عالم بالأدب واللغة من أهل البصرة . من الموالي . كان يرى رأي المعتزلة . تتلمذ على سيبويه . من كتبه : « معاني القران » و « النوادر » و « الأزمنة ».

(٢) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي(ت ١٤٦هـ) أبو النضر . نسابة ، راوية ، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب . ولد ومات بالكوفة . له « تفسير القرآن » و « الأصنام » .

وقال الشرقي بن القطامي (١) إنما سُمِّي الشامُ شاماً بِسام بن نوح ؛ لأنه أوَّلُ من نزَلَهُ وقطَن فيه ، فاما سكنته العربُ تَطيَّرت من أن تقول سام ، فقالت : شام .

وقيل : إن سامرّا إنما سميت بذلك إضافة إلى سام .

وقيل : إنَّ أوَّلَ من سكنها من خلفاء بني العباس سماها بهذا الاسم ، وأنها سرور لمن رآها .

وقد ذُكِرَ في أسماءِ هذه المعاقل والبقاع والأمصار وجوهٌ غير ماذكرنا قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا .

ذكر اليمن وأنسابها
وما قاله الناس في ذلك

اختلف الناسُ في أنسابِ قحطانَ ؛ فحكى هشامُ ابنُ الكلبيِّ(٢) عن أبيه والشرقيُّ بنُ القطاميِّ أنهما كانا

(١) الشرقي بن القطامي : هو الوليد بن حصين الكلبي: أبوالمثنى ، عالم بالأدب والنسب من أهل الكوفة . كان مؤدب المهدي توفي نحو ١٥٥هـ.

(٢) هشام بن محمد بن السائب الكلبي : (ت ٢٠٤ هـ) أبو المنذر : مؤرخ عالم بالأنساب والأخبار ، كثير التصانيف . من أهل الكوفة ووفاته فيها . من كتبه : « جمهرة الأنساب » و « نسب الخيل » و « بيوتات قريش » و « المثالب » .

يذهبان إلى أن قحطان بن الهميسع بن نَبت — وهو نابت — بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، ويَحتَجّان لذلك بوجوه من الأخبار : منها ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مارواه هشامٌ عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه الهيثم عن الكلبي عن أبي صالح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على فِتية من الأنصار يتناضَلون (١) ، فقال : « ارْمُوا يابني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارْمُوا وأنا مع ابن الأدرع » رجل من خزاعة ، فرمى القوم نبالهم ، وقالوا: يارسول الله ، منْ كنت معه فقد نضَلَ ! فقال « ارْمُوا وأنا معكم جميعاً » .

قال المسعودي: وسائرُ وَلَدِ قحطانَ من حِمْير، وكهلان يأبى هذا القول ويُنكره . وقد ثَبَتَ أنَّ قحطانَ هو يقطن ، وإنما عُرِّبَ فقيل له : قحطان .

ذكر اليمن
وملوكها ، ومقدار سنيها

سبأ : أوّلُ من يُعَد من ملوك اليمن سبأ بنُ يَشْجُب

(١) يتناضلون : يتسابقون في الرمي .

ابنِ يعْرُبَ بنِ قحطانَ واسمهُ عبدُ شمسٍ ، وقد أخبرْنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأيةِ علّة سُمّي سبأً(١) على ماقيل ، والله أعلمُ ، وكان مُلْكُهُ أربعمائة سنة وأربعاً وثمانين سنة .

حمير : ثم ملكَ بعدهُ وَلَدُهُ **حميرُ** بنُ سبأ ابن يشجب بن يعرب وكان أشجعَ الناس في وقته ، وأفرسَهم ، وأكثرهُم جمالاً ، وكان مُلْكُه خمسين سنة ، وقيل : أكثرُ من ذلك ، وقيل : أقلُّ ، وكان يعرف بالمتوج ، وكانَ أوّلَ من وَضعَ على رأسهِ تاجَ الذهبِ من مُلوك اليمن .

كهلان : ثم ملك بعده أخوه **كهلانُ** بنُ سبأ ، فطال عمُرُهُ ، وكَبُرَ سِنُّه ، واستقامت له الأمورُ ، وكان مُلْكُه ثلاث مئة سنة ، وقيل : غيرُ ذلك .

ثم عاد المُلْكُ بعد أن هلَكَ كهلانُ إلى وَلَدِ حمير ؛ لأخبارٍ يطولُ ذكرُها ، وتنازَع في الملك وَلَدُ حِمْيَرَ وكَهْلانَ .

---

(١) قال المسعودي : سمي سبأ لسبيه السبايا .

عمرو بن سبأ : ثم مالك **أبو مالك** عمرو بن سبأ ، واتّصل مُلْكُهُ ، وغَمَرَ الناسَ عدلهُ ، وشَمَلَهُم إحسانهُ ، وكان مُلْكهُ ثلاث مئة سنة .

وقيل : إن أول من مالك بعد كهلان **الرائش** ، وهو الحارث بن شداد .

ثم مَلَكَ **جبّارُ بنُ غالب** بن زيد بن كهلان ، فكان مُلْكهُ عشرين ومائة سنة .

ثم مَلَكَ بعدَهُ **الحارثُ** بنُ مالك بن **إفريقس** ابن صيفي بن يشجب بن سبأ ، وكان مُلْكُه مائةَ سنةٍ ونحو أربعين سنةً ، وقيل : إن هذا الملكَ هو أبو أبرهة ابن الرائش المعروف بذي المنار .

جماعة من ملوك اليمن : ثم مَلَكَ بعده **الرائشُ** ابنُ شَدّادِ بن ملطاط ، وكان مُلْكُهُ مائة وخمساً وعشرين سنة .

ثم مَلَكَ بعده **أبرهةُ** بن الرائش ، وهو ذو المنار وكان مُلْكُه مائةً وثمانين سنةً .

ثم ملك بعده **إفريقس** بن أبرهة ، فكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة .

ثم ملك بعده أخوه **العبد بن أبرهة** ، وهو ذو الأذعار ، وكان مُلْكهُ خمساً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده **الهدهاد** بن شُرَحْبيل بن عمرو بن الرائش ، وقد تنُوزِعَ في مقدار مُلْكِهِ : فمنهم من رأى أنه عاش عَشْرَ سنين ، ومنهم من ذكر سَبْعاً ، ومنهم من قال ستاً.

ثم ملك **تُبَّعُ الأوّلُ** وكان مُلْكهُ أربعمائة سنة ، وذكر كثيرٌ من الناس أنّ بلقيسَ قتلته ، وقيل غيرُ ذلك ، والأشهرُ ماقدمنا .

ثم ملكتْ بعده **بلقيسُ** بنت الهدهاد ، وكان لمولدها خبرٌ ظريفٌ ذكرته الرواةُ فيما روِي أنه تَصَوَّرَ لأبيها في بعض قَنْصِهِ حَيَّتان سوداءُ وبيضاءُ ، فأمر بقَتْلِ السوداء منهما ، وما ظهر له بعد ذلك من شيخٍ وشابٍّ من الجن ، وأن الشيخ زوَّجَهُ بابنته ، واشترط عليه شروطاً لها ، فعلقت منه ببلقيسَ ، ونقضَ تلك الشروطَ المأخوذةَ عليه لها ، فغابت عنه ، في خبرٍ ظريف ، وهو موجودٌ في كتابِ أخبارِ التبابعة .

وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ماوجدناه في كتب

الإخباريين وعلى حسب ماتوجبُهُ الشريعة والتسليمُ لها ، وليس قصدُنا من ذلك وصفَ أقاويلِ أصحابِ القِدَمِ ؛ لأنهم يُنكرون هذا ويمنعونه ، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويلَ أصحابِ الحديثِ المنقادين للشَرْعِ والمسلّمين للحق ، وأخبارَ الشياطين على حَسبِ مانَطَق به الكتابُ المنزلُ على النبي المرسَل ، وما قارنَ ذلك من الدلائل الدالّةِ على صدقه صلى الله عليه وسلم وإعجازِ الخليقة أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وكان مُلْكُ بلقيسَ عشرين ومائة سنة ، وكان من أمْرِها مع سليمان عليه السلام ماذكر اللهُ عزّ وجلّ في كتابه ، وما اقتصّ من خَبَرَ الهدهد ، وما اقتص من أمرهما ، فَمَلَكَ سليمانُ اليمنَ ثلاثاً وعشرين سنة (١) .

مساحةُ اليمن وحدوده : وبَلَدُ اليمن طويلٌ عريضٌ : حَدُّهُ مما يلي مكةَ إلى الموضع المعروف بطَلْحةِ المَلِكِ (٢) سبعُ مراحلَ ، ومن صنعاء

---

(١) أسقطنا ذكر عدد من ملوك اليمن لأن المجال لا يتسع لذكرهم .

(٢) طلحة الملك : اسم واد باليمن .

إلى عدن — وهو آخرُ عَمَلِ اليمن — تسعُ مراحل ، والمرحلة من خمسة فراسخ (١) إلى ستة ، والحد الثاني من وادي وَحَا(٢) إلى مابين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة ، ويلي الوجه الثالث بحر اليمن على ماذكرنا أنه بَحرُ القُلْزُم والصين والهند ، فجميع ذلك عشرون مرحلة في ست عشرة مرحلة .

وأسماءُ ملوكِ اليمنِ كذي يَزَن وذي نُواس وذي منار وغير ذلك مضافة إلى مواضعَ وإلى أفعال لهم وسيرٍ وحروبٍ وغيرِ ذلك ، وهي سِماتٌ لهم تميّزهم عن غيرهم ، وتُبيّن كلّ واحدٍ منهم عن غيره من ملوكهم .

وإذ قد ذكرنا جوامعَ من أخبار اليمن وملوكها فلنذكرْ الآنَ ملوكَ الحيرة من بني نصرٍ وغيرهم ، للحوقهم باليمن ، ثم نُعقبُ ذلك بملوكِ الشامِ وغيرهم من الملوك ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) الفرسخ : ثلاثة أميال والميل العربي حوالي ١٩٧٣ م .

(٢) وحا : من أودية اليمامة .

ذكر ملوك الحيرة
من بني نصر وغيرهم

جذيمة الوضاح ومقتله : ولما هَلَكَ جـذيمةُ الوضَّاحُ (١) وأتت عليه الزَّبَّاء (٢) بنت عمرو بن ظرب ابن حسان بن أذينة بنِ السميدع بن هوبر ، وقد كان مَلَكَ من مشارقِ الشام إلى الفرات من قِبَلِ الرُّوم، وكانت دارُه بالموضع المعروف بالمضيق (٣) ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا ، وقد كانت الزَّباءُ تمَلَّكت بعد أبيها ، وأطمعتْ جذيمةَ في نفسها إلى أن قتلته ، وأقام جَذيمةُ مَلِكاً في زمنِ مُلوكِ الطوائف خمساً وتسعين سنة ، وفي مُلْكِ

---

(١) جذيمة الوضاح : (ت نحو ٢٦٨ م) هو ابن مالك بن فهم من تنوخ قضاعة . من ملوك العرب في الجاهلية : أسس الحيرة والأنبار . ملك ستين سنة . عاصر زينب ملكة تدمر.

(٢) الزباء : هي زنوبيا أو زينب ملكة تدمر العربية (٢٦٦ — ٢٧٢ م) خلفت زوجها في حكم تدمر . حاولت التحرر من سيطرة الرومان ففتحت مصر وآسيا الصغرى . هزمت أمام أنطاكية واقتيدت أسيرة إلى روما حيث ماتت هناك .

(٣) المضيق والخانوقة وقرقيسيا : مواضع على الفرات بأرض الجزيرة.

أردشير بن باباك وسابور الجنود بن أردشير ثلاثاً وعشرين سنة ؛ فكان مُلْكُـــهُ مائةً وثمان عشرة سنـــة ، وكان يُكَنَّى بأبي مالك ، وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية وهو سويد بن أبي كاهل اليشكري (١) :

إن أذُقْ حتفي فقبـــلي ذاقَـــهُ
طَسْمُ عادٍ وجديسٌ ذو الشنـــع
وأبو مالكٍ القيْـــــلُ الـــذي
قتلته بنـــتُ عمرو بالجـــــدع

مالك بن فهم : وكان المَلِكَ قبلَ جذيمة أباه ، وهو أولُ مَنْ مَلَكَ الحِيرَةَ ، والله أعلم ، وكان يقال له مالك بن فهْم بن دوْس بن الأزد بن الغوْث .

ابن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان سار من اليمن معَ وَلَدِ جفنْة بن عمرو بن عامر مزيقياء ، فسار بنو

---

(١) سويد بن أبي كاهل اليشكري : شاعر مقدم مخضرم معمر عاش إلى ما بعد ٦٠ هـ قرنه الجمحي في طبقاته بعنترة .

جفنةَ نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق فَمَلَكَ على مضر بن نزار اثنتي عشرة سنة ، ثم ملَكَ بعده ابنهُ جذيمة على ماذكرنا .

عمرو بن عدي : ثم ملك بعد جذيمة ابن اخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك ابن غنم بن نمارة بن لخم ، وهو أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلاً ودار ملك ، وإليه تُنسبُ الملوكُ النصرانية ، وهم ملوكُ الحيرةِ ؛ فكان مُلْكُ عمرو بنِ عَديٍّ بنِ أخت جذيمة مئة سنة .

بقية ملوك الحيرة : ومَلَكَ بعدَه ولدهُ امرؤ القيس ابنُ عمرو بن عدي ستين سنة .

وملك بعده عمرو بنُ امرىء القيس ، وهو مُحَرِّقُ العرب خمساً وعشرين سنة ، وكانت أمهُ مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان .

وملك النعمانُ بن امرىء القيس قاتل الفُرْسِ خمساً وستين سنة ، وكانت أمه الهيجمانة بنت سلول من مراد ويقال : من إياد .

وملك المنذرِ بنُ النعمان بن امرىء القيس خمساً وعشرين سنة ، وكانت أمه الفراسيةَ بنتَ مالكِ بن المنذر ، من آل نصر .

وملك النعمانُ بنُ المنذرِ فارسُ حايمة ، وهو الذي بنى الخَوَرنَقَ وكَرْدَسَ الكراديس(١) ؛ خمساً وثلاثين سنة ، وكانت أُمُّه هند بنت زيد مَنَاةَ من آل غسان .

وملك الأسودُ بنُ النعمان ؛ عشرين سنة ، وكانت أمه هند بنت الهيجمانة ، من آل نصر .

وملك المنذُرِ بن الأسود بن النعمان بن المنذر أربعاً وثلاثين سنة ، وكانت أمُه ماء السماء بنت عوف بن النمر بن قاسط بن هيت بن أفصى بن دعمى بن جَدِيلة ابن أسد بن ربيعة بن نزار ؛ وإنما سميت ماء السماء لحسنها وجمالها .

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر ، أربعاً وعشرين سنة ، وكانت أمهُ حليمةَ بنتَ الحارثِ من آل معد يكرب .

---

(١) الخورنق : قصر معروف من قصور الحيرة ; وكردس الخيل : جمعها كتيبة كتيبة .

وملك المنذرُ بنُ عمرو بن المنذر ، ستين سنة ، وكانت أمه أخت عمرو بن قابوس من آل نصر .

ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة ، وكانت أمه هند بنت الحارث ، من آل معاوية بن معديكرب .

وملك النعمان بن المنذر ، وهو الذي يقال له : « أبيت اللعن » اثنتين وعشرين سنة ، وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب .

بنتُ النعمان وسعدُ بنُ أبي وقاص : وقد كانت حُرَقَة بنتُ النعمان بن المنذر إذا خرجت إلى بِيعَتِها(١) يُفرَشُ لها طريقُها بالحرير والديباج ، مُغَشّىً بالخز والوشي ، ثم تقبل في جواريها حتى تصل إلى بيعتها ، وترجِعَ إلى منزلها ، فلما هلك النعمان نكبها الزمان ، فأنزلها من الرِّفعة إلى الذِلَّة ، ولما وفد سعدُ بنُ أبي وقاص(٢) القادسيةَ أميراً عليها هَزَمَ اللهُ الفُرْسَ وقُتِلَ

(١) البيعة : الكنيسة .

(٢) سعد بن أبي وقاص : (ت ٥٥ هـ — ٦٧٥ م) قرشي زهري صحابي . قاد جيوش فتح فارس وانتصر على رستم في القادسية .

رُستُمُ ، فأتت حُرَقَةُ بنتُ النعمان في حَفَدَة (١) من قومِها وجواريها وهُنَّ في زيِّها عليهن المسوحُ والمُقَطَّعات (٢) السودُ ، مُترهِّبات تَطلُبُ صلتَه ، فلما وقفنَ بين يديه أنكَرهُنَّ سعدُ ، فقال : أفيكُنَّ حُرَقَة ؟ قالت: هاأنا ذه ، قال : أنت حُرَقَةَ ؟ قالت : نعم ، فما تكرارُك في استفهامي ؟ ثم قالت : إن الدنيا دارُ زوالٍ ، ولاتدومُ على حالٍ ، تنتقل بأهلها انتقالاً ، وتُعقِبُهم بعد حالٍ حالا ، كنا ملوكَ هذا المِصر . يُجبى لنا خراجهُ ، ويُطيعنا أهلُه مدى المدةِ وزمانَ الدولةِ فلما أدبرَ الأمرُ وانقضى صاحَ بنا صائحُ الدهر ، فَصَدعَ عصانا وشتت شملَنا ، وكذلكَ الدهرُ ياسعدُ إنه ليس يأتي قوماً بمسرَّةٍ إلا ويُعْقِبهُم بحسرةٍ ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوسُ الناس والأمرُ أمرُنا
إذا نحن فيهم سُوقَةٌ ليس نُعرَف

(١) الحفدة : الأعوان والخدم .
(٢) المقطعات : برود عليها وشي .

فأفٍّ لدنيا لايدومُ نعيمُها
تَقلّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرّفُ

فقال سعد : قاتل الله عَدِيَّ بنَ زيدٍ (١) كأنه ينظر إليها حيثُ يقول :

إن للدهرِ صولةً فاحذرنْها
لاتبيتنَّ قد أمِنتَ الدهورا
قد يبَيتُ الفتى مُعافىً فيُردى
ولقد كان آمناً مسروراً

قال : فبينا هي واقفةٌ بين يدَي سعدٍ إذ دَخَلَ عمرو بنُ معدِ يكْرِب (٢) ، وكان زَوّاراً لأبيها في الجاهلية ، فلما نَظَر إليها قال : أنت حُرَقَةُ ؟ قالت : نعم ، قال : فما دَهَمَكِ فأذهبَ محموداتِ شِيَمِكِ ؟

---

(١) عدي بن زيد (ت نحو ٥٨٧ م) من شعراء الجاهلية . نشأ في الحيرة وتولى الكتابة في ديوان هرمز ملك الفرس . قتله النعمان .

(٢) عمرو بن معد يكرب : (ت نحو ٢١ هـ — ٦٤٢ م) فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة . شهد اليرموك والقادسية . له شعر جيد . قيل : قتل عطشاً يوم القادسية .

وأين تتابعُ نِعمتِك وسَطَواتُ نِقْمتِك ؟ فقالت : ياعمرو ، إن للدهر لَسَطَوات وعَثَرات وعِبَرات ، تَعثُرُ بالملوك وأبنائهم ، فتَخفضُهم بعد رِفْعة ، وتُفردهم بعد مَنَعَةٍ ، وتُذلُّهم بعد عِزَّة ، إنَّ هذا لأمرٌ كنا ننتظرُه ، فلما حلَّ بِنَا لم نُنكرْه ، قال : فأكرَمَها سعدٌ ، وأحسنَ جائزتَها ، فلما أرادت فراقَه قالت : حتى أحييك بتحية ملوكنا بعضهم لبعضٍ : لانَزَعَ اللهُ من عبدٍ صالحٍ نِعمةً إلا جعلك سبباً لِردِّها عليه ! ثم خرجت من عنده فلقيتَها نساءُ المدينة ، فقُلنَ لها : مافعل بك الأميرُ ؟ قالت : حاطَ لي ذمّتي (١) . وأكرَمَ وجهي ، إنما يُكرِمُ الكريمَ الكريمُ .

وسنذكر خبرَ هند بنتِ النعمان مع المُغيرةِ بنِ شعبة(٢) أيام إمرته على الكوفة ، فيما يرد من هذا الكتاب ، عند ذكرنا لأخبار معاوية بن أبي سفيان .

---

(١) حاط لي ذمتي : حفظ عهدي ورعاه .

(٢) المغيرة بن شعبة : (ت ٥٠ هـ — ٦٧٠ م) ثقفي من دهاة العرب . صحابي قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس . ولاه عمر البصرة والكوفة . ثم ولي لمعاوية الكوفة .

قال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : فهؤلاء ملوك الحيرة إلى أن ظهر الإسلام فأظهره الله ، وأذلّ الكافرين ، فجميعُ من سمّينا من هؤلاء الملوك من ولد عمرو بن عدي بن أخت جذيمة الأبرش ، على حسب ماقدمنا آنفاً في صدر هذا الباب ، ثم جاء الإسلامُ ومَلِكُ الفرس كسرى أبرويز بن هرمز ، فملّك على العرب بالحيرة إياسَ بن قَبيصة الطائي ، فكان ملكهُ تسعَ سنين ، ولثمانية أشهر ، مَضتْ من مُلْك إياس ، كان مَبْعثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مَلَكَ الحيرةَ جماعةٌ من الفرس ، وقد كان قبل عمرو بن عدي ملوكٌ على الحيرة على حسب ماذكرنا ، وكان عِدّةُ الملوكِ بالحيرة ثلاثةً وعشرين مَلِكاً من بني نصرٍ وغيرهم من العرب والفرس ، وكان مُدّةُ مُلْكِهم ستمائة سنةٍ واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر ، وقد قيل : إن عُمرانَ الحيرة وبَدْوَهُ إلى أن خَرِبَتْ في وقتِ بناء الكوفة ، كان خَمْسَمائةِ سنةٍ وبضعاً وثلاثين سنة .

خراب الحيرة : قال المسعوديُّ : ولم يزل عمرانُها

يتناقصُ من الوقت الذي ذكرنا إلى صدرٍ من أيام المعتضد(١) ، فإنه استولى عليها الخرابُ ، وقد كان جماعةٌ من خلفاء بني العباس — كالسفَّاح ، والمنصورِ ، والرشيدِ ، وغيرِهم — ينزلونَها ويصلون المقامَ بها لطيب هوائها ، وصفاءِ جَوهَرها ، وصِحَّة تُربتها ، وصلابتها ، وقُرْبِ الخَوَرْنَق ، والنَجَف منها ، وقد كان فيها دِيَارَاتٌ (٢) كثيرةٌ فيها رُهبانٌ ، فلحقوا بغيرها من البلاد ، لتداعي الخرابِ إليها ، وأقفرت من كلِّ أنيس ، في هذا الوقت ليس بها إلا الصَّدَى والبُومُ ، وعندَ كثير من أهل الدِّراية التَامَّة بما يَحدُثُ في المستقبل من الزمان أن سَعادَها سيعودُ بالعمران ، وأن هذا النحسَ عنها سيزولُ ؛ وكذلك الكوفةُ .

قال المسعودي : ولمن سمينا من ملوك الحيرة أخبارٌ وسيَرٌ وحروبٌ قد أتينا على ذكرها الغُرَرِ من مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » وفيما بعدُ من هذا الكتاب ، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الباب .

---

(١) المعتضد : أحمد بن طلحة . ولي الخلافة بعد المعتمد على الله توفي سنة ٢٨٩ هـ في بغداد .

(٢) ديارات : ج دير .

ذكر ملوك الشام من اليمن
من غسان وغيرهم من الملوك

أول ملوك الشام : كان أوَّلَ من مَلَكَ الشام من اليمن فالغُ بن يغور .

ثم مَلَكَ بعده يوتابُ ، وهو أيوّبُ بن رزاح ، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه ماكان من خبره على لسانِ نبيه ، وما اقتصّ من أمره (١) ، ثم غابت الروم على ديارها ، فتفرقوا في البلاد ، وكانت قُضاعةُ بن مالك بن حمير أول من نزل الشام وانضافوا إلى ملوك الروم ، فملكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشامَ من العرب .

تنوخ ونسبها : وكان أوَّلَ من مَلَكَ من تَنُوخَ النعمانُ بن عمرو بن مالك، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان ابن عمرو ، ثم مَلَكَ بعدَه الحَوَارِيُّ بنُ النعمان ، ولم يملِكْ مِن تَنوخَ إلا من ذكرنا ، وهو تَنُوخُ بن مالك بن فهم بن تيم اللات بن الأزد بن وبرة بن ثعلبة

---

(١) اقتص الحديث : رواه على وجهه .

ابن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة بن مالك ابن حمير .

وقد تُنُوزِع في قضاعةَ : أمن مَعَد كان أم من قحطان ؟ فقضاعة تأبى أن تكون من مَعَدّ ، وتزعمُ أنها من قحطانَ على ماذكرنا ، وقد قيل في نسب قضاعةَ واتصالِها بحِمْيَرَ غيرُ ماذكرنا من النسب .

سليح ونسبها : ثم وردت سليحُ الشامَ فغلبت على تنوخَ ، وتنصّرَتْ فملّكتها الرومُ على العرب الذين بالشام ، وهم وَلَدُ سليح بن حلوان بن عمران بن إلحاف ابن قضاعة ، فاستقام مُلْكُ سليح بالشام وتفرقت قبائلُ العرب لما كان بمأرب وقصة عمرو بن عامر مزيقياء ، فسارت غسان إلى الشام وهم من ولد مازن ، وذلك أن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ولد مازن ، وإليه ترجع جميع قبائل غسان ، وإنما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك ، وهو مابين زبِيد ورِمَع ، وادي الأشعريين

بأرض اليمن وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الأنصاري(١) :

إمّـــا سألتِ فإنا معـــشر نُجُـــبٌ
الأزدُ نســبتُنا والمــاءُ غســـّانُ

وسنذكر بعد هذا الموضع خبرَ عمرو بن عامر مزيقياء ، وخبرَ سيلِ العَرِمِ ، وتفرقهم في البلاد ، وخبرَ الماء المعروف بغسان ، وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرجَ من مأرب لم يزل مقيماً على هذا الماء إلى أن أدركه الموتُ ، وكان عمره ثمانمائة سنة : أربعمائة سُوقةً ، وأربعمائة ملكاً .

ملوك غسان على الشام : وغلبت غسانُ على مَنْ بالشام من العرب ، فملّكها الرومُ على العرب ، فكان أوّلَ من ملك من ملوك غسان بالشام الحارثُ بن عمرو ابن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن وهو غسانُ بنُ الأزد بن الغوث .

ثم ملك بعده الحارثُ بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو

(١) حسان بن ثابت : (ت نحو ٥٤ هـ) شاعر مخضرم اتصل بالغساسنة ومدحهم . ثم أسلم وغدا شاعر الرسول (ص) . ديوانه مطبوع .

ابن عامر بن حارثة ، وأمُّهُ مَارِيَةُ ذاتُ القُرطين (١) بنتُ أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو ، وذكر أنها مارِيَةُ بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور وهو كِنْدَة ، وهي التي ذكرتها الشعراء في أشعارها ، وتُنْسَبُ جماعةٌ من ملوك غسان إليها .

ومَلَكَ بعده النعمانُ بنُ الحارثُ بن جَبَلَة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو .

ثم مَلَكَ بعده المنذرُ أبو شَمِر بن الحارث بن جبلة ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو .

ثم ملك بعده عوف بن أبي شَمِر .

ثم ملك بعده الحارثُ بن أبي شَمِر ، فكان ملكُهُ حين بُعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

حسانُ والحارثُ الغساني : وذَكَرَ عِدَّة من الإخباريين أنَّ حسانَ بنَ ثابتٍ الانصاريَّ زارَ الحارثَ بن أبي شَمِرٍ الغساني بالشام — وكان النعمانُ

---

(١) هي مارية بنت أرقم: كان في قرطها درتان كبيضتي حمامة لم ير مثلهما ، فأهدتهما إلى الكعبة فقيل : « خذه ولو بقرطي مارية » .

ابنُ المنذر اللخمي مَلكُ الحيرة يُساميه — فقال له وهو عنده : يابن الفُرَيعة . لقد نبئت أنك تُفضِّلُ النعمانَ عليَّ ، فقال : وكيف أفضله عليك ؟ فوالله لقفاك أحسنُ من وجهه ، ولأمُّكَ أشرفُ من أبيه ؛ ولأبوك أشرفُ من جميع قومه ، ولَشمالُكَ أجودُ من يَمينه ، ولحرمانُكَ أنفع من نداه ، ولقليلُكَ أكثرُ من كثيره ، ولَثمادُكَ أمرَعُ من غديره(١) ، ولَكرسيُّكَ أرفعُ من سريره ، ولجداولُكَ أغورُ من بحره(٢) ، ولَيومُكَ أطول من شهره ، ولَشهرُكَ أمدُّ من حَوْله ، ولَحوْلكَ خيرٌ من حِقَبِه ، ولزَندُكَ أورى من زَنده (٣) ، ولجندُكَ أعز من جُنده ، وإنك من غسان وإنه من لَخْم ، فكيف أفضّله عليك أو أعدلُه بك ؟ فقال : يا بن الفُرَيعة ، هذا لايسمع إلا في شعر ، فقال :

ونبئت أن أبا منذر
يساميك للحارث الأصغر

---

(١) الثماد : الماء القليل . وأمرع : أخصب .
(٢) أغور : أبعد غوراً .
(٣) زندك أورى من زنده : أي : انت أكثر نجدة منه .

قفـــاؤك أحســنُ مــن وجهـــه
وأمُّــاك خـــيرٌ مــن المـــنذر

ويُسْـــرَى يديك عـــلى عُســرْها
كيُمـــنى يديـــه عـــلى المُعسِر

جَبَلَةُ بنُ الايهم : ثم مَلَكَ بعدَه جَبَلَةُ ابنُ الأيهمِ بنِ جَبَلَةَ بنِ الحارث بنِ ثَعْلَبَةَ بن جَفْنَةَ بنِ عمرو بنِ عامر بن حَارِثَةَ بنِ امرئِ القيس ابن ثَعْلَبَة بن مازنٍ ، وهو غسان بن الأزد بن الغوث ، وهو الملك الذي امتدحه حسان بن ثابت الانصاري ، حيث يقول في شعر طويل :

أَشْهِرَنْهـــا فإن مَلْكَكَ بالشـــا
م إلى الـــروم فخرُ كلِّ يمـــاني

وفيه يقول أيضاً (١) :

(١) في شرح البرقوقي على ديوان حسان وردت بعض أبيات القصيدة على النحو التالي :

لمن الــدار أوحشت بمعــان بين أعلى اليرموك فالخمان
فالقريــات من بلاس فــدار يـــا فسكاء فالقصــور الدواني
فقفا جــاسم فأوديــة الصفر مغنى قبــائل وهجــان

لمن الدارُ أقفرتْ بمَعَانِ
بين أعلى اليرموك والصَّمَّان

من قُرَيّات من ثلاثين عدت
ناسكاً منه بالقصور الدواني

قد دنا الفصْحُ والولائد ينظم
نَ سراعاً أكلّة المرجان

ذاك مغنى لآلِ جفنةَ في الدهـ
ر ، وحقاً تصرفُ الأزمان

صلَواتُ المسيحِ في ذلك الد
ير دعاء القسيس والرهبان

وهذه مواضع وقرى من غوطة دمشق وأعمالها بين الجولان واليرموك .

ديار غسان : وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان ، وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام .

وجبَلةُ بن الأيهم هو الذي أسلم وارتدَّ عن دينه خوفَ العار والقوَدِ (١) من اللطْمة ، وخبرُه واضحٌ مشهور قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا ، وسائر أخبارِ ملوكِ تنوخَ وسليحَ وغسانَ وغيرِهم ممن ملك الشام ، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن أبي شَمِرِ الغساني إلى الإسلام وترغيبه في الإيمان ، وقد أتينا على خبره وما كان من إسلامه وأخباره مع النبي صلى الله عليه وسلم في « أخبار الزمان » وفي أبيه يقول النابغة (٢) :

هـــذا غُــلام حســنٌ وجْهــهُ
مستقبلُ الخـــير ســريعُ التمَــام
للحارث الأكبرِ والحارثِ ال
أصــغر ، والحــارثُ خــيرُ الأنــام

---

(١) القود : القصاص .

(٢) النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية . عاش في النصف الأخير من القرن الخامس الميلادي . شاعر جاهلي من الفحول . نادم ملوك الحيرة . سَخِط عليه النعمان فاتصل بالغساسنة بالشام فأكرموا مثواه . له ديوان شعر مطبوع .

ثم هند وهند وقد
أسرع في الخيرات منه أمام

وخمسة آباؤهم ماهُمُ
أكرمُ منْ يشربُ صَوْبَ الغَمام

فجميعُ من ملك من ملوك غسان بالشام أحد عشر ماكاً ؛ وقد كان بالشام ملوكٌ ببلاد مادب (١) من أرض البلقاء من بلاد دمشق ، وكذلك مدائن قوم لوط من أرض الأُرْدُنّ وبلاد فلسطين ، وكانت خمسَ مدن . وكانت دار المملكة منها ، والمدينة العظمى مدينة سَدُوم ، وكانت سِمَتُهُ كلّ ملك يمالِكُها بارعاً ، وكذلك ذُكِر في التوراة . وذُكِرت أسماء هذه المدن ، أعرضنا عنه(٢) ؛ إذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار .

وقد كان لكندة وغيرها من العرب من قحطان

(١) مادب : لم يذكرها ياقوت . ولعلها مآب وهي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء ، أو لعلها مأدبا .
(٢) العبارة مضطربة وأظن صوابها : وكذلك ذكر في التوراة . وذكر أسماء هذه المدن أعرضنا عنه . . إلخ .

ومعدّ ملوك كثيرة لم نتعرض لذكرها ؛ إذ كان لا أسماء لهم تَعُمُّهم وتشهرهم ، كقولنا : الخليفة وقيصر وكسرى والنجاشي ، ولئلا يطول الكتاب بذكرهم ، وقد أتينا على سائر ملوك العرب من معدّ وقحطان وغيرهم ممن وُسِم بالملك في بعض الممالك في سائر الأمم الخالية والممالك الباقية ، من البيضان والسودان ، ممن أمكن ذكره وتأتى لنا الإخبار عنه ، وإنما ذكرنا في هذا الكتاب من الملوك من اشتهر مُلْكُه ، وعُرِفتْ مماكته ، مَيْلاً إلى الاختصار ، وطلباً للإيجـاز ، وتنبيهاً على ما سلف من أخبارهم في كتبنا المتقدم ذكرها من تصنيفنا ، والله الموفق .

ذكر البوادي
من العرب وغيرها من الأمم
وعلة سكناها البدْو ، وجمل من أخبار العرب
وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى

قد تقدم ذكرنا لولد قحطان ، وأن من عداهم من العرب العاربة دثرت من عاد وطَسْم وجديس وعملاق وجرهم وثمود وعبيل ووبار ، وسائر من سمينا ، وأن

من بقي ممن ذكرنا دخلوا في العرب الباقية إلى هذا الوقت ، وهم قحطان، ومعدّ ، ولانعلم أن قَبِيلاً بقي يُشار إليه في الأرض من العرب الأولى غيرُ مَعَدّ وقحطان ، وذكرنا مَنْ طاف البلادَ من ملوكهم ، مثل التبابعة والأذواء ، ومن شيَّد البنيان في الشرق والغرب، ومصَّر الأمصار ، وبنى المدن الكبار ، كإفريقس بن أبرهة ، وما بَنَى بالمغرب من المدن كمدينة إفريقية (١) وصقلية ، وما كوَّر من الكُوَر هنالك ، وما اتخذ من العمائر ، وكمسير شَمِر إلى أرض المشرق ، وبُنْيانه سَمَرْقَند (٢) ، ومن خلف هنالك من حِمْيَر بها ،وببلاد التُبَّت والصين ، وقد ذكر ذلك جماعة من شعرائهم ممن سلف وخلف .

ورأت العرب أن جولانَ الأرض وتخيُّرَ بقاعها على الأيام أشبهُ بأولي العز ،وأليقُ بذوي الأنفة ، وقالوا:

---

(١) إفريقية : أعظم مدن المغرب فتحها عبد الله بن أبي السرح في خلافة عثمان . قالوا : فلما اختط المسلمون القيروان خربت أفريقية وبقي اسمها على الصقع كله . وطول إفريقية من برقة إلى طنجة وعرضها من البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى . وموقع المدينة في الأراضي التونسية .

(٢) سمرقند : من مدن أوزبكستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي اليوم .

لنكون(١) مُحكمين في الأرض، ونسكن حيث نشاء أصلح من غير ذلك ، فاختاروا سُكنى البدو ، من أجل ذلك .

وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم اللهُ من سمو الأخطار (٢) ، ونُبلِ الهمم والأقدار ، وشدّةِ الأنَفَةَ ، والحميّة من المعرة(٣) ، والهرب من العار ، بدأت بالتفكُّر في المنازل ، والتقدير للمواطن ، فتأمّلوا شأنَ المدنِ والأبنية ، فوجدوا فيها مَعَرّةً ونقصاً ، وقال ذوو المعرفة والتمييز منهم : إنّ الأرَضين تَمْرضُ كما تَمْرضُ الأجسام ، وتلحقها الآفاتُ ، والواجبُ تخيُّرُ المواضع بحسب أحوالها من الصلاح ، إذ الهواء ربما قويَ فأَضَرَّ بأجسام سُكّانه ، وأحال أمزجة قُطّانه ، وقال ذوو الآراء منهم : إن الأبنيةَ والتحويطَ حَصْرٌ عن التصرُّفِ في الأرض ، ومَقْطعةٌ عن الجولان ، وتَقييدٌ للهمم ، وحَبْسٌ لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خيرَ في اللّبثِ على هذه الحالة ، وزعموا

---

(١) كذا وردت ولعل الأصل : لنكن محكمين في الأرض .

(٢) الأخطار : الأقدار والمنازل . وخطر الرجل : منزلته وقدره .

(٣) المعرة : الأذى .

أيضاً أن الأبنيةَ والأطلالَ تَحصُرُ الغذاءَ وتمنعُ اتّساعَ الهواء ، وتَسُدُّ سُروحَه عن المرور ، وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيح (١) الذي لايخافون فيه من حَصْرٍ ومُنازلةِ ضُرّ ، هذا مع ارتفاع الأقذاء ، وسماحةِ الأهواء ، واعتزال الوباء ، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن ، ونقاءِ القرائح في التنقل في المساكن ، مع صحّةِ الأمزجة ، وقوّةِ الفِطنة ، وصفاءِ الألوان ، وصيانة الأجسام ، فإن العقول والآراء تتولد من حيث تَولُّدُ الهواء ، وطبع الهواء الفضاء ، وفي هذا الأمنُ من العاهات والأسقام والعلل والآلام ، فآثرتِ العربُ سكنى البوادي والحلولَ في البيداء ، فهم أقوى الناس هِمماً ، وأشدُّهم أحلاماً ، وأصحُّهم أجساماً ، وأعزُّهم جاراً ، وأحماهم ذماراً ، وأفضلُهم جواراً ، وأجودُهم فِطَناً ؛ لما أكسبهم إياه صفاءُ الجو ونقاءُ الفضاء ، لأن الأبدانَ تحتوي أجزاؤها على متكاثف الأكدارِ وعناءِ الأقذار مما يرتفع إليه ، ويتلاطم في عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه ، ففي

---

(١) الأفيح : الواسع .

أكنافه جميعُ ما يتصعد إليه ، والذلك تراكبت الأقذاءُ والأدواء والعاهات في أهل المدن، وتـَركَّبت في أجسامهم، وتضاعفت في أشعارهم وأبصارِهم ، ففـُضِّلَتِ العربُ على سائر من عداها من بوادي الأمم المتفرقة لما ذكرنا من تخيرُّها الأماكنَ وارتيادها المواطن .

قال المسعودي : والذلك جانبوا فظ ظةَ الأكراد وسُكَّان الجبالِ من الأجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم حُزونُ الارض ودَهَسُها (١) ، وذلك أنَّ هذه الأممَ الساكنةَ هذه الجبال والأودية تـُناسِبُ أخلاقُها مساكِنَها في انخفاضها وارتفاعها ؛ لعدم استقامة الاعتدال في أرضها ، فالذلك اخلاقُ قُطـَّانها على ماهي عليه من الجفاء والغلظ .

خطيب العرب عند كسرى يعلل اختيار قومه البداوة : وذكر الهيثم بن عدي (٢) والشرقي بن القطامي

---

(١) الدهاس : ج أدهاس : الأرض السهلة . والحزون : الأرض الوعرة .

(٢) الهيثم بن عدي : (١١٤ – ٢٠٧ هـ) أبو عبد الرحمن . مؤرخ عالم بالأدب والأنساب . أصله من منبج . جالس المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم . له كتاب « بيوتات العرب » .

وغيرهما من الإخباريين أنه وفد على كسرى أنوشروان بعضُ خطباء العرب ، فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيارها البدو ، فقال : أيها الملك ، ملكوا الأرض ولم تمايكهم ، وأمِنوا عن التحصُّن بالأسوار ، واعتمدوا على المرهفات الباترة ، والرماح الشارعة (١) جُنَناً وحصوناً (٢) ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له ، يَرِدون منها خيارها ويقصدون ألطافها ، قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟ قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدي مشرقين في البر (٣) بحسب ذلك ، قال : فما رياحها ؟ قال : أكثرها النكباء بالليل ، والصبا عند انقلاب الشمس ، قال : فكم الرياح ؟ قال : أربع ، فإذا انحرفت واحدة منهن قيل : نكباء ، ومابين سُهَيل إلى طرف بياض الفجر جنوب ، ومابازائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال ،

---

(١) المرهفات الباترة : السيوف القاطعة . والرماح الشارعة : المسددة .

(٢) جنن : ج جنة : السترة أو مايستتر به من سلاح .

(٣) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب . والجدي : النجم الذي يدور مع بنات نعش وهو بلزق الدلو .

وما جاء من وراء الكعبة فهي دَبور ، وما جاء من قبل ذلك فهي صَبا ، قال : فما أكثر غذائهم ؟ قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر ، قال : فما خلائقُهم ؟ قال : العزُّ ، والشرفُ ، والمكارم ، وقِرى الضيف ، وإذمامُ الجار(١) ، وإجارة الخائف ، وأداء الحمـــالات ، وبذل المهج في المكرمات ، وهم سُراة الليل ، وليوث الغِيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وشَنِفُوا الضراعة(٢) ، لهم الأخذُ بالثأر ، والأنفَةُ من العار ، والحماية للذمار ، قال كسرى : لقد وصفت عن هذا الجيل كَرَماً ونُبْلاً ؛ وما أولانا بإنجاح وفادتِك فيهم .

فتخيرت العربُ في البرِّ أنزالاً منها مَشاتٍ ومنها مصايفُ : فمنهم المُنجدُ والمُتهمُ : فالمنجدُ منهم هم الذين سكنوا أرْض نَجد ، والمتهمُ هم الذين سكنوا أرضَ تِهامة ، ومنهم من سكَنَ أغوارَ الأرض كغور بَيْسان وغورِ غَزَّةَ من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لَخْم وجُذَام ، ولجميع العرب

(١) إذمام الجار : إجارته .
(٢) شنفوا : أبغضوا وكرهوا .

مياهٌ يجتمعون عليها وملكية يعرجون إليها ، كالدهناء والسماوة والتهائم وأنجادِ الأرض والبقاع والقيعان والوِهاد ، ولستَ تكادُ ترى قَبيلاً من العرب تَوغّل من الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم ، كماءِ ضارجٍ وماءِ العقيقِ والهبّاءة (١) وما أشبه ذلك من المياه .

الأكراد ، ونسبهم ، ومساكنهم : وأما أجناسُ الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس في بدئهم ؛ فمنهم من رأى أنهم من ربيعةَ بنِ نزار بن معد بن عدنان ، انفردوا في قديم الزمان ، وانضافوا إلى الجبال والأودية ، دعتهم إلى ذلك الأنفة ، وجاوروا من هنالك من الأمم الساكنةِ المدُنَ والعمائر من الأعاجم والفرس ، فتحوّلوا عن لسانهم ، وصارتْ لغتُهم أعجمية ؛ ولكل نوع من الأكراد لغةٌ لهم بالكردية ، ومن الناس من رأى أنهم من مُضَر بن نزار ، وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وأنهم انفردُوا في قديم الزمان

---

(١) ماء ضارج : قال ياقوت : ضارج قرب الكوفة . وضارج بين اليمن والمدينة . وماء العقيق باليمامة وعقيق المدينة أيضاً . والهباءة ببلاد غطفان .

لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان ، ومنهم من رأى أنهم من ربيعةَ ومضرَ ، وقد اعتصموا في الجبال طلباً للمياه والمراعي فحالوا عن اللغة العربية (١) لما جاورهم من الأمم .

ومن الناس من ألحقهم بإماء سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام حين سُلِبَ مُلْكُهُ ووقعَ على إمائه المنافقات ، الشيطانُ المعروف بالجسد ، وعصمَ اللهُ منه المؤمناتِ أن يَقَعَ عليهن ، فعلقَ منه المنافقات ، فلما رَدَّ اللهُ على سليمانَ مُلْكَه ووضع تلك الإماء الحوامل من الشيطان ، قال : اكردوهن (٢) إلى الجبال والأودية ، فربتهم أمهاتهم ، وتناكحوا ، وتناسلوا ، فذلك بدءُ نَسَبِ الأكراد .

وسنورد بعد هذا الباب جُمَلاً من أخبار العرب الداثرة وغيرها وتفرقها في البلاد ، ونذكر جملاً من

---

(١) حالوا عن لغتهم : تحولوا عنها .
(٢) أكردوهن إلى الجبال : أطردوهن .

آرائها ودياناتها في الجاهلية ، وما ذهبت إليه في الغيلان(١) والهواتف والقيافة والكهانة والتفرس والصدى والهام ، وغير ذلك من شيمها ، وبالله التوفيق .

ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية وتفرقها في البلاد ، وخبر أصحاب الفيل وعبد المطلب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

ديانات العرب في الجاهلية : قال المسعودي : كانت العربُ في جاهليتها فِرَقاً : منهم الموحِّدُ المُقِرُّ بخالقه ، المصدِّقُ بالبعثِ والنشور ، موقناً بأن الله يُثيب المطيع ، ويعاقِب العاصي ، وقد تقدَّمَ ذكرُنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا مَنْ دعا إلى الله عز وجل ونبَّه أقوامَه على آياته في الفترة(٢) كقُسِّ بن ساعدة الإيادي ورِئاب الشَّنِّي (٣) ، وبَحيرا الراهب ، وكانا من عبد القيس .

---

(١) الغيلان : كل ماأهلك الإنسان واغتاله فهو غول . والغول من السعالي ج أغوال وغيلان .

(٢) الفترة : هي المدة بين ظهور رسولين .

(٣) رئاب الشني : من عبد القيس ، وكان على دين المسيح عليه السلام . ظهر قبل مبعث النبي (ص) .

وكان من العرب من أقَرَّ بالخالق ، وأثبتَ حدُوثَ العالم وأقر بالبعث والإعادة ، وأنكرَ الرُّسُل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : «(ما نَعْبُدُهُمْ إلا ليقرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى – الآية)» وهذا الصِّنفُ هم الذين حَجُّوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البُدْنَ ، ونَسكوا لها النسائِكَ(١) ، وأحَلُّوا لها وحَرَّمُوا .

ومنهم من أقرَّ بالخالق ، وكَذَّب بالرسُلِ والبعْث ، ومال إلى قول أهْل الدَّهْر ، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم ، وخَبَّرَ عن كفرهم ، بقوله تعالى : «(وقالوا ما هيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نموتُ ونحيَا وما يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ)» ، فرد الله عليهم بقوله : «(مالهم بذلك من عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّون)» .

ومنهم من مال إلى اليهودية والنَّصرانية .

ومنهم المارُّ على عُنْجُهِيَّتهِ ، الرَّاكب لهَجمتَه(٢).

---

(١) البدن : ج بدنة : ناقة أو بقرة تنحر بمكة وسميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها . والنسائك : ج نسيكة : الذبيحة .

(٢) هجمت عينه : غارت ولعل المقصود الضلال . وربما كانت : لهمجيته .

وقد كان صنف من العرب يَعبُدون الملائكةَ ، ويزعمُون أنها بناتُ الله ؛ فكانوا يعبدونها لتشفعَ لهم إلى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى : «(ويَجعلونَ لِلهِ البناتِ ، سبحانَهُ ، ولهم مايشتهون)» وقوله تعالى : «(أفرَأيتم اللاَّتَ والعُزَّى ، ومَناةَ الثالثةَ الأُخرى ؟ ألكمُ الذَّكرُ وله الأنثى ؟ تلك إذاً قِسمَةٌ ضِيزَى)» .

عبد المطلب بن هاشم : فممَّنْ كان مقراً بالتوحيد ، مُثبِتاً للوعيد ، تاركاً للتقليد ، عبدُالمطَّلِب بنِ هاشم ابن عبد مناف ، وقد كان حَفَرَ بئرَ زَمزم ، وكانت مَطْوِيَّةً ، وذلك في مُلْكِ كسرى قباذ ، فاستخرج منها غَزالَي ذَهَبٍ عليهما الدُّرُ والجوهَرُ ، وغير ذلك من الحُلِيِّ ، وسَبْعةَ أسيافٍ قلعيَّة(١) ، وسبعةَ أدرعٍ سوابغٍ ؛ فضرب من الأسياف باباً للكعبة ، وجعل إحدى الغزالتين صفائحَ ذَهبٍ في الباب ، وجعل الأُخرى

---

(١) السيوف القلعية : تنسب إلى بلدة بالهند تسمى القلعة وإليها ينسب الرصاص الجيد .

في الكعبة ، وكان عبدُ المطلب أوّلَ من أقام الرِّفادة(١) والسِّقاية للحاج ، وكان أوّلَ من سقى الماءَ بمكةَ عذْباً ، وجعل بابَ الكعبة مُذَهَّباً ، وفي ذلك يقول عبد المطلب :

أعطِي بلا شُحٍّ ولا مشـــاحح
سقياً على رغم العـدو الكـــاشح
بعد كنوز الحُـلْيِ والصـــفائح
حلياً لبيت الله ذي المسارح (٢)

وكان قد نذر إنْ رزقه الله عز وجل عشرة أولاد ذكور أن يقرِّبَ أحدَهم لله تعالى فكان أمره — حين رزقه الله إياهم — أن قرَّبَ أحبَّهم إليه وهو عبدُ الله أبو النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فضرب عليه بالقِدَاح حتى افتداه بمائة من الإبل ، في خبر طويل .

تعدد الألسنة واختلاطها : وقد كان في مُدُنِ

---

(١) الرفادة : إطعام الحاج .
(٢) المشاحة : البخل . والكاشح : مضمر العداوة . والمسارح : ج مسرح : العطاء بلا مطل .

النمروذ بن كوش بن حام بن نوح هيجانُ الريح التي نسفت صَرْحَ النمروذ ببابل من أرض العراق ، فبات الناس ولسانهم سرياني ، وأصبحوا وقد تفرقت لغاتُهم على اثنين وسبعين لساناً ، فسُمِّيَ الموضعُ من ذلك الوقت بابلَ ، فصار من ذلك في ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً ، وفي ولد حام بن نوح ستة عشر لساناً ، وفي ولد يافث ابن نوح سبعة وثلاثون لساناً على حسب ماذكرنا في صدر هذا الكتاب ، وكان من تكلم بالعربية يعرب وجرهم وعاد وعبيل وجديس وثمود وعملاق وطسم ، ووبار وعبد ضخم .

قومُ شُعَيْب : وقد تنازع أهلُ الشرائع في قوم شعيب بن نويل بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين ابن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وكان لسانُه العربيةَ ، فمنهم من رأى أنهم من العرب الداثرة ، والأمم البائدة ، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية ، ومنهم من رأى أنهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم ، وأن شعيباً أخوهم في النسب ، وقد كانوا عِدَّةَ ملوك تفرقوا في ممالكَ متصلة ومنفصلة ، فمنهم

المسمى بأبي جاد وهوَّز وحُطِي وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرفُ الجُمَّل (١) على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حسابُ الجُمَّل ، وقد قيل في هذه الأحرف غير ماذكرنا من الوجوه ، على حسب ماقدمنا في هذا الكتاب ، وليس كتابُنا هذا موضعاً لما قاله الناس فيها ، وتنازعوا في تأويلها والمراد بها ، وكان أبجدُ ملِكَ مكَّةَ وما يليها من الحجاز ، وكان هوز وحطي ملكَين ببلاد وَجٍّ ، وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمَدْيَن ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على مُلْكِ مَدْيَن ،ومن الناس مَنْ رأى أنه كان ملِكاً على جميع من سمينا مُشاعاً متصلاً على ما ذكرنا ، وأن عذابَ يومِ الظُّلَّةِ (٢) كان في مالك كلمن منهم ، وأن شعيباً دعاهم فكذبوه ، فوعدهم بعذاب يوم الظُّلَّة ،

---

(١) أحرف الجمل : مايبنى عليها حساب الجمل وهو حساب الحروف الهجائية ولكل حرف قيمة رقمية .

(٢) الظلة : غيم تحته سموم .

ففُتِح عليهم بابٌ من السماء من نار ، وانحاز شعيبٌ بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بالأيكة ، وهي غيْضَةٌ مَلْدَين ، فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبوا شعيباً ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابةٌ بيضاءُ طيبةُ النسيم والهواء لايجدون فيها ألم العذاب ، فأخرجوا شعيباً ومن آمن معه من موضعهم وأزالوهم عن أماكنهم ، وتوهموا أن ذلك يُنجيهم مما نزل بهم ، فجعلها الله عليهم ناراً ، فأتت عليهم فرثت حـارثةُ بنتُ كلمن أباها فقالت ، وكانت بالحجاز :

كلمن هَدَّم رُكني
هُلْكُهُ وسْطَ المحلَّه
سيدُ القوم أتاه الحَتْـ
ـفُ ناراً تحت ظُلَّهْ
كُوِّنت ناراً ، واضحت
دارُ قومي مُضمحلَّة

وهؤلاء الملوك أخبارٌ عجيبةٌ من حروب وسِيَر ،

وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها ، وإبادتهم من كان فيها وعليها قبلَهم من الأمم ، قد أتينا على ذكرها فيما تقدم من كتبنا في هذا المعنى مما كتابُنا هذا منبّه عليها وباعثٌ على دَرْسِها .

ذكر ما ذهب إليه العرب في النفوس والهام والصَّفَرِ وغير ذلك من مذاهب الجاهلية في النفوس والمريء

الاختلاف في النفْس : كانت للعرب مذاهبُ في الجاهلية في النفوس ، وآراءُ يتنازعون في كيفياتها . فمنهم من زعم أن النفسَ هي الدمُ لاغيرَ، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سَمَّوا المرأةَ منه نُفَسَاء ، لما يخرج منها من الدَّم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاءُ الأمصار فيما له نَفْسٌ سائلةٌ إذا سقط في الماء : هل ينجسه أم لا ؟ وقال تأبط شَرّاً(١) لخاله

(١) تأبط شراً : ثابت بن جابر (ت نحو ٥٣٠ م) شاعر جاهلي من الصعاليك . كان كثير الغارات فاتكاً . نسجت حوله الأساطير . وصلنا من شعره مقاطع متفرقة في كتب الأدب .

الشنفرى الأكبر (١) وقد سألته عن قتيل قتله — كيف كانت قصته ؟ فقال : ألحمته عَضْباً ، فسالت نفسه سَكْباً(٢) وقالوا : إن الميت لاينبعث منه الدم ولايوجد فيه ، بدءاً في حال الحياة ، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ؛ لأن كلَّ حي فيه حرارةٌ ورطوبة ، فاذا مات بقي اليَبَسُ والبَرْد ، ونفيت الحرارة ؛ وقال ابن برّاق (٣) من كلمة :

وكم لاقيت ذا نَجْب شـديدٍ (٤)
تسيل به النفوس على الصـدور
إذا الحربُ العَوان بـه استهـامت
وحال ، فذاك يـوم قمطـرير (٥)

---

(١) ثابت بن أوس الأزدي من شعراء الجاهلية الصعاليك. من آثاره لامية العرب . أدرك أوائل القرن السادس الميلادي .

(٢) العضب : السيف . السكب : الصب . أراد بقوله : مات مضرجاً بدمه .

(٣) شاعر جاهلي من الصعاليك ، وأحد لصوص العرب المغيرين . كان صديقاً لتأبط شراً والشنفرى ، ويعد الثلاثة أعدى العدائين في العرب .

(٤) لعله أراد نصل السيف .

(٥) قمطرير : شديد .

وطائفةٌ منهم تَزعمُ أنَّ النفْسَ طائرٌ ينبسطُ في جسم الإنسان ، فإذا مات أو قُتِل لم يزل مُطيفاً به متصوّراً إليه في صورة طائر يصرُخُ على قبره مستوحشاً ، وفي ذلك يقول بعضُ الشعراء وذكر أصحابَ الفيل :

سَلَّطَ الطـــــيرَ والمنونَ عليهـــم
فلهم في صَـــدَى المقابر هَـــامُ

الهام : لأن هذا الطائرَ يسمُّونه الهامَ ، والواحدة هامةٌ ، وجاء الإسلام وَهُمْ على ذلك حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم « لاهَامَ ولا صَفَرَ » (١) .

ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يصير كَضرب من البوم ، وهي أبداً تتَوحَّش وتصدحُ ، وتُوجَد أبداً في الديار المعطَّلة والنواويس(٢) ، وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى .

ويزعمون أن الهامةَ لاتزال على ذلك عندَ وَلَدِ

---

(١) الصفر : بفتحتين فيما تزعم العرب : حية تعض الإنسان إذا جاع . واللذع الذي يجده عند الجوع من عضها .

(٢) النواويس : المقابر .

الميت في محلّته بفِنائهم لتعلمَ مايكون بعدَه فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامِي تخبّـــرني بمـــا تستشـــعروا
فتجنبوا الشَّـــنْعاء والمكروها (١)

وفي ذلك يقول في الإسلام توبة في ليلى الأخيلية (٢) :

ولـــو أن ليلى الأخيليةَ سلّمـــت
عليَّ ودوني جـــندلٌ وصفائـــحُ
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ ، أو زَقـــا
إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

وهذا من قولهم يدل على أن الصدى قد ينزل إلى

---

(١) الصلت بن أمية : لم أعثر على ترجمة له . ولعله جد الشاعر أمية بن أبي الصلت كما أشار الدكتور عبد الحفيظ السطلي في تحقيق ديوان أمية . ص / ٣٦ / .

(٢) توبة بن الحمير : (ت نحو ٨٥ هـ) شاعر أموي صاحب ليلى الأخيلية عرف بها وعد من عشاق العرب المشهورين . وليلى توفيت بعده وهي شاعرة عربية عقيلية . لها مراث كثيرة في توبة ولها شعر في الهجاء وقد هاجت النابغة الجعدي .

قبورهم ويَصعد. ومِن ذلك ماروي عن حاتم طيىء مما سنورد خبره في هذا الكتاب .

أتيتَ لصحبـك تبغـي القِـرى
لدى حُفَرٍ صـدحَتْ هامُها (١)

وسنذكر هذا الشعر في أخبار الحجاج بن يوسف مع ليلى الأخيلية من هذا الكتاب ، وقد قيل : إن هذه الأبيات لغير توبة في غير ليلى؛ وهذا كثير في أشعارهم ومنثور كلامهم وسجعهم وخطبهم ، وغير ذلك من محاوراتهم .

تنقل الأرواح : وللعرب وغيرهم من أهل الملل ممن سلف وخلف كلام كثير في تنقل الأرواح؛ وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وكتاب « الدعاوى » وبالله التوفيق .

---

(١) حاتم الطائي : (ت ٦٠٥ م) شاعر جاهلي اشتهر بشجاعته وجوده . وقد ضرب بكرمه المثل : « أجود من حاتم » . له ديوان .

ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول (١)
وما لحق بهذا الباب

رأيهم في الغول : للعرب في الغيـــلان وتغوّلها أخبار ظريفة .

العربُ يزعمُون أن الغول يتغوَّل لهم في الخلوات : ويظهر لخواصهم في أنواعٍ من الصور ، فيخاطبونها ، وربما ضيَّفوها (٢) ، وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم ؛ فمنها قول تأبط شراً :

وأدهـــم قـــد جُبتُ جلبـــابَه
كما اجتابت الكـــاعب الخيعـــلا (٣)
على إثر نـــارٍ ينَوُر بهـــا
فبتُّ لهـــا مدبِراً مقـــبلا

(١) التغول : التلون .
(٢) ضيفوها : بمعنى استضافوها .
(٣) الأدهم : الليل . وجاب : قطع . والخيعل : ثوب يخاط أحد شقيه ويترك الآخر ، تلبسه المرأة كالقميص . أو قميص بلا كمين .

فأصبحتُ والغول لي جارةٌ
فياجارتي أنتِ ما أهْوَلا

وطالبتها بُضْعَها فالتوت
بوجهٍ تَغَوَّل فاستغولا

فمن كانَ يسأل عن جارتي
فإنّ لها باللوى منزلا

ويزعمون أن رجليها رجلا عنز ، وكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون ويقولون :

يارجلَ عنزٍ انهقي نهيقا
لن نترك السَبْسَبَ والطريقا (١)

الغول تتلون وتضلل : وذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات ، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها ، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها ، وتتيههم(٢)

---

(١) السبسب : المفازة .

(٢) تتيههم : تجعلهم في متاهة .

وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه ، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد ، فإذا صيح بها على ما وصفنا شَرَدَت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال .

وقد ذكر جماعةٌ من الصحابة ذلك ، منهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ! أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام ، وأن الغول كانت تتغوَّل له ، وأنه ضربَها بسيفه ، وذلك قبل ظهور الإسلام ، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم .

رأي الفلاسفة : وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغولَ حيوانٌ شاذٌ من جِنْسِ الحيوان مُشَوَّهٌ لم تُحكِمْهُ الطبيعةُ ، وأنه لما خرج منفرداً في نفسه وهيئته تَوحَّشَ من مَسكنه ، فطلبَ القفارَ ، وهو يناسِبُ الإنسانَ والحيوانَ البهيميَّ في الشكل ، وقد ذهبت طائفةٌ من الهندِ إلى أنَّ ذلك إنما يَظهرُ من فِعْلِ ما كانَ غائباً من الكواكب عند طُلوعها ، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار ، وهي : الشِّعرىَ (١) العَبُور ، وأن ذلك

---

(١) الشعرى : الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر.

يحدث داء في الكلاب ، وسُهيل في الحَمَل(١) ، والذئب في الدب (٢) وحامل رأس الغول (٣) يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر في الصحارى ، وغيرها من العامر والخرائب ، فتسميه عوام الناس غولاً ، وهي ثمانية وأربعون كوكباً ، وقد ذكرها بطليموس وغيره ممن تقدم وتأخر ،وقد وَصف ذلك أبومعشر(٤) في كتابه المعروف بـ « المدخل الكبير إلى علم النجوم » وذكر كيفية صورة كل كوكب عند ظهوره في أنواع مختلفة .

وزعمت طائفة من الناس أن الغول اسم لكل شيء يعرض للسُّفّار ، ويتمثل في ضروب من الصور ، ذكراً كان أو أنثى ، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى . وقد قال أبوالمطراب عبيد بن أيوب العنبري (٥) :

---

(١) الحمل : أول البروج .
(٢) الذئب : نجم بين العوائذ والفرقدين .
(٣) حامل رأس الغول : نجم .
(٤) أبومعشر : جعفر بن محمد بن عمر البلخي (ت ٢٧٢ هـ) فلكي منجم ولد في بلخ وأقام في بغداد وتوفي بواسط .
(٥) أبو المطراب : شاعر من شعراء العصر الأموي . كان لصاً حاذقاً ، ضرب في مجاهل الأرض، وكان يزعم أنه يرافق الغول ويبايت الذئاب والأفاعي .

وحالفني الوحوشُ على الوفاء
وتحتَ عُهودِهِنَّ وَبَا البِعادِ

وغولا قفرةٍ ذكراً وأنثى
كأن عليهما قِطَعَ النِّجاد

وقال آخر وهو كعب بن زهير الصحابي (١) :

فما تدومُ على حال تكون بها
كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغولُ

وقد قدمنا ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا في هذا المعنى ، وأن كلَّ كوكبٍ من هذه يظهر في صورة مخالفة لما تقدَّمه من الصور يُحدث في هذا العالم نوعاً من الأفعال لم ينفرد بفعله غيرُه من الكواكب .

ذكر قول العرب في الهواتف والجان

قال المسعودي : فأما الهواتفُ فقد كانت كَثُرتْ في

---

(١) كعب بن زهير : (ت ٢٦ هـ) أبو المضرب . اشتهر في الجاهلية . هجا النبي (ص) فهدر دمه ، ثم استأمنه فأسلم . وهو صاحب اللامية المشهورة التي مطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » ديوانه مطبوع.

العرب ، واتصلت بديارهم ، وكان أكثرُها أيامَ مَولدِ النبي صلى الله عليه وسلم ،وفي أوليَّة مَبعثه ،ومن حُكْمِ الهواتف أن تَهتفَ بصوتٍ مسموعٍ وجسمٍ غير مرئي .

قولهم في الهواتف والجان : قال المسعودي : وقد تنازع الناس في الهواتف والجان : فذكر فريقٌ منهم أن ماتذكره العربُ وتنبيء به من ذلك إنما يعرض لها من قِبَلِ التوحُّد في القفار ، والتفرُّدِ في الأودية ، والسلوك في المهامهِ والمَرَوْرَاة(١) المُوحِشَة ؛ لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحَّد تفكر ، وإذا هو تفكر وجِلَ وجَبُنَ ، وإذا هو جَبُنَ داخلته الظُّنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية ، والسوداوية الفاسدة ، فصوَّرتْ له الأصواتَ ، وَمثَّلَتْ له الأشخاصَ ، وأوهمته المُحال ، بنحو مايعرِضُ لذوي الوسواس ، وقُطْبُ ذلك وأُسُّه سوء التفكير ، وخروجُه على غير نظامٍ قويٍّ ، أو طريقٍ مستقيم سليم ؛ لأن المتفرِّدَ في القفار والمتوحِّدَ في المَرَوْرَاة مستَشْعِرٌ للمخاوف ، مُتوهِّمٌ للمتالف ،

(١) المروراة : الأرض لا شيء بها ، وجمعها مروري ومروريات .

مُتوقِّعٌ للحُتُوف ؛ لقوّة الظنونِ الفاسدة على فكره ، وانغراسها في نفسه ، فيتوهَّمُ مايحكيه من هَتْف الهواتفِ به واعتراض الجان له .

وقد كانت العرب قبل ظهور الإسلام تقول : إن من الجن مَن هو على صورةِ نِصفِ الإنسان ، وأنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شِقّاً .

ذكر ماذهبت إليه العرب من القيافة ، والزجر ، والعيافة ؛ والسانح ، والبارح وغير ذلك

الخلاف في القيافة وجوازها : تنازَعَ الناسُ في العِيافة والقِيافة (١) وغيرها مما ذكر : فذهبت طائفةٌ إلى تحقيق القيافة والأخذ بها ؛ لأن الأشباهَ تنزع ، وغيرُ جائزٍ أن يكون الولَدُ غيرَ مُشبهٍ لأبيه ، أو أحَدٍ من أهله من جهة من الجهات ، ومنهم من ذهب إلى أنّ في الولد مواضعَ تلحقُها القيافةُ دون غيرها من الأعضاء

(١) العيافة : الزجر . وعفت الطير : زجرتها للاعتبار بمساقطها ، فتتسعد أو تتشاءم . والقيافة : تتبع الأثر ويقال للعارف بها : القائف .

مما لم يَتَحاتُّها الشَّبَهُ ، ولا تَتَوافقَ بينهما بحد مشترك ، وأبى آخرون ماوصفنا ؛ إذ كان الناس قد يتشابهون في حد الإنسانية وغير ذلك من الحدود ، ويفترقون في غيرها من الصور ، وليس وجود الأغاب من الأشباه مما يوجب إلحاقَ الشَّبْهِ بشِبْهِهِ ، دون أن يخالفَ من حيث أوجبت قضية العقل الاختلاف بالتباين .

اختصاص العرب بذلك : وهذه المعاني من خواص ماللعرب ، وما تَفَرَّدت به ، دونَ سائر الأمم في الأغلب منها ، وإن كانت الكَهَانَةُ قد وُجِدت في غيرهم ، فإن القيافةَ والزجْرَ والتفاؤلَ والتطيُّرَ ليس لغيرها في الأغلب من الأمور ؛ وليس هو موجوداً في سائرِ العرب ، وإنما هو للخاص منها الفَطِنِ والمتدرِّب الظَّنِينِ (١) ، وإن وُجِدَ ذلك في بعض الأمم ؛ كوجود ذلك في الإفرنجة ، وما جانسها ممن هنالك من الأمم ؛ فيمكن أن يكون ذلك موروثاً عن العربِ ، ومأخوذاً منها في سالف الدهر ؛ لأن العرب قد تنقلت في البلاد ، وتغيرت لغاتها ، فنُسِبَ

---

(١) لعله أراد العلم بالشيء وإعمال الظن والتخمين فيه .

ذلك إلى الجنس الذي قطنت بينهم العربَ ، ويمكن أن تكون الإفرنجة ، ومن وُجِدَ فيها ذلك من الأمم ، أخذوه بعد ظهور الإسلام عمَّن جاورهم من أمم العرب ، ممن سكن بلادَ الأندلس من الأرض الكبيرة ، وإن كان ذلك قبل ظهور الإسلام فهو ماذكرنا آنفاً ، ويمكن أن يكون الله عزوجل خص بذلك أمماً غير العرب ، كما خصَّ العربَ به ؛ إذ كان ذلك داخلاً في الإمكان ، خارجاً من باب الممتَنِعِ والواجب ، فيكون الزَّجْرُ والفأْلُ شاملاً لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم ، كوجود النقط للبربر (١) ، والنظر في الكتف ، وغير ذلك مما خصَّ به كلَّ جنس من الناس .

منشأ القِيافة : وقد ذهبت طائفةٌ ممن سلف ، من أهل البحث والتنقيرِ إلى أن القيافة اسمٌ مشتق من القَفو ، وهو معنى استدلالي(٢) فالقائف يقارب بين الهيئات ، فيحكمُ للأقرب صورةً ؛ لأن تشبيه النسل أقرب من

---

(١) النقط : لم أجد له تفسيراً . ولعله ضرب من التكهن .

(٢) أسقطنا فقرة يشوبها الاضطراب والقلق . لا ختلاف النساخ في نقلها وضبطها .

تشبيه النوع . وكذلك تشبيه الشخص إلى النوع أقرب منه إلى الجنس ؛ لأن النوع والشخص ضمهما حدان مشتركان ، وإنما ضم الجنس واحد فهو أصل القيافة عند هذه الطائفة ، وهو ضرب من ضروب البحث ، وإلحاق النظير في الأغاب بنظيره ، من حيث تساويهما من حيث ذكرنا في قضية العقل ، وهو القياس بعينه ، وليس هذا الاستدلال من كلام أحد من فقهاء القائسين ولاغيرهم من المسلمين ، وإنما هذا الكلام انتزعناه من كلام طائفة من الفلاسفة المتقدمين ؛ فيجب أن يكون نظر القائف على قول هذه الطائفة إلى القَدَم ؛ لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة ، والولد لوخالف صورة أبيه في كنه أفعاله ، وباينه في سائر شكاله في الأغاب يوافقه في القَدَم ؛ لأن النسل لابد له من تخصيص قوته بشيء يميزه من غيره ويُبينه من سواه ، ولذلك وجدوا الطولَ في أزد شَنُوءة ، ولذلك صار الجفاءُ والغلظُ في الروم ، وأصحاب الأجبال ، والأكثر من أهل الشام وأوباش مصر ، واللؤمَ في الخزَر وأهل حرّان من بلاد ديار بكر ، والشح بفارس ، واللؤمُ على الطعام بأصفهان ، وصار تفرطُحُ الرجاين وفَطَسُ الأنوف في السودان ، والطربُ في الزّنج خاصة .

وهذا الذي وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة ، وخواص تأثير الأشخاص العلوية ، والأجسام السماوية ، وقد تقصينا هذا الشأن على كماله في كتابنا في الأسرار الطبيعية وخواص تأثير الأشخاص العلوية والغرائب الفلسفية في كتابنا في الرؤوس السبعية في أنواع السياسات المدنية وملكها الطبيعية،وفي كتاب الاسترجاع في الكلام على من زعم أن العالم متغير جوهره إلى الظلمة ، وأن النور فيه غريب مختار ، وأن ستة أنفس كانوا نوراً بلا أجساد : شيث بن آدم ، وزرادشت ، والمسيح ، ويونس ، واثنان لايمكن ذكرهما ، وأن النور والظلمة قديمان ، وأنهما لايُرَيَان إلا غير ممتزجين،وأن الأشياء لاتعمل إلا في جوهرهما،ثم امتزجا من تلقاء أنفسهما ، من غير داخل عليهما ولا مكره أكرههما ، وهذا الخلف من الكلام والفاسد من المقال . وأعجبُ من هذا القول قول زرادشت نبي المجوس : إن القديم تعالى ذكره طالت وَحْدَته فطالت فكرته ، فلما أن طالت فكرته ، واشتدت وَحْشَته ، تولد الهَمّ منه ، وهو الشيطان ، من تلك الوحشة التي ولدتها تلك الفكرة ونتيجتها الوحدة ، وأن الله عز وجل

لو كان قادراً على إفناء الهَمّ منه لما ضرب له أجلاً ، ولا أجّلَ له أمراً يغوي عباده ، ويفسد بلاده . وهذا هو المُحَال بعينه ، والتناقض بنفسه ، وعجب آخر من الآراء من قول بولص(١) : إن المسيح عليه السلام هو الذي أرسله ، وإن المسيح إنسان وإله ؛ لأنه إله صار إنساناً ، وإنسان صار إلهاً ، وقد أتينا على جمل من متناقضات أهل الآراء ، في أثناء ماتقدم من كتبنا .

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه من هذا الكتاب :

الزجر : وحدث المنقري عن العتبي (٢) ، قال :

---

(١) بولص : اسمه الأول شاول . اضطهد المسيحيين بعنف ، ثم اهتدى على طريق دمشق نحو ٣٣ م فأصبح مبشراً ورسولا في آسية الصغرى . حبس في القدس ، ثم سيق إلى رومة وأعدم عام ٦٧ م له أربع عشرة رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة . لقب بـ « رسول الأمم » .

(٢) المنقري : لعله موسى بن اسماعيل المنقري بالولاء (ت ٢٢٣ هـ) أبوسلمة ، حافظ للحديث ، ثقة من أهل البصرة . أما العتبي ، فهو محمد ابن عبد الله من ولد عتبة بن أبي سفيان ، والأغلب عليه الأخبار ، وأكثر أخباره عن بني أمية وأيامهم ، وكان شاعراً مستهتراً بالشراب مات سنة ٢٢٨ هـ .

وقف عُبَيْد الراعي ذات يوم مع ركب بفَيْفَاء قَفْر ، وكانوا يريدون استقصاد رجل من تميم ؛ إذ سنحت ظباء سودٌ منكرة، ثم اعترضت الركب مُقصِرةً في حُضْرِها(١)، واقفةً على شأنها ، فأنكر ذلك عُبَيْد الراعي (٢) ، ولم ينتبه له أصحابه ، فقال عبيد :

ألم تدرِ ماقال الظباء السوانح ؟
أطفنَ أمامَ الركب والركبُ رائحُ ؟
فكرَّ الذي لم يعرف الزَّجْرَ منهم
وأيقن قلبي أنهن نوائح

ثم شارفوا مقصدهم ، فألفَوْا الرئيس قد نهشته أفعى ، فأتت عليه .

قال أبوعبيدة مَعْمَرُ بن المثنَى : وهذا من غريبِ الزّجْر ، وذلك أن السانح مَرْجُوٌّ عند العرب ، والبارح :

---

(١) الحضر : ضرب من العدو يرتفع فيه الظبي أو الفرس في عدوه .
(٢) عبيد الراعي النميري (ت سنة ٩٠ هـ) أبوجندل من فحول المحدثين كان من جلة قومه ، لقب بالراعي لجودة وصفه الإبل .

هو المخوفُ ، وأظن عُبَيْداً إنما زجر الظباء في حالة رجوعها ، ووصف الحال الأول في شعره ، كما أن من شرط الواصف أن يبدأ بهوادي الأسباب (١) فيوضح عنها ، فهذا وجه زجر عبيد الراعي في شعره .

اختصاص بعض العرب ببعض هذه الأمور :

ويقال: إن الكهانةَ لليمن، والزجرَ لبني أسد، والقِيافةَ لبني مُدْلج وأحياء مضر بن نزار بن معد ، لما كان من فعل بني نزار الأربعة في مسيرهم نحو الأفعى الجرهمي(٢) ، ووصفهم الجملَ الشارد ، على ماذكرنا ، وذلك منهم قيافة ؛ فمن هنالك تفرقت القيافة من أحياء مضر على حسب ماتغلغلَ في العروق ونَزَع ، وأهلُ المياه أكْهَنُ ، وأهلُ البرِّ الفائحِ أقْوَفُ (٣) ، وبأرض الجفار — وهي بلاد الرمل بين بلاد مصر وأرض الشام — أناسٌ من العرب في تلك الجفار يتناول الإنسان من تمر نخلهم فيغيب عنهم

---

(١) هوادي الأسباب : متقدماتها ، وأوائلها .

(٢) الأفعى الجرهمي : ملك نجران باليمن. وهو الذي حكم بين أبناء نزار الأربعة في ميراث أبيهم .

(٣) البر الفائح : البر الواسع .

السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فإن رأوه بعد مدة علموا أنه الآخذ لتمرهم ، ولايكادون يخطئون ، وهذا من فعلهم مشهور ، ولايكاد تخفى عليهم أقدامُ أي الناس هم .

ورأيت بهذه الأرض أناساً قد رتَّبهم وُلاة المنازلِ يطوفون في هذا الرمل ، يُعرفون بالقُصَّاص ، يَقصُّون آثار الناس وغيرهم ، فيخبرون ولاة المنازل أَي الناس هم ممن طرق تلك البلاد ، وهم لم يرَوهم ، بل رأَوا آثارَ أقدامهم ، وهذا معنى لطيف وحسٌّ دقيق .

القيافة : وقد قَفَت القَافَةُ بقريش حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأبوبكر إلى الغار ، حتى أتت بابَ الغار على حجر صَلْد وصخر صم(١) وجبال لا رمل عليها ولاطين ولاتراب تتبين عليه الأقدام ، فحجبهم الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من نسْج العنكبوت، وماسَفَتْ عليه الرياح ، وما لحق القائف من الحَيرة ، وقوله : إلى هنا انتهت الأقدام ، ومعه الجماعة من قريش، لايرون على الصَّلد مايُرى، ولا على الصَّفْوَان

---

(١) الصواب أن يقال : صخر أصم .

مايُشاهَدُ ، وأبصارهم سليمةٌ ، والآفات عنها مرتفعة ، والموانع زائلة ، ولولا أن هنالك لطيفة لايتساوى الناس في علمها ، ولايتفقون بالأبصار إحصاء إدراكها ، لمَا استأثر بذلك طائفةٌ دون أخرى ،وأهلُ الجبال والقفار والدَّهَاس(١) أزْجَرُ وَأعرف .

القيافة عند أهل الشرع : وقد ذهب قوم من أهل الشريعة،من فقهاء الأمصار وغيرهم ممن سلف،إلى الحكم بالقيافة ؛ استدلالاً على شرف القيافة ، وعظم خطرها ، وكبر محلها ، وتحقيق فضلها ؛ لتعجب النبي صلى الله عليه وسلم منها ، وتصديقه محرزاً المدْلجي(٢) .

وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ، ممن سلف وخلف ، الحُكْمَ بالقيافة ، والدليلُ على فسادِ الحكم بها إلحاق النبي صلى الله عليه وسلم الوَلَدَ بأبيه حين شاك فيه

(١) الدهاس : رمل لا تغيب فيه القوائم .

(٢) محرز المدلجي : لم أعثر على ترجمة له . وقد أورد صاحب الأعلام في ترجمة مدلج على لسان الجوهري مايفيد أن القافة من بني مدلج ابن مرة ومنهم مجزز بن الأعور الذي سر النبي (ص) بقيافته . وهو المرجح لا محرز .

لعدم التشابه ، فقال : يارسول الله ، إن امرأتي وضعت غلاماً وإنه لأسود ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مُقرّباً إلى فهمه، وقَصْداً منه لفسادِ علته التي قصدها وشكّ من أجلها في وَلده: « فهل لك من إبل » ؟ قال : نعم ، قال : « فما ألوانها » ؟ قال : حُمْر ، قال : « فهل فيها من أوْرَقَ »(١) : قال : نعم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فمن أين ذلك ؟ لعل عرقاً نَزَع » وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة شريك بن سَحْماء : « إن جاءت به على النعت المكروه ، فهو للذي رميت به » فلما جاءت به على النعت المكروه وَجَدَ التشابه بينه وبين من رميت به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لولا حكم الله لكان لي ولك شأن » فألحق الولد مع عدم الشبه هنالك ، ولم يلحق بالشبه ههنا ، ولم يجعله حكماً ، وقضى بوجود الفراش وثبوت النص على فساد الحكم بالتشابه .

وهذا باب قَصَدنْا فيه هذا الكلام ، وإنما ذكرنا هذا الفصل لنذكرَ الحُكْمَ بضده من القيافة ، وهذا

---

(١) الأورق : الرمادي .

باب يطول فيه الخطبُ ، ويكثُرُ في معانيه الشرح ؛ لغموضه ولُطْفه، وقد ذكرنا وجهَ الكلام في ذلك، وماذهبت إليه كلٌّ فرقة من الناس ممن سلف وخلف في كتابنا المترجم بـ « كتاب الرؤوس السبعة في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره » وهو كتاب مشهور مستوعب .

ذكر الكهَانة ، وما قيل في ذلك

وما اتصل بهذا الباب مما يراه الناس ، وحدّ النفس الناطقة

أصل ادعاء علم الغيب : تنازع الناس في الكهَانة ؛ فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن ، وكانوا يدّعون العلومَ من الغيُوب ، فادعى صنفٌ منهم أن نفوسَهم قد صَفَتْ فهي مطاعة على أسرار الطبيعة، وعلى ماتُريد أن يكونَ منها ؛ لأن صورَ الأشياء عندهم في النفس الكلية ، وصنفٌ منهم ادّعى أن الأرواحَ المنفردة — وهي الجن — تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحَهم كانت قد صَفَتْ ، حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة .

وذهب قومٌ من النصارى أن السيد المسيح إنما كان

يعلم الغائبات من الأمور ، ويُخبِرُ عن الأشياء قبل كونها ؛ لأنه كانت فيه نفسٌ عالمةٌ بالغيب ، ولو كانت تلك النفس في غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلمُ بالغيب ، ولا أمةٌ خلَت إلا وقد كان فيها كَهَانةٌ ، ولم يكنِ الأوائلُ من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات ، وشُهِرَ فيهم أن فيثاغورس (١) كان يعلم علوماً من الغيب،وضروباً من الوحي؛لصفاء نفسه وتجردها من أدران هذا العالم ، والصابئة تذهب إلى أن أوريايس الأول وأوريايس الثاني — وهما : هُرْمُس ، وأغاثيمون (٢) — كانوا يعلمون الغيبَ (٣) ؛ ولذلك كانوا أنبياء عند الصابئة ، ومنعوا أن تكونَ الجنُّ أخبرت مَنْ ذكرنا بشيء من ضروب

---

(١) فيثاغورس : (القرن السادس ق . م) فيلسوف ورياضي يوناني تفرغ لدرس الحكمة، وقال بتناسخ الأرواح .

(٢) هرمس: «من الأنبياء الكبار ويقال: هو إدريس النبي عليه السلام وهو الذي وضع أسامي البروج ورتبها في بيوتها » الملل والنحل للشهرستاني / ٢ / ٤٥ .

أما أغاثيمون : فقد ورد في الملل والنحل : « عاذيمون » وهو شيث عليه السلام ونقلت الفلاسفة عن عاذيمون أنه قال : المبادىء الأول خمسة : الباري تعالى ، والعقل والنفس والمكان والخلاء وبعدها وجود المركبات .

(٣) الصواب : كانا يعلمان الغيب .

الغيب ، لكن صفت نفوسهم حتى اطلعوا على مااستتر عن غيرهم من جنسهم .

وطائفة ذهبت إلى أن التكهُّنَ سببٌ نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع ، وقوة النفس ، ولطافة الحس .

الكهانةُ في العرب : والكهانة أصلها نفسيّ ، لأنها لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة ، وهي تكون في العرب على الأكثر ،وفي غيرهم على وَجه النُدرة ، لأنه شيءٌ يتولَّد على صفاء المزاج الطبيعي ، وَقوة مادة نور النفس ، وإذا أنت اعتبرت أوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوَحْدةِ وإدمان التفرُّد وشدَّةِ الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم ، وذلك أن النفس إذا هي تفردت فكَّرت ، وإذا هي فكرت تعدَّت ، وإذا تعدت هَطَلَ عليها سُحُب العالم النفسي ، فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالنور الثاقب ، ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الأشياء على ماهي به وعليه؛وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها .

وكان كبراءُ اليونانيين ينعتون هذه الطائفة بالروحانية، ويقولون : إن النفس إذا هي زادت وكانت أكبرَ جزءٍ في الإنسان تَهدَّت (١) إلى استخراج البدائع والأخبار المستترات ، واستدلوا على ذلك أن الإنسان إذا قَوِيَ فكرُه وزادت موادُّ نفسه وخاطره فكَّرَ في الطارىء قبل وروده فعلم صورتَه فيكون وروده إلى حالٍ على ماتصوره ، وهكذا النفس أيضاً إذا تهذبت كانت الرؤيا في النوم صادقة،وفي الزمان موجودة .

ذكر جمل من أخبار الكهان ، وسيل العَرِمِ وتفرق الأزد في البلدان

قال المسعودي : قد ذكرنا جُمَلاً من الكهانة والقيافة والزّجْر والبارح والسانح (٢) فلنذكر الآن لمعاً من أخبار الكهان ، وتفرق ولد سبأ في البلدان .

السد وبانيه ومكانه : ولم يزل وَلَدُ قحطان في

---

(١) تهدت : اهتدت .

(٢) السانح : المبارك . والبارح : المشؤوم .

أطيبِ عيش إلى أن هلك سبأ ، وكان القوم بعد مضي سبأ تداولتهم الأعصار قرناً بعد قرن ، إلى أن أرسل الله عليهم سيلَ العرم؛ وذلك أن الرياسة انتهت فيهم إلى عمرو ابن عمرو مزيقياء ، وهو عمرو بن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن ابن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ؛ وذلك ببلاد مازن من أرض اليمن ، وهي بلاد سبأ التي ذكر الله في القرآن ، أنه أرسل على أهلها سيلَ العرِم ، وهو السّد ، وكان فرسخاً في فرسخ ، بناه لقمان الأكبر العادي — وهو لقمان بن عاد بن عاد — وقد ذكرنا خبره وخبر غيره ممن كان عُمِّرَ منهم عُمرَ النسور ، وهذا السد هو الذي كان يردُّ عنهم السيل فيما سلف من الدهر إذا حان أن يغشى أموالهم ، فمزقهم اللهُ كلَّ ممزّق ، وباعد بين أسفارهم ، والناس في قصة هُلْكهم يختلفون ، وفي سياقة أخبارهم يتباينون .

وصف بلاد سبأ : وذكر أصحابُ التاريخ القديم أن أرضَ سبأ كانت من أخصبِ أرضِ اليمن ، وأثراها ، وأغدقها ، وأكثرها جناناً وغيطاناً ، وأفسحِها مُروجاً ،

مع بنيانٍ حَسَنٍ وشجرٍ مصفوف ، ومساكبَ للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة ، وكانت مسيرةَ أكثر من شهر للراكب المجدّ على هذه الحالة ، وفي العرض مثل ذلك ، وأن الراكبَ والمارَّ كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لاتواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلُها في أطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ حال ، وأرغدِ قرى ، وفي نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم في الأرض مثلاً ، وكانوا على طريقة حَسَنةٍ من اتباع شريف الأخلاق ، وطلاب الإفضال على القاصد والسفْر بحسب الإمكان ، وما توجبه القدرة من الحال ، فمكثوا على ماشاء الله من الأعصار ، لايعاندهم ملكٌ إلا قصَموه ، ولايوافيهم جبّار في جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، وأذعَنَ لطاعتهم العباد ، فصاروا تاجَ الارض . وكانت المياه التي هي أكثر مايرد إلى أرض سبأ تظهر من مخراقٍ من الحجر الصَّلْد والحديد من ذلك السد والجبال ، طولُ

المخراق فيما وصفنا فرسخ ، وكان وراءَ السد والجبال أنهارٌ عظام ، وكان في هذا المخراق الآخذ من تلك الأنهار ثلاثون نَقْباً مستديرة في استدارة الذراع طولاً وعرضاً مدورة على أحسن هندسة وأكمل تقدير ، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب في مجاريها حتى تأتي الجنان فتَرويها سقياً ، وتعمُ شرْبَ القوم ، وقد كانت أرضُ سبأ قبلَ ماوصفنا من العمارة والخِصْبِ يركبها السيل من تلك المياه ، وكان ملك القوم في ذلك الزمان يقرّب الحكماء ، ويدنيهم ، ويؤثرهم ، ويحسن إليهم ، فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء إلى رأيهم ، والأخذ من محض عقولهم ، فشاورهم في دفع ذلك السيل وحصره ، وذلك أنه كان ينحدر من أعالي الجبل هابطاً على رأسه حتى يُهلِكَ الزرعَ ويسوقَ مِنْ حماته البناء ، فأجمع القوم رأيهم على عملِ مصارفَ له إلى براري تقذف به إلى البحر ، وأخبروا الملك أن الماء إذا حفرت المصارف الهابطة طلبها ، وانحدر فيها ، ولم يتراكم حتى يعاو الجبال ؛ لأن في طباع الماء طلاب الخفض ، فحفر الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع إلى تلك الجهة واتخذوا

السد في الموضع الذي كان فيه بدء جريان الماء من الجبل إلى الجبل ، وجعلوا فيه المخراق على ماوصفنا آنفاً ، ثم اجتذبوا من تلك المياه نهراً مرسلاً ومقداراً معلوماً ينتهي في جريانه إلى المخراق ، ثم ينبعث منه إلى تلك الأنقاب ، وهي الثلاثون مخراقاً الصغار التي قدمنا ذكرها ، وكانت البلاد عامرة على ماوصفنا آنفاً .

مبدأ التهدم : ثم إن تلك الأمـــم بادت ومرت عليها السنون ، وضربها الدهر بضرباته وطَحَنها بكَلكَلِه ، وعمل الماء في أصول ذلك المخراق ، وأضعفه مر السنين عليه وتدافع الماء حوله ، وقد قيل في المثل : إذا أثر تواتر الماء على الحجر الصلد فما ظنك بسيل يتدافع على حديد وحجر مصنوع ؟

فلما سكنت أبناء قحطان ماوصفنا من هذه الديار ، وتغلبت على من كان فيها من القُطّان لم تعلم الآفةَ من انحطام السد والمخراق وضعفه ، فغلب الماء عند تناهي السد والبنيان ، في الضعف عنه ، على السد والمخراق والبنيان ، فقذف به في جريه ورمى به في تياره؛وذلك إبان زيادة الماء ، واستولى الماء على تلك الديار والجنان

والعمائر والبنيان ، حتى انقرض سكان تلك الأرض ، وزالوا عن تلك المواطن .

فهذه جملة من أخبار سيل العرم وبلاد سبأ .

ذكر سني العرب وشهورها
وتسمية أيامها ولياليها

أسماء الشهور : شهور الأهلة : أولها المحرّم ، وأيامها ثلاثمئة وأربعة وخمسون يوماً تنقص عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم ، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة ، فتنسلخ تلك السنة العربية ولايكون فيها نيروز ، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله: «(إنما النَّسِيءُ زيادةٌ في الكُفْرِ)» ورسمت العرب الشهور فبدأت بالمحرم لأنه أول السنة ، وإنما سمته المحرم لتحريمها الحرب والغارات فيه ، وصَفَر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية ، وكانوا

يمتارون منها ، ومن تخلف عنها هلك جوعاً ، وقال نابغة ذبيان (١) :

إني نهيتُ بني ذُبيان عن أُفُقٍ
وعن تَرَفُّهِهم في كُلِّ أَصفار

وقيل : إنما سُمِّي الصَّفَرَ لأن المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم إلى الحرب ، وهو مأخوذ من قولهم : صَفِرَتِ الدار منهم : إذا خلت ، وربيع ، وربيع ؛ لارتباع الناس والدواب فيهما ، فإن قيل : قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت ، قيل : قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ، وجمادى وجمادى ؛ لجمود الماء فيهما في الزمان الذي سميت به هذه الشهور ؛ لأنهم لم يعلموا أن الحرّ والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك ،

(١) النابغة الذبياني : من فحول شعراء الجاهلية.وهو ذو عقل راجح وشاعرية رقيقة . أقام في بلاط المناذرة بالحيرة،ثم قصد الغساسنة بالشام ونال عندهم حظوة كبيرة توفي نحو سنة ٦٠٤ م .

ورجب ؛ لخوفهم إياه ، يقال : رَجبْتَ الشيء ، إذا خفته ، وأنشد :

فلا تَهَيَّبها ولا تَرْجَبها

وشعبان ؛ لتشعبهم إلى مياههم وطلب الغـــارات ، ورَمَضان ؛ لشدة حر الرَّمضاء فيه ذلك الوقت ، والوجه الآخر أنه اسم من أسماء الله تعالى ذكره ، ولايجوز أن يقال رمضان ، وإنما يقال : شهر رمضان ، وشوال ؛ لأن الإبل كانت تَشول(١) في ذلك الوقت بأذنابها من شَهْوة الضِّراب ، تشاءمت به العرب ، ولذلك كَرِهت التزويجَ فيه ، وذو القَعْدة ؛ لقُعودهم فيه عن الحرب والغارات ، وذو الحِجَة ؛ لأن الحجَّ فيه .

الأشهر الحرم : والأشهر الحرم هي : المحرَّمُ ، وَرَجَبُ ، وذو القَعْدة وذو الحِجَّة .

أسماء الأيام عند العرب قديماً : وأما أسماء الأيام فأولها الأحد ، وإنما سمي بذلك لأنه أول يوم خَلَقَهُ اللهُ من الزمان ، وبذلك نطَقت التوراة ، وقد قدَّمنا

---

(١) تشول بأذنابها : ترفعها .

في صدر هذا الكتاب مافي الأيام من بَدْء الخلق ، والاثنين ، وسمي لأنه ثان ، والثلاثاء ، وسمي لأنه ثالث ، والأربعاء لأنه رابع ، والخميس لأنه خامس ، والجمعة لأن الخلق اجتمعوا فيه ، والسبت لأن الخَلْقَ انقطع فيه وخُلِقَ في آخره آدمُ ، وهو مأخوذ من قولهم : نعل سِبْتِيَّة ، إذا كانت مقطوعة الشعْر ، ويقال : سَبَتَ شعره : إذا قطعه ، وكانت العرب تسميها في الجاهلية : الأحد أول ، والاثنين أَهْوَن ، والثلاثاء جُبَار ، والأربعاء دُبار ، والخميس مُؤْنس ، والجمعة عَرُوْبَة ، والسبت شِيار . قال شاعرهم :

أؤمــلُ أَنْ أعيشَ وأنَّ يـــــومي
بأوَّل أو بأَهْـــونَ أو جُبــارِ
أو المُردِي دُبــــارُ فإن أفته
فمؤنسُ او عَـــروُبة او شِـــيارُ

أسماء الشهور عند العرب قديماً : وكانوا يسمون الشهور : المحرم ناتق ، وصفر ثقيل ، ثم طليق ، ناجر ، أسلخ أميح ، أَحْلَك ، كسَع ، زاهر ، برك ، حرف ، نعس ، وهو ذو الحجة .

كروية السماء والأرض : وأما الدلائلُ على أنّ السماءَ على مثال الكرة وتدويرها بجميع مافيها من الكواكب كتَدْوِرة الكرة ، وأن الارضَ بجميع أجزائها من البرّ والبحر على مثال الكرة ، وأنّ كرةَ الأرضِ مثبتَةٌ في وسَطِ السماء كالمركز ، وقَدْرُها عند قدْر السماء قَدْرُ النقطة في الدائرة صِغَراً ، ووصف الربع المسكون من الأرض ، ومايعرض فيه من دور الفلك واختلاف الليل والنهار ،ووصف خواصّ هذا الرُّبع المسكون من الأرض،ووصف المواضع التي تطلع الشمس فيها شهوراً لاتَغْربُ، وتَغْرُبُ شهوراً لاتطلعُ، فقد أتينا على وصف جميع ذلك وما اتضح عليه وانتصب من البراهين،وما قاله الناس في ذلك في كتابنا المترجم بكتاب « أخبار الزمان » وما أوضحنا فيه من هيئة الأفلاك والكواكب ، وأن الأرض مع ماوصفنا تدويرها موضوعة في جوف الفلك كالمُحَّة في البيضة ، والنسيم جاذب أيضاً لما في أبدان الخلق من الخفة ، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثّقل ؛ إذ كانت الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب بطبعه الحديدَ ، وأن الأرضَ مقسومةٌ نصفين ، وبينهما

خط الاستواء ، وهو بين المشرق إلى المغرب ؛ وهذا عندهم هو طولُ الارض ؛ لأنه أكبرُ خط في كرة الارض كما أن مِنْطَقةَ البروج أكبرُ خط في الفلك ، وعرض الأرض من القطب الجنوبي إلى القطب الشمالي الذي تدور حوله بنات نعْشٍ ، وأن استدارةَ الأرض في خط الإستواء ست وثلاثون درجة (١) ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع اثنان وأربعون أصبعاً ، والأصبع ست حبات وتُسعان مصفوفة بعضها إلى بعض ، يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الأرض والبحار ومبادىء الأنهار مقدار الميل والذراع الأسود(٢) ، وإنما نذكر في كل موضع من هذا الكتاب مايسنح لنا ونجاده في كتب الناس ، فننقل ذلك عنهم على ماوجدناه في كتبهم ، لاأنّا نقطعُ على صحته ، إذ كان

---

(١) ينبغي أن تكون استدارة الأرض ستين درجة وثلاث مئة درجة لتكمل تسعة آلاف فرسخ ! !

(٢) الذراع الأسود : هو الذراع الذي وضعه المأمون لذرع الثياب والبناء وقسمة المنازل .

مايذهب إليه في مقدار الميل من الأذرع ، والذراع من الأصابع ، هو مابيناه آنفاً في باب ذكر الأرض والبحار .

وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضاً مثل ذلك ، وزعم هؤلاء أن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة ، وأن الباقي قد عمه البحر الكبير ، وأن الخلق على الربع الشمالي من الأرض ، والرُبع الجنوبي خرب لشدة الحر فيه ، والنصف الباقي من الأرض لاساكنَ فيه ، وكلُ ربع من الشّمال والجنوب سبعةُ أقاليم ، وقد ذكرناها فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الأرض والأقاليم السبعة ، وأن عدد المدن عند صاحب كتاب الجغرافيا (١) أربعة آلاف مدينة ومائتا مدينة ، فأما قِبلة أهل المشرق والمغرب والتيمن والجنوبي ، فقد ذكرنا جملاً في كتابنا « أخبار الزمان » .

وقد حرر ذلك في كتابه أبوحنيفة الدِّينَوَرِيّ (٢) ،

---

(١) صاحب كتاب الجغرافيا : هو بطليموس وقد سبقت ترجمته .

(٢) أبوحنيفة الدينوري : أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) ألف كتاب « القبلة » و « الأنواء » .

وقد سلب ذلك ابنُ قتيبة (١) ونقله إلى كتبه نقلاً ، وجعله عن نفسه ، وقد فعل ذلك في كثير من كتب أبي حنيفة الدينوري ، هذا ، وكان أبوحنيفة هذا ذا محل من العلم كبير ، ولبطليموس في كتاب المجسطي ، وغيره ممن تقدم، ثم لمن طرأ بعد ظهور الإسلام — مثل الكندي(٢) ، وابن المنجم (٣) ، وأحمد بن الطيب (٤)، وماشاء الله، (٥)

---

(١) ابن قتيبة : (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) عبد الله بن مسلم . مصنف شهير ألف العديد من الكتب في الأدب والتاريخ والجغرافية .

(٢) الكندي : يعقوب بن إسحق . فيلسوف وعالم شهير (ت ٢٦٠ هـ) من تصانيفه : « رسم المعمور » و « المد والجزر » وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية .

(٣) ابن المنجم : لعله إبراهيم بن محمد بن أبي عون بن أحمد المنجم (ت ٣٢٢ هـ) قتله الراضي صلباً . من تصانيفه : « النواحي والآفاق » .

(٤) أحمد بن الطيب السرخسي (ت ٢٨٦ هـ) تلميذ الكندي . صنف كتباً في المسالك والممالك وأخرى في الفلسفة وعلم النجوم . معلم المعتضد ونديمه وقتيله .

(٥) ماشاء الله : (ت ٢٠٥ هـ) عالم يهودي ومنجم شهير . ألف كتاباً في الأنواء ومصنفاً في الأسعار .

وأبي معشر ، والخوارزمي(١) ، ومحمد بن كثير الفرغاني(٢) ، فيما ذكره في كتابه الفصول الثلاثين ، وثابت بن قُرَّة (٣) ، والتبريزي (٤) ، ومحمد بن جابر البتّاني (٥) ، وغير هؤلاء ممن قد عني بعلوم الهيئة – علوم كثيرة في هذا المعنى ، وإنما ننقل من ذلك إلى هذا الكتاب لمعاً ، طلباً للاختصار والإيجاز ، وبالله التوفيق .

---

(١) الخوارزمي : أبوعبد الله محمد بن موسى : كان أعلم فلكي جغرافي في عصره وله كتاب صورة الأرض (ت نحو ٢٣٢ هـ) .

(٢) محمد بن كثير الفرغاني : لعله أحمد بن محمد بن كثير : منجم عربي ظهر في القرن الثالث الهجري له كتاب : « علل الأفلاك » .

(٣) ثابت بن قرة : من أبرز علماء عصره . اتصل بالمعتضد. أصلح ترجمة المجسطي لإسحق بن حنين (ت ٢٨٨ هـ) .

(٤) لعله النيريزي : الفضل بن حاتم: مهندس فلكي اتصل بالمعتضد. له كتاب : « أحداث الجو » (ت نحو ٣١٠ هـ) .

(٥) البتاني : أبوعبدالله محمد بن جابر الحراني الصابيء من كبار علماء الفلك (٢٤٤ – ٣١٧ هـ) .

ذكر أرباع العالم ، والطبائع
وما خص به كل جزء منه من الشرق والغرب والتيمن والجنوبي(١) والأهوية، وغير ذلك من سلطان الكواكب
وما لحق بهذا الباب واتصل بهذا المعنى

قال المسعودي :

الطبائع الأربع : فأما الطبائع الأربعة : فالنار حارة يابسة وهي الطبيعة الأولى؛ والطبيعة الثانية : باردة رطبة ، وهي الماء ، والطبيعة الثالثة : الهواء ، وهو حار رطب ، والطبيعة الرابعة : الأرض ، وهي باردة يابسة ، فاثنتان منها تذهبان الصُّعَداء ، وهما النار ، والهواء ، واثنتان ترسخان سُفْلاً ، وهما الأرض ، والماء ، والعالم أربعة أجزاء : فالمشرق الربع الأول ، وجميع

---

(١) وردت في إحدى النسخ المخطوطة : الجدي وهو الأرجح . لأن الجدي تعني الشمال .

مافيه حار رطب مثل الهواء والدم ، وهذا الربع ريحه الجنوب ، وله من الساعات الأولى والثانية والثالثة ، وله من قوى البدن قوة الطبيعة الهاضمة ، ومن المذاقات حظه الحلاوة ، وله من الكواكب : القمر ، والزُهرة ، وله من البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء . وللحكماء في هذا خطب طويل في وصف هذه الأرباع منها جُمَل فيما مضى وما يأتي . والمغرب : وهو الربع الثاني ، وجميع مافيه بارد رطب مثل الماء والبلغم (١) ، والشتاء ورياحه الدَّبُورُ ، وله من الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ، وله من المذاقات : المالح ، وماشابه ذلك . وله من القوى : القوة الدافعة . وله من الكواكب : المشتري ، وعُطارد . ومن البروج : الجدي ، والدلو ، والحوت . والجزء الثالث : التيمن وجميع مافيه حار يابس مثل المِرّة الصفراء . والصيف ، وريحه : الصَّبَا . وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة من النهار . وله من قوى البدن القوة النفسانية والحيوانية ، وله من المذاقات : المرارة ، وله من الكواكب : المريخ ،

---

(١) البلغم : إحدى الطبائع الأربع .

والشمس ، ومن البروج : السرطان والسنبلة ، والميزان ، والجزء الرابع هو الجنوبي ، جميع مافيه بارد يابس ، مثل الأرض والمرة السوداء ، والخريف وريحه الشمال وله من الساعات : السابعة والثامنة والتاسعة ، وله من قوى البدن القوة الماسكة ، ومن الطعوم والمذاقات : العَفْصُ ، وله من الكواكب : زُحَل ، وله من البروج الميزان ، والعقرب ، والقوس ، والأرض بعد ماوصفناه تتهايأ(١) في الهيئة ، وتختلف في التأثير على مقادير الخطوط ، فإذا بعد الخط كان التأثير بخلاف ماهو إذا قرب ؛ لموجبات متنافية متغايرة ، وأفضل المواضع من المسكون ماتطرح الشمس ضوء شعاعها إليه ، وإلى الإقليم الرابع ينتهي عند هذه الطائفة شعاعها في صفوه وارتفاع كدره ؛ لأن شعاع الشمس يهبط متساوياً إلى هذا الموضع وهو العراق .

علة عدم سكنى بعض الارض : قال المسعودي : والمواضع التي لاتسكن عند هذه الطائفة عَدِمَتْ السُّكنى

(١) تتهايأ : تتوافق .

لعلتين : إحداهما إفراطُ الحرّ وإحراقُ الشمس وكثرةُ تواترِ شعاعها على تلك الأرضين حتى قد جعلتها كلسية وأغاضت مياهها لكثرة التنشيف ، والعلة الأخرى بُعْدُ الشمس عن الإقليم ، وارتفاعها عن حوزاته(١) ، فاكتنف تلك الأرضين البرد ، واستولى عليها القُرُّ والجمَدُ فزاد إفراط البرد في الجو حتى أزال حسن الاعتدال، ورفع فضيلة النشف ، فلم تلبث الحرارة في الأجسام ، ولم تظهر الرطوبة في إنماء الحيوان هنالك ؛ فصارت تلك البلاد قاعاً صفصفاً من الحيوان والنبات ، وهذه البلدان التي تراها مفرطة الحرارة والبرودة هي تناسب ماذكرنا من هذه الديار البلاقع (٢) .

ولهذه الطائفة كلام كثير في فناء العالم ونقصه وعَوْدِه جديداً ، وذكروا أن السلطان في هذا الوقت السنبلة وهو سبعة آلاف سنة ، وذلك عمر هذا العالم البشري ، وقد ساعدَ السنبلةَ المشتري في التدبير ، وأن نهاية العالم في

---

(١) الحوزات : ج حوزة وهي الناحية .

(٢) البلاقع : القفار .

كثرة قطع الكَوْكَب المدبِّر المسافةَ التامةَ بالقوى ، فإذا استكمل قَطْعَ المسافة التي ذكروها في الفلك فهنالك يَقَعُ الفسادُ ويكون الدُّثورِ بالعالم ، والكواكب إذا كملت مالها من كرّ ودَوْر عاد التدبير إلى الأول منها ، وعادت أشخاص كل عالم وصوره مع اجتماع المواد التي كانت له في حال حركة تأثير الكوكب الذي كان التدبير إليه ، وهكذا عند هؤلاء يجري شأن العالم سرمداً .

مدة سلطان الكوكب : وزعموا أن سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة،وسلطان الثور إحدى عشرة(١) ألف سنة ، وسلطان الجوزاء عشرة آلاف سنة ، وسلطان السرطان تسعة آلاف سنة ، وسلطان الأسد ثمانية آلاف سنة ، وسلطان السنبلة سبعة آلاف سنة ، وسلطان الميزان ستة آلاف سنة ، وسلطان العقرب خمسة آلاف سنة ، وسلطان القوس أربعة آلاف سنة ، وسلطان الجدي ثلاثة آلاف سنة ، وسلطان الدلو ألفا سنة ، وسلطان الحوت ألف سنة ، فجميع ذلك ثمانية وسبعون ألف سنة ، وعند ذلك هو انقضاء العالم ونقض مافيه ورجوعه إلى كونه .

---

(١) كذا وردت والصحيح أن يقال: أحد عشر ألف سنة .

وتكلم هؤلاء في الجن الذين كانوا في الأرض قبل خلق الله آدم واستخلافه في الأرض ، وأن المتولي لهم كوكب من الكواكب النارية .

وتكلم كلا الفريقين في أوج الشمس عند انفصالها إلى البروج الجنوبية، وما يحدث في العالم في كون الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، وتحول العامر غامراً والغامر عامراً، على حسب ماذكرنا في كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » .

مساحاتُ الممالك وما بينَها من مسافة : زعم الفَزاري (١) أنَّ عملَ أميرِ المؤمنين من فَرْغانة (٢) وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، والعرض من باب الأبواب إلى جدة ستمائة فرسخ، ومن الباب إلى بغداد ثلاث مئة فرسخ، ومن مكة إلى جدة اثنان وثلاثون ميلاً .

---

(١) الفزاري : هو أبو اسحاق إبراهيم بن حبيب أول من عمل في الإسلام أسطرلاباً . وهو الذي استعمل الأسس الهندية في الحساب لوضع جداول فلكية جديدة (زيج) توفي في خلافة الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

(٢) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر « قرغيزيا » .

عملُ الصين من المشرق أحد وثلاثون ألف فرسخ في أحد عشر ألف فرسخ .

عمل الهند في المشرق أحد عشر ألف فرسخ في سبعة آلاف فرسخ .

عمل التُبَّت خمسمائة فرسخ في مائتين وثلاثين فرسخاً .

عمل كابلشاه (١) أربعمائة فرسخ في ستين فرسخاً .

عمل التغزغز (٢) بالترك ألف فرسخ في خمسمائة فرسخ .

عمل الترك (٣) لخاقان سبعمائة فرسخ في خمسمائة فرسخ .

عمل الخزر واللان (٤) سبعمائة فرسخ في خمسمائة فرسخ .

---

(١) كابلشاه : كابلستان أو بلاد كابل (أفغانستان) .

(٢) التغزغز : من نواحي كازاخستان السوفيتية .

(٣) تركمنستان من نواحي الخزر .

(٤) الخزر واللان خلف باب الأبواب في طرف أرمينية . وهي المنطقة الواقعة بين حوضي الفولغا والدون من جهة، وبحر الخزر والبحر الأسود من جهة أخرى (الاتحاد السوفييتي) .

عمل برجان(١) ألف وخمسمائة فرسخ في ثلاث مئة فرسخ .

عمل الصقالبة (٢) ثلاثة آلاف وخمسمائة فرسخ في أربعمائة فرسخ وعشرين فرسخاً .

عمل الروم بقسطنطينية (٣) خمسة آلاف فرسخ في أربعمائة وعشرين فرسخاً .

عمل رومية (٤) الروم ثلاثة آلاف فرسخ في سبعمائة فرسخ .

عمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ثلاث مئة فرسخ في ثمانين فرسخاً .

عمل إدريس(٥) الفاطمي ألف ومائتا فرسخ في مائة وعشرين فرسخاً .

---

(١) برجان : بلد من نواحي الخزر .
(٢) مملكة الصقالبة : في أوربة الشرقية .
(٣) مملكة الروم الشرقية .
(٤) مملكة الروم الغربية وعاصمتها رومة أو رومية .
(٥) مملكة الأدارسة بالمغرب .

عمل ساحل سجلماسة (١) لبني المنتصر أربعمائة فرسخ في ثمانين فرسخاً .

عمل أنبيه (٢) ألفان وخمسمائة فرسخ في ستمائة فرسخ.

عمل غانة (٣) بلاد الذهب ألف فرسخ في ثمانين فرسخاً.

عمل ورام (٤) مائتا فرسخ في ثمانين فرسخاً .

عمل نخلة (٥) مائة فرسخ وعشرون فرسخاً في ستين فرسخاً .

عمل واح (٦) ستون فرسخاً في أربعين فرسخاً .

عمل البجة (٧) مائتا فرسخ في ثمانين فرسخاً .

---

(١) سجلماسة : « مدينة في جنوبي المغرب . . بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب » . (ساحل إفريقية الغربي) .

(٢) أنبيه : لم أجد لها ذكراً . وقد ذكر البكري والحميري : أنباره : وهي بلد بقرب غانة من بلاد السودان .

(٣) غانة : من بلاد السودان (أفريقية) بين بينها سجلماسة مسيرة شهرين .

(٤) ورام : قال ياقوت : « ورام بلد قريب من الري » . ولا أظنها هي . والمرجح أنها في أفريقيا .

(٥) نخلة : لم أجد لها ذكراً . ولعلها من بلدان أفريقية .

(٦) واح : بمصر وهي ثلاث في غربي مصر ثم غربي الصعيد.

(٧) البجة : بالسودان .

عمل النجاشي (١) ألف وخمسمائة فرسخ في أربعمائة فرسخ .

عمل الزنج (٢) بالمشرق سبعة آلاف وستمائة فرسخ في خمسمائة فرسخ .

عمل أسطولا (٣) لأحمد بن المنتصر أربعمائة فرسخ في مائتين وخمسين فرسخاً .

فذلك الطول اثنان وسبعون ألفاً وأربعمائة وثمانون فرسخاً ، والعرض خمسة وعشرون ألفاً ومائتان وخمسون فرسخاً .

ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة وبيوت النيران والأصنام ، وذكر الكواكب ، وغير ذلك من عجائب العالم

عبادة الهند واتخاذهم الأصنام : قال المسعودي : كان كثيرٌ من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف

---

(١) النجاشي : بلاد الحبشة .

(٢) الزنج : ساحل افريقية الشرقي .

(٣) أسطولا : لم أجد لها ذكراً . وأظنها من بلدان افريقية .

يعتقدون أن اللهَ عز وجل جِسْمٌ ، وأن الملائكة أجسامٌ لها أقدار ، وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء ، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناماً على صورة الباري عز وجل ، وبعضها على صورة الملائكة : مختلفة القدود والأشكال ، ومنها على صورة الإنسان، وعلى خلافها من الصور ، يعبدونها ، وقربوا لها القرابين ، ونذروا لها النذور ؛ لشبهها عندهم بالباري وقربها منه ، فأقاموا على ذلك برهةً من الزمان وجملةً من الأعصار .

عبادتُهم الكواكبَ واتخاذُهم أصناماً لها : حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاكَ والكواكب أقربُ الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حَيَّةٌ ناطقة ، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله ، وأن كل مايحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ماتجري به الكواكب عن أمر الله ، فعظموها وقربوا لها القرابينَ لتنفعهم ، فمكثوا على ذلك دهراً ، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعضُ من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها ، فجعلوا لها أصناماً وتماثيل

بعدد الكواكب الكبار المشهورة،وكل صنف منهم يعظم كوكباً منها ، ويقرب لها نوعاً من القربان خلاف ماللآخر ، على أنهم إذا عظموا ماصوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل مايريدون ، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً ، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب .

وقد ذهب قوم إلى أنَّ البيتَ الحرام هو بيت زُحَلَ ، وإنما طال عندهم بقاء هذا البيت على مرور الدهور معظماً في سائر الاعصار لأنه بيت زُحَل ، وأن زحل تولاه ، لأنَّ زُحَلَ من شأنه البقاءُ والثبوت ، فما كان له فغيرُ زائل ولا دائر، وعن التعظيم غيرُ حائلٍ ، وذكروا أموراً أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها .

بوداسف أول الصابئة : ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله ، وألِفوا عبادة الكواكب ، فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر بوداسف بأرض الهند،وكان هندياً ، وقد كان بوداسف خرج من أرض الهند إلى السند ، ثم سار إلى بلاد سِجِسْتان وبلاد

زَابُلِستَان (١) ، وهي بلاد فيروز بن كبك (٢) ، ثم دخل السند ثم إلى كرمان(٣) ، فتنبأ وزعم أنه رسول الله ، وأنه واسطة بين الله وبين خالقه ، وأتى أرض فارس ، وذلك في أوائل ملك طهمورث ملك فارس ، وقيل : ذلك في ملك جم ، وهو أوَّلُ من أظهر مذاهبَ الصابئة على حسب ماقدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب ، وقد كان بوداسف أمرَ الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم ؛ إذ كان من هنالك بدء النفوس ، وإليها يقع الصدر من هذا العالم .

وجدَّدَ بوداسف عند الناس عبادةَ الاصنام ، والسجود لها ، لشُبَهِ ذكرها ، وقَرَّب لعقولهم عبادتَها بضروبٍ من الحِيَلِ والخدع .

جم أول من دعا إلى عبادة النار : وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم أن جَمّ الملك

---

(١) سجستان : مجاورة لبلاد السند وخراسان . وزابلستان كورة قائمة برأسها وقصبتها غزنة ومعظم أراضي البلدين حالياً في « أفغانستان »
(٢) فيروز بن كبك : لم أعثر على ترجمة له .
(٣) كرمان : مقاطعة في إيران مطلة على الخليج العربي .

أوّلُ من عَظَّم النار ، ودعا الناس إلى تعظيمها ، وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب ؛ لأن النور عنده أفضل من الظلمة ، وجعل للنور مراتب .

ثم تنازع هؤلاء بعده ، فعظَّم كلٌّ فريق منهم مايَرَوْن تعظيمه من الأسماء تقرباً إلى الله بذلك، ثم تنازعوا برهة من الزمان .

عمرو بن لُحَيّ أظهر الأصنام بمكة : ونشأ عمرو ابن لُحَيّ فَسَادَ قَوْمَهُ بمكة (١) ، واستولى على أمر البيت ، ثم سار إلى مدينة البَلْقاء(٢) من عَمَلِ دمشقَ من أرض الشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا : هذه أربابٌ نتّخِذُها ، نستنصِرُ بها فنُنْصر ، ونستسقي بها فنُسقى ، وكل مانسألهم نُعطى ، فطلب منهم صنماً يدعونه هُبَلَ ، فسار به إلى مكة ونَصَبَه على الكعبة ومعه إساف ونائلة ، ودعا الناس إلى تعظيمها

---

(١) عمرو بن لحي : زعيم بني خزاعة أدخل عبادة الأوثان إلى مكة نحو سنة ٢٥٠ م .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق قصبتها عمان (معجم البلدان لياقوت الحموي) .

وعبادتها ، ففعلوا ذلك ، إلى أن أظهر الله الإسلام وبعث محمداً عليه السلام ، فطهَّرَ البلادَ ، وأنقذَ العباد .

البيت الحرام : وقد قال هؤلاء : إن البيت الحرام من البيوت السبعة المعظمة المتخذة على أسماء الكواكب من النيرين والخمسة .

بيت للمجوس بأصبهان : وبيتٌ ثانٍ معظَّمٌ على رأس جبل بأصبهان (١) يقال له مارس ، وكانت فيه أصنام إلى ان أخرجها منه يستاسف الملك لما تمجَّس وجعلَهُ بيتَ نارٍ ، وذلك على ثلاثة فراسخ من اصبهان ، وهذا البيت معظم عند المجوس إلى هذه الغاية .

غُمْدان بصنعاء : والبيت الخامس بيت غُمْدانَ الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن ، وكان الضحاك بناه(٢) على اسم الزُّهَرَة ، وخرَّبه عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه؛ فهو في وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة

---

(١) أصبهان : مدينة مشهورة بإقليم الجبال (إيران) .

(٢) الضحاك : لعله الأمير الاسطوري الآشوري الذي هاجم جمشيد ملك الفرس وقتله . ثم حبسه الحداد الفارسي « كاوه » في جبل دنباوند .

خراب قد هُدِم فصار تلاً عظيماً ، وقد كان الوزير علي بن عيسى بن الجراح (١) — حين نفي إلى اليمن وصار إلى صنعاء — بنى فيه سقايةً وحَفَرَ فيه بئراً .

ورأيت غُمْدانَ رَدْماً وتلاً عظيماً قد انهدم بنيانه ، وصار جَبَلَ تُراب كأنه لم يكن ، وقد كان أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان النازل بها وصاحب مخاليف اليمن في هذا الوقت ، وهو المُعظَّم في اليمن ، أراد أن يبني غمدان ، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني (٢) أن لايتعرض لشيء من ذلك ، إذ كان بناؤه على يدي غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر في صُقْع من هذا العالم تأثيراً عظيماً .

---

(١) علي بن عيسى الجراح : (٢٤٤ — ٣٣٤ هـ) وزير المقتدر والقادر العباسيين، وأحد الرؤساء والعلماء . حبسه المقتدر ونفاه إلى مكة ومنها إلى صنعاء . مات ببغداد . له : « سياسة المملكة » و « سير الخلفاء ».

(٢) يحيى بن الحسين : أظنه الهادي إلى الحق الإمام الزيدي المولود بالمدينة والمعروف بعلمه وورعه وشجاعته . قصد اليمن بدعوة من الهمداني أحد ملوكها وبويع بالخلافة وخوطب بأمير المؤمنين مات بصعدة سنة(٢٩٨هـ)

ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة للصابئة وغيرها ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بهذا المعنى

هيكلُ العقل والعلّة الاولى : للصابئة من الحرّانيين هياكل على أسماء الجواهر العقلية والكواكب ؛ فمن ذلك الهيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل ، وما أدري أأشاروا إلى العقل الأول أم الثاني ، وقد ذكر صاحب المنطق في كتابه في المقالة الثالثة من كتاب النفس العقلَ الأول الفعّال ، والعقل الثاني ، وذكر ذلك تامسطيس في كتابه في شرح كتاب النفس الذي عمله صاحب المنطق ، وقد ذكر العقل الأول والثاني الإسكندر الأفرودسي في مقالة أفردها في ذلك قد ترجمها إسحاق بن حُنَين (١) .

جملة من هياكلهم : ومن هياكل الصابئة هيكلُ السلسلة ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس ، وهذه مُدوّرات

---

(١) إسحاق بن حنين : طبيب مترجم أفاد العربية بما نقله إليها من كتب الحكمة وشروحها . كان عارفاً باليونانية والسريانية فصيحاً بالعربية . ولد ومات في بغداد . (٢١٥ — ٢٩٨ هـ) .

الشكل ، وهيكل زُحَل مُسدّس ، وهيكل المشتري مُثلَّث ، وهيكلُ المريخ مربع مستطيل ، وهيكل الشمس مربع ، وهيكل عطارد مثلث الشكل ، وهيكل الزُّهَرة مثلث في جوف مربع مستطيل ، وهيكل القمر مُثمّن الشكل ، وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها.

وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أهل حَرّان يعرف بالحارث بن سنباط للصابئة الحرانيين أشياء ذكرها من قرابينَ يقربونها من الحيوان ودُخَنٍ(١) للكواكب يبخرون بها وغير ذلك مما امتنعنا عن ذكره مخافة التطويل .

والذي بقي من هياكلهم المعظمة في هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — بيتٌ لهم بمدينةِ حَرَّان في باب الرَّقة يعرف بمغليتيا ، وهو هيكلُ آزرَ أبي إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم ، وللقوم في آزر وابنه إبراهيم كلام كثير ليس كتابنا هذا موضعاً له ، ولابن عيشون الحراني القاضي — وكان ذا فَهمٍ ومعرفة ، وتوفي بعد الثلاث مئة — قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين

(١) دخن : ج دخنة : ذريرة تدخن بها البيوت والمعابد .

المعروفين بالصابئة ، ذكر فيها هذا البيت وما تحته من السراديب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام التي جعلت مثالاً للأجسام السماوية، وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العالية ، وأسرار هذه الأصنام ، وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام ، وما يُحْدِث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصفرة وغيرها لما يسمعون من ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات من تلك الأصنام والأشخاص ، بحيل قد اتُخذَت ومنافيخَ قد عُمِلت : تقف السَّدَنةُ من وراء جُدُر فتتكلم بأنواع من الكلام ، فتجري الأصوات في تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجوفة والأصنام المشخصة ، فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان ، فيصطادون به العقول ، وتُسْتَرَقُ بها الرقابُ ، ويُقام بها المُلْك والممالك .

قال المسعودي : وقد ذكر جماعة — ممن له تَأمُّلٌ بشأن أمور هذا العالم والبحث عن أخباره — أن بأقاصي بلاد الصين هيكلاً مدوراً له سبعة أبواب ، في داخله قُبّةٌ مسبَّعة عظيمة الشأن عالية السَّمْك(١) ، في أعالي

(١) السمك : السقف .

القبة شبه الجوهرة يتزيدُ على رأس العجل تضيء منه جميعُ أقطارِ ذلك الهيكل ، وأن جماعةً من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فلم يَدْنُ أحد منها على مقدار عشرة أذرع إلا خرَّ ميتاً ، وإن حاول أحد منهم أخذ هذه الجوهرة بشيء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها . وانتهت إلى هذا المقدار من الذّرْع انعكست وتعطلت ، وإن رميت بشيء كان كذلك ، فليس شيء من الحيل يؤدي إلى تناولها بوجه ولا بسبب ، وإن تعرض لشيء من هدم هذا الهيكل مات مَن يَرومُ ذلك ، وهذا عند جماعة من أهل الخبرة لقوة دافعة منفردة قد عُمِلَت من أنواع الأحجار المغناطيسية ، وفي هذا الهيكل بئرٌ مسبَّعةُ الرأس متى أكبَّ الانسان على رأس البئر إكباباً متمكناً تهوّرَ في البئر فصار في أسفلها ، على أمِّ رأسه . وعلى رأس هذه البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم أراه بقلم المسند « هذه بئر تؤدي إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه ، وتؤدي هذه البئر أيضاً إلى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يَعمل إلى الوصول إليها والاقتباس منها

إلا من وازت قدرتهُ قدرتنا . واتصل علمهُ بعلمنا، وصارت حكمتهُ كحكمتنا، فمن قدر على الوصول إلى هذا المخزن فليعلم أنه قد وازانا ؛ ومن عجز عن الوصول إلى ما وصفنا فليعلم أنَّا أشدُّ منه بأساً ، وأقوى حكمة ، وأكثر علماً ؛ وأثقب دراية ، وأتم عناية » ، والأرض التي عليها هذا الهيكل والقبة، وفيها البئر أرض حجرية صُلبة ، عالية من الأرض كالجبل الشامخ لاتُرام قلعته ولا يتأتى نقب ماتحته ، فإذا أدرك البصر ذلك الهيكل والقبة والبئر وقع للرائي عند رؤيته ذلك جزَع وحزن واجتذاب للقلب إليه وحنين على إفساده ، وتأسف على إفساد شيء منه أو هدمه . والله أعلم بذلك .

ذكر الأخبار عن بيوت النيران ، وغيرها

رأيهم في النار والنور : فأما بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس الأولى والثانية فأول مايحكى ذلك عنه أفريدون الملك . وذلك أنه وجد ناراً يعظمها أهلُها ، وهم معتكفون على عبادتها ، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها ، فأخبروه بأشياء اجتذبت

نفسه إلى عبادتها ، وأنها واسطة بين الله وبين خالقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها أعرضنا عن ذكرها لاعتياصها (١) ، وذلك أنهم جعلوا للنور مراتب ، وفرقوا بين طبع النار والنور ، وأن الحيوانَ يجتذب فيحرق نفسه كالفَرَاش الطائر بالليل ؛ فما لطف يطرح نفسه في السراج فيحرقها ، وغير ذلك مما يقع في صيد الليالي من الغزلان والطير والوحوش ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج في الزوارق ، كما يصطاد ببلاد البصرة السمك في الليل يظهر من الماء طافياً حتى يقع في جوف المركب والسُّرجُ قد جعلت حواليه ، وأن النورَ صلاحُ هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة ومضادته لها ، ومرتبة الماء وزيادته على النار بإطفائه ومضادته لها ، وأنه أصل لكل حي ، ومبدأ لكل نامٍ .

بيت بإصطخر : وللفرس بيت نار بإصطخر (٢) فارس تعظمه المجوس ، وكان في قديم الزمان فأخرجته

---

(١) لصعوبة فهمها .

(٢) إصطخر : مدينة إيرانية قريبة من شيراز .

حماية بنت بهمن بن اسفنديار وجعلته بيت نار ، ثم نقلت عنه النار فتخرّب ، والناس في وقتنا هذا يذكرون آنه مسجد سليمان بن داود ، وبه يعرف وقد دخلته ، وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر ، فرأيت بنياناً عجيباً ، وهيكلاً عظيماً، وأساطين (١) صخر عجيبة ، على أعلاها صور من الصخر طريفة، من الخيل وغيرها من الحيوان، عظيمة القدر والاشكال ، محيط بذلك حيز عظيم وسور منيع من الحجر ، وفيه صور لأشخاص قد تشكلت وأتقنت صورها ، يزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء ، وهو في سفح جبل والريح غير خارجة من ذلك الهيكل في ليل ولا نهار ، ولها هبوب ودويّ ، يذكر مَن هنالك من المسلمين أن سليمان بن داود عليهما السلام ، حبس الريح في ذلك الموضع ، وأنه كان يتغدّى ببعلبك من أرض الشام ، ويتعشى في هذا المسجد ، وينزل بينهما بمدينة تدمر وملعبها المتخذ فيها ، ومدينة تدمر في البرية بين العراق ودمشق وحمص من أرض الشام يكون منها إلى الشام نحو خمسة أيام أو ستة ، وهي بنيان عجيب من الحجر ،

(١) أساطين : أعمدة — مفردها أسطوانة .

وكذلك الملعب الذي فيها ، وفيها خلق من الناس من العرب من قحطان .

جملة من بيوت النار : وبأرض العراق بيتٌ للنار بالقرب من مدينــة السلام ، بنته بوران بنت كسرى أبرويز الملكة في الموضع المعروف بأستنيا(١) .

وبيوت النيران كثيرة مما بنته المجوس بالعراق وأرض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وأذربيجان والران ، وفي الهند والسند والصين ، أعرضنا عن ذكرها ، وإنما ذكرنا مااشتهر منها .

بيت بعل : والهياكل المعظمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة : مثل بيت بعل ، وهو الصنم الذي ذكره الله عز وجل بقوله: «(أتدعون بعلاً وتَذَرونَ أَحْسَنَ الخالقين ؟)» وهو بمدينة بعلبك من أعمال دمشق من كورة سنير ، وقد كانت اليونانية اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض بين جبل لبنان وجبل سنير (٢) فاتخذته موضعاً للأصنام ،

---

(١) أستنيا : قال ياقوت : إستينيا : قرية بالكوفة .

(٢) قال ياقوت : جبل سنير : جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير . وكورة سنير تمتد من بعلبك غرباً إلى القريتين وسلمية شرقاً وشمالا .

وهما بيتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر ، فيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لايتأتى حفر مثله في الخشب مع علو سَمْكهما وعظم أحجارهما ، وطول أساطينهما ، ووسع فتحهما ، وعجيب بنيانهما ه وقد أتينا على خبر هذه الهياكل،وما كان من خبر القتل على رأس ابنة الملك، وما نال أهل هذه المدينة من سفك الدماء .

جيرون بدمشق : وهيكل عظيم البنيــان في مدينــة دمشق ، وهو المعروف بجيرون ، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب وأن بانيه جيرون بن سعد العادي ، ونقل إليه عمد الرخام ، وإنه إرم ذات العماد المذكورة في القرآن ، إلا ماذكر عن كعب الأحبار حين دخل على معاوية بن أبي سفيان وسأله عن خبرها وذكر عجيب بنيانها من الذهب والفضة والمسك والزعفران،وأنه يدخلها رجل من العرب يتيه له جملان فيخرج في طلبهما فيقع إليها ، وذكر حِليْة الرجل ، ثم التفت في مجلس معاوية فقال : هذا هو الرجل ، وكان الأعرابي قد دخلها يطلب ما نَدّ من إبله؛ فأجاز معاوية كعباً ، وتبين صدق مقالته وإيضاح برهانه ، فإن كان هذا الخبر عن كعب حقاً في

هذه المدينة فهو حسن ، وهو خبر يدخله الفساد من جهات من النقل وغيره ، وهو من صنعة القُصَّاص .

وقد تنازع الناس في هذه المدينة ، وأين هي ؟ ولم يصح عند كثير من الاخباريين ممن وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين ، إلا خبر عبيد بن شَرِيَّة (١) وإخباره إياه عما سلف من الأيام ، وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد ابن شرية متداول في أيدي الناس مشهور .

كتاب ألف ليلة وليلة : وقد ذكر كثيرٌ من الناس ممن له معرفة بأخبارهم أنّ هذه أخبارٌ موضوعة من خُرافات مصنوعة ، نظمها مَنْ تقرب للملوك بروايتها ، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها ، وأن سبيلها سبيلُ الكتُبِ المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية

---

(١) عبيد بن شرية الجرهمي : (ت نحو ٦٧ هـ) من حكماء الجاهلية . شخصية أقرب إلى الأساطير ، يعده الرواة من أقدم الإخباريين . ويزعمون أنه ألف لمعاوية كتاباً في « تاريخ الملوك وأخبار الماضي » .

والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هَزار أَفْسَانة ، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية أَلْفُ خُرَافة ، والخرافة بالفارسية يقال لها أفسانة ، والناس يسمُّون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبرُ الملكِ والوزيرِ وابنتِه وجاريتها ، وهما شيرزاد ودينازاد ، ومثلُ كتاب فَرْزة وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السِّندباد ، وغيرها من الكتب في هذا المعنى .

أصل مسجد دمشق : وقد كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلاً عظيماً فيه التماثيل والأصنام على رأس منارته تماثيل منصوبة ، وقد كان بُني على اسم المشتري ، وطالع سعد ، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة ، وظهر الإسلام فجُعِل مسجداً ، وأحكم بناءه الوليدُ ابنُ عبد الملك ، والصوامع منه لم تغير ، وهي منائر الأذان إلى هذا الوقت .

البريص بدمشق : وقد كان بدمشق أيضاً بناء عجيب يقال له البريص ، وهو مُبقىً إلى هذا الوقت في

وسطها ، وكان يجري فيه الحمر في قديم الزمان ، وقد ذكرته الشعراء في مدحها لملوك غسّان من مأرب وغيرهم .

محاولات قديمة لوصل بحر الروم بالبحر الأحمر :

وقد كان بعضُ من مُلّك من الروم حَفَرَ بين القلزُم(١) وبحر الروم طريقاً فلم يتأتّ له ذلك ؛ لارتفاع القلزم ، وانخفاض بحر الروم ، وأن الله عز وجل قد جعل ذلك حاجزاً على حسب ماأخبر في كتابه ، والموضع الذي حفره ببحر القلزم ، يعرف بذنَبِ التمساح على ميل من مدينة القلزم ، عليه قنطرة عظيمة يجتاز عليها من يريد الحج من مصر ، وأجرى خليجاً من هذا البحر إلى موضع يعرف بالهامة ضيعة لمحمد بن علي الماذرائي (٢) من أرض

(١) القلزم : مدينة على البحر الأحمر قريبة من مدينة السويس ، وسمي البحر قديماً باسمها .

(٢) محمد بن علي بن أحمد بن رستم أبوبكر الماذرائي : (٢٥٨ — ٣٤٥ هـ) وزير من الكتاب وصفه المقريزي بأنه أحد عظماء الدنيا . استوزره هارون بن خمارويه وجعل له الإخشيد أمور مصر كلها، وملك من الضياع مالم يملكه أحد من قبله . توفي بالقاهرة . والهامة : « موضع بتيه مصر ،وهي كورة واسعة فيها جبل ألا ق .

مصر في هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — فلم يتأت له اتصال مابين بحر الروم وبحر القلزم .

وحفر خليجاً آخر مما يلي بلاد تِنِّيس ودمياط وبحيرتهما ، ويعرف هذا الخليج بالزبر والحبية ، واستمر الماء في هذا الخليج من بحر الروم وبحيرة تنيس إلى موضع يعرف بنعنعان حتى اتصل بنحو بلاد الهامة ، فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلى نحو من هذه القرية ، ومن بحر القلزم في خليج ذنب التمساح ، فيتتابع أرباب المراكب ، ويقرب حمل مافي كل بحر إلى آخر ، ثم ارتدم ذلك على تطاول الدهور ، وملأته السّوافي من الرمل وغيره .

وقد رام الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبشة وأقاصي صعيد مصر ؛ فلم تتأتَّ له قسمة ماء النيل ، فرام ذلك مما يلي بلاد الفَرَما نحو بلاد تنيس(١) ، على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي ، فقال يحيى بن خالد : يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف ، وذلك

---

(١) مر ذكر الفرما وتنيس وهما على ساحل المتوسط بأرض مصر .

أن مراكبهم تنتهي من بحر الروم إلى بحر الحجاز ، فتطرح سراياها مما يلي جدة ، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ماذكرنا ، فامتنع من ذلك .

وقد حكي عن عمرو بن العاص (١) — حين كان بمصر — أنه رام ذلك ؛ فمنعه منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسراياهم ، وذلك في حال ماافتتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآثار الحفر بين هذين البحرين فيما ذكر من المواضع والخاجان بيّنة ، على حسب ماشرعت فيه الملوك السالفة طلباً لعمارة الارض ، وخصب البلاد ، وعيش الناس بالأقوات ، وأن يحمل إلى كل بلد ماليس فيه من الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المرافق ، والله تعالى أعلم .

---

(١) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي (٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ) أبوعبدالله، فاتح مصر ، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم . كان من أمراء الجيوش في الفتوحات . وولي مصر لمعاوية . مات بالفسطاط .

ذكر جامع التاريخ من بَدْء العالم إلى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لحق بهذا الباب

بعض قول الطبيعيين : قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا جملاً من تباين الناس في بدء العالم ، ممن أثبت حدوثه ونفاه ، وماجرت الآراء بهم فيه إلى جهات شتى ، وقد أخبرنا أنهم طوائف الهند وفرق من اليونانيين ، ومَنْ وافقهم على القول بالقدم من الفاكيين والطبيعيين ، وما أوردته الفاكية من قولها : إن الحركة الصانعة للأشخاص المُحِلّة فيها الأرواح متى قطعت المسافة التي بين العقدة التي ابتدأت منها ، حتى تنتهي إليه راجعة ، ثم تنفصل عنها ، أعادت كل مابدأت به أولاً كهيئته وأشخاصه وصوره وضروب أشكاله ؛ إذ كانت العلة والسبب اللذين بوجودهما توجد الأشياء قد وجِدَا عَوْداً كما وجدا بدْءاً ، فوجب ظهورُ الأشياء متى عادت إلى المبدأ الذي كان عند الصَّدَر ، ثم ماتعقب هذا القول من قول الطبيعيين : إن علة كون الأشياء الجسمانية والنفسانية من قبل حركات الطبائع

واختلاطها ؛ لأن الطبيعة عندهم تحركت في بدوّها واختلطت فأظهر الحيوانُ والنبات وسائر الموجودات في العالم ، وجعلت لها أصلاً من التناسل ، لما عجزت عن تبقية الأشخاص وعدلت إلى النسل ، وإن الطبائع تنتقل من مركب إلى بسيط ، ومن بسيط إلى مركب ، حتى إذا أدى المركب كنه مافيه عادت الأشياء إلى البسيط ، وابتدأ الكون داراً على طريقه ؛ لأن الذي أوجبه أولاً قد وُجِد ، فحقّه أن يوجد منه بوجود المعنى الذي أوجده ، فظهر ذلك الظهور ، كالنبات في الربيع ، وتحرك قوته تحت الثرى ، وذلك أن الشمس تبلغ في الربيع إلى رأس الحمل ، بادئةً في شَرَفِها (١) ، آخذة في ممرها ، وهي العلة الكبرى في إحياء النبات، ويأخذ الثمر في الظهور من الشجر بادئاً كما كان ظاهراً بالمثال الأول الذي قد باد في الشتاء ويبسه وبرده ، لأن علة الكون الحرارة والرطوبة، وعلة الفساد البرد واليبس ، فإذا انتقلت الأشياء من الحرارة والرطوبة إلى البرد واليبوسة فارقت الكون المتمم ودخلت الفساد ، فإذا انتهى بها الفساد إلى غايته وأوصلها إلى نهايته عاقبها الكون بوصول الشمس إلى رأس الحمل ، فبدأ

---

(١) الشرف : العلو والارتفاع .

بها كعادته في إنشائها ، وأبرزها من خساسة الفساد إلى نفاسة الكون ، ولو كانت الحواس تضبط شأن الأجسام وتحيط بانتقالها من حال إلى حال لشاهدت ممرها في دائرة الزمان ، مبتدئة من رتبة ، راجعة إليها ، مشكلة في محيط الدائرة بأشكال توافق بعضها ، والشكول مختلفة باختلاف العالم ، متفرقة كاختلاف الأسباب . وفي هذا القول من هذه الطائفة ماصرّح بالقول بالقدم وأبان عنه .

قال المسعودي : فلنرجعْ الآنَ إلى الكلام في حَصْرِ تاريخ العالم ووصف أقاويل الطوائف في ذلك المعنى ، لأنّ إنما ذكرنا الكلامَ في حدوث العالم لما ذكرنا قول من قال بقدمه ودل على أزليته ، وقد تقدم ذكرنا لقول الهند في ذلك فيما سلف من هذا الكتاب .

عمر الدنيا : وأما اليهـــود فإنهم زعموا أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة ، وأخذوا في ذلك مأخذاً شرعياً ، وذهبت النصارى إلى أن عمر العالم ماذهبت إليه اليهود ، وأما الصابئة من الحرانيين والكماريين فقد ذكرنا قولهم في ذلك في جملة قول اليونانيين ، وأما المجوس فإنهم ذهبوا في ذلك إلى حد غير معلوم من نفاذ قوة الهرمند

وكيده ، وهو الشيطان ، ومنهم من ذهب في ذلك إلى نحو ماذهب إليه أصحاب الاثنين في المزاج والخلاص ، وأن العالم سيعود باءاً متخلصاً من الشرور والآفات .

وزعمت المجوس أن من وقت زرادشت بن أسبيمان نبيهم إلى الإسكندر مائتين وثمانين سنة ، وملك الإسكندر ست سنين ، ومن مُلك الإسكندر إلى مُلك أردشير خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة ، ومن مُلك أردشير إلى الهجرة خمسمائة وأربع وستون سنة ؛ فذلك من هبوط آدم إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ستة آلاف سنة ومائة سنة وست وعشرون سنة : منها من هبوط آدم عليه السلام إلى الطوفان ألفان ومائتان وست وخمسون سنة ، ومن الطوفان إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام ألف وتسع وسبعون سنة ، ومن مولد إبراهيم إلى ظهور موسى بعد ثمانين سنة خلت من عمر موسى بن عمران — وهو وقت خروجه ببني إسرائيل ، من مصر إلى التيه — خمسمائة وخمس وستون سنة ، ومن خروجهم إلى سنة أربع من ملك سليمان بن داود — عليه السلام ! — وذلك وقت ابتدائه في بناء بيت المقدس — ستمائة وست وثلاثون

سنة ، ومن بناء بيت المقدس إلى مُلك الإسكندر سبعمائة وسبع عشرة سنة ، ومن مُلك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاث مئة سنة وتسع وستون سنة ، ومن مولد المسيح إلى مولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وإحدى وعشرون سنة ، وبين أن رفع الله المسيح ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وست وأربعون سنة ، وبين مبعث المسيح وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة وأربع وتسعون سنة ، وكانت وفاة نبينا صلى الله عليه وسلم في سنة تسعمائة وخمس وثلاثين سنة من سني ذي القرنين ، ومن داود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألف سنة وسبعمائة سنة وسنتان وستة أشهر وعشرة أيام ، ومن إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألفا سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، ومن نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وعشرة أيام ، فعلى هذا القول جميع جملة التاريخ ، من هبوط آدم إلى الأرض ، إلى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعة آلاف سنة وثمانمائة سنة وإحدى عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام ،

فجملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة، من خلافة المتقي بالله ونزوله الرقة من ديار مضر — خمسة آلاف سنة ومائة وست وخمسون سنة .

وقد ذكرنا جملاً من التاريخ فيما سلف من هذا الكتاب فلم نعد منه ماتقدم .

وللمجوس في التاريخ أقاصيص يطول ذكرها ، وعود الملك إليهم وإلى غيرهم من الطوائف السالفة في بدو العالم وفنائه ، ومن قال منهم ببقائه ، وأن لابَدْء له ولانهاية ، ومن ذهب منهم إلى أن له انتهاء ولابدء له ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا فأغنى ذلك عن الإعادة في هذا الكتاب ؛ لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز والتنبيه على ماسلف لنا من الكتب .

رأي أهل النظر من المسلمين : وقد ذهب جماعة من أهل البحث والنظر من أهل الإسلام إلى أن الدلالة قد قامت على حدوث العالم وكونه بعد أن لم يكن ، وأن المحدث له الخالق الباري جل وعز ، أحدثه لامن شيء،

ويبعثه لامن شيء في الآخرة ليصح بذلك وعده ووعيده ، إذ كان الصادق في وعده ووعيده لامبدل لكلماته ، وأن أول العالم من لدن آدم ، وقد غاب عنا حصر السنين وإحصاؤها ، وتنازع الناس في بدء التاريخ ، والكتابُ لم يخبر بحصر أوقاته ولابَيَّنَ عن كيفيته ولا أعداد سنيه فيما مضى ، وليس علم ذلك مما تهجم عليه الآراء ، ولاتحصره أقضيات العقول (١) وموجبات الفحص وضرورات الحواس عند مذاكرتها لمحسوساتها ، فكيف توجب أن يوقت عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة ، والله عز وجل يقول وقد ذكر الأجيال ومن ضمه الهلاك : « وعاداً وثمودَ وأصحابَ الرّسِّ وقروناً بينَ ذلك كثيراً » والله تعالى ذكره لايقول الكثير إلا في الشيء الحقيقي الكثير ، وأعلمنا في كتابه خلقه آدمَ وما كان من أمره وأمر الأنبياء بعده ، وأخبر عن شأن بدء الخلق ، ولم يخبرنا بمقدار ذلك فنقف عليه كوقوفنا عندما أخبرنا به ، ولاسيما مع علمنا أن المدى بيننا وبينه متفاوت ، وأن الارض كثرت بها المدن والملوك والعجائب، فلا نحصر مالم يحصره الله عز وجل ،

---

(١) أقضيات العقول : تقديراتها .

ولانقبل من اليهود ماأوردته ، لِنُطق القرآن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويكتمون الحق وهم يعلمون ، ونفيهم النبوّات وجحدهم ماأوتوا به من الآيات مما أظهره الله عز وجل على يدي عيسى بن مريم من المعجزات ، وعلى يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من البراهين الباهرات والدلائل والعلامات ، والله عز وجل يخبرنا بما أهلك من الأمم لما كان من فعلهم وكفرهم بربهم ، قال الله عز وجل : «(الحاقَّةُ ما الحاقَّةُ ؟ وما أدْراكَ ما الحاقَّةُ ؟ كَذَّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعةِ ، فأما ثَمودُ فأُهلِكُوا بالطَّاغيةِ ، وأَمَّا عادٌ فأُهلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتية)» إلى قوله : «(فهل تَرَى لَهُم من بَاقية ؟)» ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « كَذَبَ النسّابون » وأمر أَنْ يُنسَب إلى معد(١) ونهى أن يتجاوز بالنسب إلى مافوق ذلك ؛ لعلمه بما مضى من الأعصار الخالية والأمم الفانية ، ولولا أن النفوس إلى الطارف أحَنُّ ، وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار

---

(١) المؤلف ذكر معداً ، وانما هو عدنان ، كما ذكر في كثير من مصنفات التاريخ والحديث ، والإجماع على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه .

الأحاديث أميَل وبها أكلف ، لذكرنا من أخبار المتقدمين وسير الملوك الغابرين مالم نذكره في هذا الكتاب ، ولكن ذكرنا فيه ماقرب تناوله تلويحاً بالقول دون الإيضاح والشرح ؛ إذ كان مُعَوَّلنا في جميع ذلك على ماسلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، واذا علم الله عز وجل موقع النية ووجه القصد أعان على السلامة من كل مخوف .

وقد ذكرنا في هذا الكتاب من كل فن من العلوم وكل باب من الآداب — على حسب الطاقة ومبلغ الاجتهاد والاختصار والإيجاز — لمعاً سيعرفها من تأمل ، وينبه بها مَنْ رآها .

وإذ قد ذكرنا جوامع مايحتاج المبتدي والمنتهي من علوم العالم وأخباره ؛ فلنذكر الآن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولده ، ومبعثه ، وهجرته ، ووفاته ، وأيام الخلفاء والملوك : عصراً فعصراً ، إلى وقتنا هذا ، ولم نعرض في كتابنا هذا لكثير من الأخبار ، بل لوّحْنا بالقول بها تخوفاً من الإطالة ووقوع الملل ، إذ ليس ينبغي للعاقل أن يحمل البنية (١) على ماليس في طاقتها ، ويسوم

---

(١) البنية : الفطرة ، والبنية الجسد .

النفس ماليس في جِبِلّتها ، وإنما الألفاظ على قدر المعاني فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وهذا باب كبير : وبعضه ينوب عن بعض ، والجزء منه يوهمك الكل ، والله تعالى ولي التوفيق .

ذكر

مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

تقديم : قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا بَدْءَ التاريخ في أخبار العالم وأخبار الأنبياء والملوك وعجائب البر والبحر ، وجوامع التاريخ للفرس والروم والقبط وشهور الروم والقبط ، وما كان من مولد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مَبْعثه ، ومَنْ آمن به قبل رسالته ، وقد قدمنا في هذا الكتاب مَنْ كان بينه وبين المسيح من أهل الفَترة فلنذكر الآن مولدَهُ ؛ إذ كان الطاهرَ المطَهَّر الأَغرَّ الأَزهَرَ ، الذي اتسعت أعلامُ نبوَّتِه ، وتواترت دلائلُ رسالته ، ونطقت الشهادات له قبل بعثته .

نسبه الشريف : وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مَنَاف بن قُصَي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النَضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار ابن معدّ بن عدنان بن أدد بن ناخور بن سود بن يعرب ابن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ابن تارح وهو آزر بن ناخور بن ساروخ بن أرعواء ابن فالع بن عابر بن شالخ بن إرفشخذ بن سام بن نوح ابن لملك بن متوشلح بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم عليه السّلام .

كنية الرسول : وكنيته صلى الله عليه وسلم : أبو القاسم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

لله ممّن قد بَرَا صفوةٌ
وصفوةُ الخلقِ بنو هاشم
وصفوةُ الصّفوةِ من هاشمٍ
محمدُ النورِ أبو القاسم

أسماؤه : وهو محمد ، وأحمد ، والماحي الذي

يمحو اللهُ به الذنوبَ ، والعاقِبُ ، والحاشر الذي يحشر الله الناس على عقبه ، صلى الله عليه وسلم .

مولده : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عامَ الفيل ، وكان بين عام الفيل وعام الفِجَار عشرون سنة ، والفِجَار حرب كانت بين قيس عَيْلان وبني كنانة ، استحلوا فيها القتال في الأشهر الحرم ، فسميت الفِجَار .

قريش تبني الكعبة : وقد كان السَّيلُ هدم الكعبة فسُرِقَ منها لمَّا انهدمت غزالٌ من الذَّهب ، وحليٌ وجواهرُ . فنقضتها قريشٌ وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواعٍ من الأصباغ عجيبة : منها صورةُ إبراهيم الخليل في يده الأزلام ، ويقابلها صورةُ إسماعيلَ ابنه على فرسٍ يُجيز بالناس مُفيضاً . والفاروق قائم على وفدٍ من الناس يقسِّمُ فيهم ، وبعد هذه الصور صورُ كثيرٍ من أولادهم إلى قصيّ بن كلاب وغيرهم ، في نحوٍ من ستّين صورةً مع كل واحدٍ من تلك الصور إله صاحبها ، وكيفيّة عبادته وما اشتهر من فعاله .

* * *

كسوة الكعبة : فلمّا استتمّت قريشٌ بناءَ الكعبة ، كستها أرديةَ الزعماء ، وهي الوصائل ، وأعادوا الصورَ التي كانت مصوّرةً في الكعبة ، وأتقنوا شكل ذلك وإحكامه .

ذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم
وماجاء في ذلك إلى هجرته

ثم بعثَ اللهُ رسولَه ، وأكرمه بما اختصَّه به من نبوته ، بعد بنيان الكعبة بخمس سنين على ماقدمنا آنفاً ، وهو ابن أربعين سنة كاملة ؛ فأقام بمكة ثلاثَ عشرة سنة ، وأخفى أمره ثلاثَ سنين ، ونكح خديجةَ بنتَ خويلد وله خمسٌ وعشرون سنة ، وأُنزل عليه بمكة من القرآن اثنتان وثمانون سورة ، ونزل تمامُ بعضها بالمدينة ، وأوّلُ ما نزل عليه من القرآن «(إِقرأْ باسمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ)» ، وأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم في ليلة السبت ، ثم في ليلة الأحد ، وخاطبه بالرسالة في يوم الاثنين ، وذلك بحِراء ، وهو أوّلُ موضعٍ نَزَلَ فيه القرآن ، وخاطبه

بأول السورة إلى قوله تعالى «(عَلَّمَ الإنسانَ مالم يَعْلَمْ)» ونزل تمامُها بعد ذلك ، وخُوطِب بفرض الصلوات ركعتين ركعتين ، ثم أُمر باتمامها بعد ذلك ، وأُقِرت ركعتين في السفر وزيدَت في صلاة الحَضَر .

تحديد المبعث : وكان مبعثـــه صلى الله عليه وسلم على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبرويز ، وذلك على رأس مئتي سنة من يوم التحالف بالرَّبَذَة (١) ، وذلك لستة آلاف ومئة وثلاث عشرة سنة من هبوط آدم عليه السلام ، وقد ذكر مثل هذا عن بعض حكماء العرب في صدر الإسلام ممن قرأ الكتب السالفة على حسب مااستخرج منها ، وفي ذلك يقول في أرجوزة طويلة :

في رأس عشرة مـــن السنين

إلى ثلاث حصلـــت يقــين

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق وهي منفى أبي ذر الغفاري وبها قبره .

والمـــائة المعـــدودة التمـــام
إلى ألـــوف ســـست نظـــام
أرســـله الله لنـــا رســـولا
وكان فينا هـــاديَ السبيـــلا

ذكر هجرته
وجوامع مما كان في أيامه صلى الله عليه وسلم
إلى وقت وفاته

تقدمة : أمر الله عز وجل رسولَه صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وفرض عليه الجهاد ، وذلك في سنة إحدى من سني الهجرة ، وهي السنة التي نزل فيها الأذان ، وكانت سنة أربع عشرة من المبعث .

وكان ابن عباس يقول : بُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكةَ ثلاثَ عشرة سنة ، وهاجر عشراً ، وقبض وهو ابنُ ثلاث وستين سنة.

تحديد الهجرة : وكانت سنة إحـــدى من الهجرة ، وهي سنة اثنتين وثلاثين من ملك كسرى أبرويز ، وسنة

تسع من ملك هرقل ملك النصرانية ، وسنة تسعمائة وثلاث وثلاثين من ملك الإسكندر المقدوني .

كيف فعل في الهجرة : قال المسعودي : وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط كيفية فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجه من مكة ودخوله الغار واستئجار علي له الإبل ، ونومه على فراشه ؛ فخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، ومعه أبوبكر وعامر بن فُهَيْرَةَ مولى أبي بكر وعبد الله بن أُرَيْقِطِ الديلي دليل لهم على الطريق ، ولم يكن مسلماً ، وكان مقامُ عليّ بن أبي طالب بعده بمكة ثلاثةَ أيام إلى أن أدّى ما أُمِر بأدائه ، ثم لحق بالرسول صلى الله عليه وسلم .

دخول المدينة : وكان دخوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، فأقام بها عشر سنين كواملَ ، وكان نزوله عليه الصلاة والسلام في حال موافاته المدينة بقُبَاء على سعد بن خَيْثمة وابتنى المسجد ، وكان مقامه بقُبَاء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وسار يوم الجمعة ارتفاعَ النهار ، وأتته الأنصار حيّاً حيّاً يسأله كل فريق منهم النزول

عليه ، ويتعلقون بزمام راحلته وهي تجذبه ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « خلّوا عنها فإنها مأمورة » حتى أدركته الصلاة في بني سالم ، فصلّى بهم يوم الجمعة ، وكانت تلك أول جمعة صليت في الإسلام ، وهذا موضع تنازع الفقهاء في العدد الذي تتم بهم صلاة الجمعة : فذهب الشافعي في آخرين معه إلى أن الجمعة لاتجب إقامتها حتى يكون عدد المصلين أربعين فصاعداً ، وأقلّ من ذلك لا يُجزىء، وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم ، وكانت صلاته في بطن الوادي المعروف بوادي رَانُونَاءَ إلى هذه الغاية ، ثم استوى على ناقته ، فسارت لاتُعَرِّج على شيء ، ولايردها رادّ ، حتى أتت إلى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام ، والموضع يومئذ لغلامين يتيمين من بني النَّجَّار ، فبركت ، ثم سارت فمضت غير بعيد ، ثم عادت إلى مبركها فبركت واطمأنت ، والنبي صلى الله عليه وسلم يراعي أحكام الباري فيه ، وتوفيقه له ، فنزل عنها ، وسار إلى منزل أبي أيوب الأنصاري (١) — وهو

(١) أبو أيوب الأنصاري الخزرجي (ت ٥٢ هـ) صحابي شهد أكثر غزوات النبي(ص) توفي في حصار القسطنطينية ودفن تحت أسوارها .

خالد بن كليب بن ثعلبة بن عوف بن سحيم بن مالك ابن النجار ـ . فأقام في منزله شهراً حتى ابتنى المسجد من بعد ابتياعه الموضع ، وأحدقت به الأنصار ، واشتد سرورهم به ، وأظهروا التأسُّفَ على مافاتهم من نُصْرته ، وفي ذلك يقول صِرْمَةُ بنُ أبي أنس أحد بني عدي ابن النجار (١) من قصيدة :

ثَوى في قريش بضعَ عشرةَ حِجةً
يُذَكِّر لايلقى صديقاً مواتيا
ويَعرِضُ في أهل المواسمِ نفسَه
فلم يرَ من يوفي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظْهَرَ الله دينَه
وأصبح مسروراً بطَيْبَةَ راضيا
وأصبح لايخشى من الناس واحداً
بعيداً ، ولايخشى من الناس دانيا

---

(١) هو أبوقيس صرمة بن قيس بن مالك النجاري الأوسي . شاعر جاهلي ، كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح . كان معظماً في قومه . أسلم عام الهجرة وتوفي سنة ٥ هـ .

بذلنا له الأموال في كل ملكنا
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا ربَّ غيره
وأن رسول الله للحق رائيا
نعادي الذي عادى من الناس كلّهم
جميعاً ، وإن كان الحبيبَ المصافيا

فافترض صيامُ شهرِ رمضانَ ، وحُوِّلت القبلة إلى الكعبة بعد قدومه بثمانيةَ عشرَ شهراً ، وقد قيل : إنه أنزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة .

علته ووفاته : ثم قبضه اللهُ يومَ الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة عشر ،في الساعة التي دخل فيها المدينة ، في منزل عائشة رضي الله عنها ، وكانت علته اثني عشر يوماً .

غزواته : وكانت غَزواتهُ صلى الله عليه وسلم بنفسه ستاً وعشرين غزوة ، ومنهم من رأى أنها سبعٌ وعشرون ، الأولون جعلوا مُنْصرَفَ النبي صلى الله عليه

وسلم من خيبر إلى وادي القرى غزوة واحدة ، والذين جعلوها سبعاً وعشرين جعلوا غزوةَ خيبرَ مفردةً ووادي القرى مُنصَرَفهُ إليها غزوةً أخرى غيرَ خيبر ؛ فوقع التنازعُ في أعداد الغزوات من هذا الوجه ، وذلك أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم حين فتح الله خيبرَ انصرف منها إلى وادي القرى من غير أن يأتي المدينة .

ترتيبها : وكان أولُ غزواته صلى الله عليه وسلم من المدينة بنفسه إلى وَدَّان (١) ، وهي المعروفة بغزوة الأبوَاءِ ، ثم غزوة بُوَاط (٢) إلى ناحية رَضْوَى ، ثم غزوة العشيرة من بطن يَنْبُع (٣) ، ثم غزوة بدر الأولى ، طلباً لكرز بن جابر (٤) ، ثم غزوة بدر الكبرى ، وهي بدر الثانية التي قُتل فيها صناديد قريش وأشرافها وأُسِر من أُسِر من زعمائهم ، ثم غزوة بني سُلَيم حتى بلغ

---

(١) ودان : قرية جامعة بين مكة والمدينة .

(٢) بواط : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى .

(٣) ينبع على مسافة ليلة من رضوى، وعلى سبع مراحل من المدينة .

(٤) كرز بن جابر : هو الذي أغار على سرح المدينة بعد غزوة العشيرة فخرج رسول الله (ص) في طلبه وفاته كرز ولم يدركه .

الموضع المعروف بالكُدْر ماء لبني سُلَيم ، ثم غزوة السويق (١) طلباً لأبي سفيان بن حرب فبلغ فيها الموضع المعروف بقَرقَرةَ الكُدْر ، ثم غزوة غَطَفان إلى نجد وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذي أمر ، ثم غزوة بُحران وهو موضع بالحجاز من فوق الفُرُع ، ثم غزوة أُحُد ، ثم غزوة حمراء الأسد (٢) ، ثم غزوة بني النَّضير ، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد ، ثم غزوة بدر الأخيرة ، ثم غزوة دُومة الجندل (٣) ، ثم غزوة المُرَيْسيع (٤) ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بني قُرَيظْة ، ثم غزوة بني لحيان بن هذيل بن مدركة ، ثم غزوة ذي قرد ، ثم غزوة بني المصطلق من خُزَاعــة ، ثم غزوة الحديبيــة لايريد قتالاً فصدَّه المشركون ، ثم غزوة خيبر ، ثم اعتمر عليه السلام عُمرةَ القضاء ، ثم فتح مكة ، ثم غزوة حُنَيْن ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تَبُوك .

(١) السويق : قال ياقوت : سويقة : جبل بين ينبع والمدينة .

(٢) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة .

(٣) دومة الجندل : هي بلدة الجوف بالسعودية .

(٤) المريسيع : اسم ماء في ناحية قديد .

قاتل منها في تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، وتبوك .

وكان كلامه صلى الله عليه وسلم أحسنَ المقال وأَوْجَزَه ؛ لقلة ألفاظه ، وكثرة معانيه .

من موجز كلامه : فمن ذلك قولُه صلى الله عليه وسلم ، عند عَرْضِهِ لنفسه على القبائل بمكة ومعه أبو بكر وعلي ، ووقوفه على بكر بن وائل ، وتقدُّم أبي بكر إليهم ، وما جرى بينه وبين دَغْفَل(١) من الكلام في النسب « البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق » وهذا مما سَبَقَ إليه من الكلام، ولم يَصْنُفْ إلى غيره من الأنام .

ثم إخباره عن الحرب وقوله « الحرب خُدعَة » فعلم بهذا اللفظ اليسير والكلام الوجيز أن آخر مكايد الحرب القتال بالسيف ؛ إذ كان بدؤها خُدعة ، كما قال عليه السلام ، وهذا يعرفه كل ذي رأي صحيح وذي رياسة وسياسة .

---

(١) دغفل بن حنظلة الذهلي الشيباني : نسابة ، أدرك النبي (ص) ولم يسمع منه شيئاً . وفد على معاوية فأعجبه علمه . قتله الأزارقة يوم دولاب بفارس سنة ٦٥ هـ .

ثم قال : « العائدُ في هِبَتِهِ كالعائد في قيْئه » زاجراً بهذا القول للواهب أن يسترجع شيئاً وهَبَه ؛ إذ كان القيء لايرجع فيه مَنْ قاءه .

وللناس في هذا المعنى كلامٌ كثير وخطب طويل ، وإنما الغرض فيما نذكر إيراد كلامه صلى الله عليه وسلم ، ووصف قوله الذي لم يتقدمه به أحد من الناس .

وقوله « احثُوا (١) في وجوه المدّاحينَ الترابَ » المراد من ذلك إذا كَذَبَ المادح ، ولم يُرد عليه السلام إذا شكر الإنسانُ غيره بما أولاه،أو وصفه بما هو فيه ، أو قال ماله أن يقول أن يُحثَى في وجهه التراب ، ولو كان هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ، إذاً مامدح أحَدٌ أحداً ؛ إذ كان هذا النهي عموماً للصادق والكاذب ، وأن يحثى في وجه الجميع التراب ، وهذا خلاف ماجاء به التنزيل حيث يقول عز وجل مخبراً عن نبيه يوسف وقوله للملك :((اجْعَلْني على خزائنِ الأرضِ إني حَفيظٌ عليمٌ)) فقد مدح نفسه ووصف حاله .

---

(١) الحثو والحثي : رمي التراب .

وجميع مايذكر في هذا الباب مستفيض في السير والأخبار، متعارف عند العلماء ، متداول بين الحكماء ، يتمثل به كثير من الناس ، وتستعمل العوام كثيراً منه في ألفاظها ، وتورده في أمثالها وخطاباتها ، والأكثر منهم لايعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من تكلم به ، وسبق إلى إيراده .

باب ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

موجز : قال المسعودي : ثم بايع الناسُ أبا بكر الصدّيقَ رضي الله تعالى عنه، في سقيفة بني ساعدة بن كعب ابن الخزرج الأنصاري ، في يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي أبوبكر ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، مستوفياً لعمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا اتفاق في سائر الروايات على ماذكرنا ، وكان مولد أبي بكر بعد الفيل بثلاث سنين ، وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، ودفن

إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأسهُ على كتف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كذلك قالت عائشة ، وقد قيل : إن أبابكر كانت خلافتهُ سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملاً من أيامهم ومقادير ولايتهم .

ذكر نسبه ، ولمع من أخباره وسيره

نسبه : كان اسمُ أبي بكر رضي الله عنه عبدَ الله ابن عثمان ، وهو أبو قُحافة بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تَيم بن مُرَّة بن كعب ، وفي مُرَّة يجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقبه عَتيق ؛ لبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه أنّه عتيقُ الله من النار ، فسُمّي يومئذ عتيقاً وهو الصحيح وقيل : إنما سُمّي عتيقاً (١) لعتق أمهاته ، واستُخلف وأبوه في الحياة .

صفاته : وكان أزهدَ الناس ، وأكثَرَهم تواضعاً

(١) العتيق : الكريم من كل شيء .

في أخلاقه ولباسه ومَطْعَمِه ومَشْرَبِه، وكان لُبْسه في خلافته الشَّملةَ (١) والعباءة .

تواضعه وزهده ونسكه : وقدم إليه زعماءُ العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحُللُ والحِبَرُ(٢) وبُرودُ الوَشْيِ المُثقَلِ بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ماعليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وماهو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذْهَبَهُ ونَزَعوا ماكان عليهم .

وفود العرب إليه : وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكَلاع ملك حِمْير، ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته ، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلل ، فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ماكان عليه وتزيّا بزيِّه، حتى إنه رؤي يوماً في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففزعت عشيرته لذلك وقالوا له : قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : أفأردتم مني أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية ، جباراً في الإسلام ،

---

(١) الشملة : كساء يشتمل به .

(٢) الحبرة : كعنبة : البرد اليماني – والجمع حبر وحبرات .

لا «الله»، لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد في هذه الدنيا ، وتواضعت الملوك ومَن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر .

* * *

بين أبي بكر وأبي سفيان : وبلغ أبا بكر رضي الله عنه عن أبي سفيان صخر بن حرب أمرٌ ، فأحضره وأقبل يَصيح عليه ، وأبوسفيان يتملَّقهُ ويَتذلَّلُ له ، وأقبل أبو قحافة فسمع صُياحَ أبي بكر ، فقال لقائده : على مَن يَصيحُ ابني ؟ فقال له : على أبي سفيان ، فدنا من أبي بكر وقال له : أعلى أبي سفيان تَرفَعُ صوتَك ياعتيقَ الله ؟ وقد كان بالأمس سَيِّدَ قريش في الجاهلية ، لقد تعَدَّيت طَورَكَ وجُزْتَ مقدارك ، فتبسَّمَ أبو بكر ومن حَضَره من المهاجرين والأنصار ، وقال له : ياأبتِ ، إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذلَّ به آخرين .

ولم يتقلد أحدٌ الخلافةَ وأبوه باقٍ غير أبي بكر .

نسب أمه : وأم أبي بكر سلمى ، وتُكنى : أم الخير ، بنتُ صخر بن عمرو بن عامر بن كعب بن سعد بن تَيم ابن مُرَّة . وارتدَّت العربُ بعد استخلافه بعشرة أيام

يومُ السقيفة : ولما بويع أبو بكر في يومِ السَّقيفة وجُدِّدت البَيْعةُ له يومَ الثلاثاء على العامة خرج عليٌّ فقال : أفسدت علينا أمورَنا ، ولم تستشر ، ولم تَرْعَ لنا حقاً ، فقال أبو بكر : بلى ، ولكني خشيتُ الفتنةَ ، وكان للمهاجرين والأنصار يومَ السَّقيفة خَطْبٌ طويل ، ومجاذبة في الإمامة ، وخرج سعدُ بنُ عبادة (١) ولم يُبايع ، فصار إلى الشام ، فقُتل هناك في سنة خمس عشرة ، وليس كتابنا هذا موضعاً لخبر مقتله ، ولم يبايعه أحد من بني هاشم حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها .

عِلَّتُهُ : وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سمَّته اليهود في شيء من الطعام ، وأكَلَ معه الحارثُ بن كَلَدَة (٢) فعمي ، وكانَ السُّمُّ لسنةٍ ، ومَرِضَ أبوبكر قبلَ وفاتهِ بخمسة عشر يوماً .

---

(١) سعد بن عبادة : (ت ١٥ هـ) صحابي أنصاري خزرجي من الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام . أحد النقباء في بيعة العقبة . طمع بالخلافة . توفي بحوران .

(٢) الحارث بن كلدة : (ت سنة ٥٠ هـ) ثقفي من الطائف أدرك الجاهلية . رحل إلى بلاد فارس وأخذ الطب عن أهلها .

كلام له : ولما احتُضِرَ قال : ما آسَى على شيء إلا على ثلاثٍ فعلتُها وَدِدْتُ أني تركتها ، وثلاثٍ تركتُها وَدِدْتُ أني فعلتُها ، وثلاثٍ وَدِدْتُ أني سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ؛ فأما الثلاث التي فعلتها ووددت أني تركتها ، فوددت أني لم أكن فتشت بيت فاطمة ، وذكر في ذلك كلاماً كثيراً ، ووددت أني لم أكن حرقت الفجاءة وأطلقته نجيحاً أو قتلته صريحاً (١) ، ووددت أني يومَ سقيفةِ بني ساعدة قَذَفْتُ الأمر في عنق أحد الرجلين فكان أميراً وكنت وزيراً . والثلاث التي تركتها وودت أني فعلتها : وددت أني يوم أتيت بالأشعث ابن قيس (٢) أسيراً ضربت عنقه ، فإنه قد خُيِّل لي أنه لايرى شرّاً إلا أعانه ، ووددت أني كنت قد قذفت

---

(١) هو إياس بن عبد الله بن عبد ياليل ، السلمي . من كبار أهل الردة . أعلن إسلامه أمام أبي بكر ، فأعطاه دابة وسلاحاً ، فخرج يأخذ أموال الناس ويقتل من خالفه . فأرسل اليه أبو بكر من جاء به وأمر بقتله حرقاً بالنار ، سنة ١١ هـ ٦٣٢ م .

(٢) الأشعث بن قيس الكندي : (ت نحو ٤١ هـ) من أمراء كندة وفد على النبي (ص) مع جماعة من قومه فأعلن إسلامه . شهد اليرموك والقادسية ، ونهاوند ، وصفين . توفي في الكوفة .

المشرق بعمرَ بن الخطاب ، فكنت قد بسطت يميني وشمالي في سبيل الله ، ووددت أني يوم جَهَّزْتُ جيشَ الرِدَّة ورجعتُ أقمت مكاني فإن سَلِم المسلمون سلموا ، وإن كان غيرَ ذلك كنتُ صدرَ اللقاء أو مَدَداً ، وكان أبوبكر قد بلغ مع الجيش إلى مرحلة من المدينة ، وهو الموضع المعروف بذي القصة . والثلاث التي وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، ووددت أني كنت سألته في مَنْ هذا الأمر ؛ فلا ينازع الأمرَ أهلُه ، ووددت أني سألته عن ميراث العمة وبنت الأخ فإن بنفسي منهما حاجة . ووددت أني سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب فنعطيهم إياه .

بناته : وخلف من البنات : أسماء ذات النطاقين ، وهي أم عبدالله بن الزبير ، وعمرت مئة سنة حتى عميت ، وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

بيعه علي إياه : وقد تنوزع في بيعة علي بن أبي طالب إياه ؛ فمنهم من قال : بايعه بعدَ موتِ فاطمة بعشرة أيام ، وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بنيف وسبعين يوماً ، وقيل : بثلاثة أشهر ، وقيل : ستة ، وقيل غير ذلك .

وصيته لأمراء جيشه : ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان(١) وهو مُشَيِّعٌ له ، فقال له : إذا قدمتَ على أهل عملك فعِدهُم الخير ومابعده ، وإذا وعدتَ فأنجز ، ولاتُكثرنَّ عليهم الكلامَ ، فإن بعضَه ينسي بعضاً ، وأصلحْ نفسَك يَصلحِ الناسُ لك ، وإذا قدمَتْ عليك رُسُلُ عدوك فأكرم منزلتهم ، فإنه أوّل خيرك إليهم ، وأقلل حَبْسَهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قِبَلك من محادثتهم ، وكن أنتَ الذي تلي كلامَهم ، ولا تجعل سِرّك مع علانيتك فيمزج عملك ، وإذا استشرت فاصدقِ الخبرَ تُصْدَقْ لك المشورةُ ، ولا تكتُمِ المستشارَ فتُؤتَى من قِبَلِ نفسك ، وإذا بلغَكَ عن العدو عَوْرةٌ فاكتمها حتى تُعاينَها ، واستر في عسكرك الأخبارَ وأذْكِ حَرسَك (٢) ، وأكثر مفاجآتهم في ليلك ونهارك ، وأصدقِ اللقاءَ إذا لقيت ، ولاتجبُن فيجبن مَنْ سواك .

---

(١) يزيد بن أبي سفيان : (ت ١٨ هـ) أبوخالد ، أمير صحابي من رجالات بني أمية شجاعة وحزماً . أسلم يوم فتح مكة ، ولي فلسطين لعمر ثم دمشق . توفي بالطاعون وهو على الولاية .

(٢) أذكى الحرب : أشعلها . وأذكى الحرس : أرسلهم وجعلهم على أهبة الاستعداد .

ذكر خلافة
عمر بن الخطاب رضي الله عنه

موجز : وبويع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خَرَجَ حاجّاً ، فأقام الحج في تلك السنة ، ثم أقبل حتى دخل المدينةَ ، فقتله فيروزُ أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين ؛ فكانت ولايتُهُ عَشْرَ سنين وستة أشهر وأربع ليال ، وقُتِل في صلاة الصبح ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، عند رجلي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن قبورهم مسطرة : أبو بكر إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمر إلى جنب أبي بكر ، وحج في خلافته تِسعَ حِجج ، وبعد أن قُتل صلى بالناس عبدُ الرحمن بن عَوْف(١) ، وجعلها

(١) عبد الرحمن بن عوف : (ت ٣٢ هـ) قرشي . زهري . من أكابر الصحابة . كان واسع الثراء . من المسلمين الأوائل . روي عنه حديث كثير . من العشرة المبشرة بالجنة .

شورى إلى ستة ، وهم : عليّ ، وعثمان ، وطلحة(١) ، والزبير (٢) ، وسعد (٣) ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصلى عليه صُهَيْبٌ الرومي (٤) ، وكانت الشورى بعده ثلاثة أيام .

ذكر نسبه ولمع من أخباره وسيره

نسبه : هو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى ابن قرط بن رياح بن عبدالله بن رزاح بن عدي بن كعب ، وفي كعب يجتمع نسبه مع نسب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم، وكانت سوداء ، وإنما سمي الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل ، وكنيته أبوحفص ، وهو أول من

---

(١) طلحة بن عبد الله : (ت ٣٦ هـ) صحابي. قرشي. تيمي. من العشرة المبشرة بالجنة. كان جواداً سمي بطلحة الفياض لسخائه. قتل في وقعة الجمل .

(٢) الزبير بن العوام : (ت ٣٦ هـ) قرشي. أسدي. ابن عمة النبي(ص) أحجم عن قتال علي في وقعة الجمل . اغتاله ابن جرموز وهو يصلي .

(٣) سعد بن أبي وقاص : سبقت ترجمته .

(٤) صهيب الرومي : صهيب بن سنان: (ت ٣٨ هـ) صحابي. من السابقين إلى الإسلام . كان من تجار مكة . ترك ماله وهاجر إلى المدينة ، شهد المشاهد كلها. توفي بالمدينة .

سُمِّي بأمير المؤمنين ، سماه عَدِيُّ بن حاتم (١) ، وقيل غيرُه ، والله أعلم ، وكان أوّلَ من سلّم عليه بها المغيرةُ ابنُ شعبة (٢) ، وأوّلَ من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبوموسى الأشعري (٣) وأبو موسى أول من كتب إليه : لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من أبي موسى الاشعري ، فلما قرىء ذلك على عمر قال: إني لعبد الله وإنّي لعمر وإني لأمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين .

صفاته : وكان متواضعاً ، خَشِنَ الملبس ، شديداً في ذاتِ الله ، واتبعه عمالُه في سائر أفعاله وشيَمه وأخلاقه ، كلٌ يتشبَّهُ به ممن غابَ أو حضرَ ، وكان يلبس الجُبّةَ الصوفَ المرقّعةَ بالأديم وغيره ، ويشتمل

---

(١) عدي بن حاتم الطائي : أبوطريف (ت ٦٨ هـ) أمير صحابي ، كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام.شهد حروب الردة وفتوح فارس . والجمل وصفين مع علي . عمر طويلا ومات بالكوفة .

(٢) المغيرة بن شعبة: (٢٠ ق هـ — ٥٠ هـ) أبوعبدالله . ثقفي . أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم . شهد الفتوحات وولي البصرة والكوفة لعمر ثم عثمان ومعاوية .

(٣) أبوموسى الأشعري : (ت ٤٤ هـ) صحابي . أحد الحكمين بعد صفين مع عمرو بن العاص . مات بالكوفة .

بالعباءة ، ويحمل القِربَةَ على كتفيه مع هيبة قد رُزِقَها ، وكان أكثرُ رِكابه الإبل ، وَرَحالُه مشدودةٌ بالليف ، وكذلك عُمَّالُه ، مع مافتح الله عليهم من البلاد. وأوسعَهُم من الأموال .

سعد بن أبي وقاص : ولما ورد كتابُ عُمَرَ على سعدِ بن أبي وقاص نزل زُبَالةَ (١) على حسب ماأمره به عمر ، ثم أتى سيراف (٢) ، وأتاه الناس من الشام وغيرها، ثم سار فنزل العُذَيب وهو على فم البر وطرف السواد مما يلي القادسية ، فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس وعليهم رستم ، والمسلمون يومئذ في ثمانية وثمانين ألفاً ، وقيل : إن من أُسْهِمَ له ثلاثون ألفاً والمشركون في ستين الفاً ، أمام جيوشهم الفيلة عليها الرجال ، وحرض الناسُ بعضُهم بعضاً ، وبرز أهل النجدات ، فأنشبُوا القتال ، وخرج اليهم أقرانُهم من صناديد فارس، فاعتوروا

(١) زبالة : قال ياقوت : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة وهي قرية عامرة بها أسواق .

(٢) سيراف : في إيران على الساحل الشرقي للخليج ، شمالي مضيق هرمز .

(٣) أسهم له : كان له سهم (نصيب) من الغنائم .

الضرب والطعن ، وخرج غالب بن عبدالله الأسدي (١) فيمن خرج ذلك اليوم وهو يقول :

قــد علمت واردة المســـــالــح
ذاتُ البنان واللبـّـان الواضح (٢)
أني سمــــام البطــل المشـــايــح
وفــارج الأمر المهم الفــــادح (٣)

فخرج إليه هرمز — وكان من ملوك الباب والأبواب ، وكان متوجاً — فأسره غالب أسراً ، فأتى به سعداً ، وكر راجعاً إلى المطاردة ، وحمي الوطيس ؛ وخرج عاصم بن عمرو (٤) وهو يقول :

---

(١) غالب بن عبد الله : قائد صحابي من الولاة شارك في غزوات النبي (ص) شهد القادسية، ولي خراسان لزياد بن أبيه . توفي نحو ٤٨ ه . قتل هرمز ملك الباب والأبواب .

(٢) المسالح : الثغور . واللبان : الصدر أو مابين الثديين .

(٣) المشايح : المقاتل الشديد .

(٤) عاصم بن عمرو : (ت بعد ١٥ ه) من بني تميم . أحد الشعراء الفرسان . له أخبار في فتوح العراق ، أبلى في القادسية البلاء الحسن .

قد عامت بيضاءُ صفراءُ اللَّبَبْ
مثلِ اللجينِ يتغشّاه الذهب
أني امرؤ لا من يُعنّيه السبب
مثلي على مثالك يغريه العتب

فبرز إليه عظيم من أساورتهم(١)، فجالا، ثم إن الفارسي ولّى ، واتبعه عاصم حتى لجأ إلى صفوفهم ، وعَمُّوه (٢)، وغاص عاصم بينهم حتى أيس الناس منه ، ثم خرج في مَجنَّبات القلب ، وقُدّامه بغلٌ عليه صناديقُ موكبية بآلة حسنة ، فأتى به سعد بن مالك. وعلى البغل رجل عليه مقُطّعاتُ ديباج وقلنسوة مُذَهَّبَة ، وإذا هو خباز الملك ، وفي الصناديق لطائف الملك من الأخبصة (٣) والعسل المعقود ، فلما نظر إليه سعد قال : انطلقوا إلى أهل موقفه ، إن الأمير قد نفلكم(٤) هذا فكلوه ففعلوا .

---

(١) الأساورة : جمع أسوار ، بفتح الهمزة وضمها : القائد عند الفرس .
(٢) عموه : تكاثروا عليه .
(٣) الأخبصة : ج خبيصة وخبيص يصنع من التمر والسمن أو من العسل والسمن .
(٤) نفلكم هذا : أعطاكم إياه من الغنيمة .

أيام القادسية : وكانت وقعــةُ القادسية في المحرم سنة أربع عشرة ، ومال من الفيلة سبعةَ عَشَرَ فيلاً على كل فيل عشرون رجلاً ، وعلى الفيلة تجافيفُ (١) الحديد والقرون مُجالَّاة بالديباج والحرير نحو بَجيلة ، وحولَ الفيلةُ الرجال والخيول ، فبعث سعد إلى بني أسد لما نظر إلى المراكب والفيول قد مالت إلى بَجيلة ، فأمرهم بمعونتهم ، ومالت عشرون فيلاً نحو القلب ، فخرج طلحة بن خويلد الأسدي (٢) مع فرسان بني أسد فقتل منهم خمسمائة رجل سوى مَن قَتَلَ من غيرهم فباشروا قتال الفيلة حتى أوقفوها ، واشتد الجلاد على بني أسد في هذا اليوم من سائر الناس ، وهذا اليوم يعرف بيوم أغواث .

فلما أصبح الناسُ في اليوم الثاني أشرفَ على الناس خيولُ المسلمين من الشام ، والأمداد سائرة قد غطت

---

(١) التجافيف : ج تجفاف آلة للحرب يلبسه الفرس أو الفيل أو الإنسان ليقيه في الحرب .

(٢) طلحة بن خويلد : (ت ٢١ هـ) ارتد بعد وفاة النبي (ص) ثم عاد إلى الإسلام . كان ذا بلاء في فتوح فارس .

بأسنتها الشمس، عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (١) في خمسة آلاف فارس من بني ربيعة ومضر . وألف من اليمن ، ومعهم القعقاع بن عمرو (٢) ، وذلك بعد فتح دمشق بشهر ، وقد كان عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بصرف أصحاب خالد بن الوليد إلى العراق ، ولم يذكر في كتابه خالداً ، فشحَّ أبو عبيدة بتخلية خالد عن يده ، وبعث برجاله وعليهم هاشم بن عتبة على ماذكرنا ، وقد كان في نفس عمرَ على خالدٍ أشياءُ من أيام أبي بكر في قصة مالك بن نويرة (٣) ، وغير ذلك ، وكان خالدُ بن الوليد خالَ عمر ، فتقدم القعقاع

---

(١) هاشم بن عتبة : (ت ٣٧ هـ) صحابي خطيب ، فارس . يلقب بالمرقال . شهد القادسية واليرموك . كان مع علي في حروبه . قتل في صفين .

(٢) القعقاع بن عمرو : (ت نحو ٤٠ هـ) قائد من الفرسان . شهد اليرموك والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند . قاتل في صفين مع علي .

(٣) مالك بن نويرة : (ت ١٢ هـ) أبو حنظلة التميمي . فارس شاعر . من أرداف الملوك في الجاهلية . أدرك الاسلام فأسلم ثم ارتد بعد وفاة الرسول (ص) . قتله ضرار بن الأزور بأمر من خالد بن الوليد .

في اوائل المَدَد ، فأيقن أهلُ القادسية بالنصر على فارس ، وزال عنهم مالحقهم بالأمس من القتل والجراح ، وبرز القعقاع حين وروده أمام الصف ونادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه عظيمٌ منهم ، فقال له القعقاع : من أنت ؟ قال : أنا بهمن بن جاذويه ، وهو المعروف بذي الحاجب ، فنادى القعقاع : يالثارات أبي عبيد وسليط (١) وأصحابهم يوم الجسر ! وقد كان ذو الحاجب مبارزاً لهم على ماذكرنا من قتله إياهم ، فجالا ، فقتله القعقاع ، ويقال إن القعقاع قتل في ذلك اليوم ثلاثين رجلاً في ثلاثين حملة ، كل حملة يقتل فيها رجلاً ، وكان آخر من قتل عظيماً من عظمائهم يقال له بزر جمهر ، ففيه يقول القعقاع :

حَبَوْتُــــهُ جيّــــاشةً بالنَفْس .
هَـــدّارةً مثلَ شُعـــاعِ الشمس
في يومِ أغـــواثَ فتيل الفُـــرْسِ
أنخسُ بالقـــوم أشـــدَّ نَخْس
حتى يفيض معشـــري ونفسي

---

(١) أبوعبيد الثقفي : (ت ١٣ ﻫ) أمره عمر على جيش المسلمين لمحاربة الفرس . قتل في وقعة الجسر .
وسليط بن قيس : بدري . شهد يوم الجسر مع أبي عبيد الثقفي ، وقتل معه .

وبارز في ذلك اليوم الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كلٌ واحد منها صاحبَهُ ، فقال أخو الأعور في ذلك :

لم أر يوماً كان أحلى وأمر
من يوم أغواثَ إذا افترّ الثّغرْ
من غيرِ ضحك كان أسوا وأبر

واعتل سعد فتخلّف في حصن العذيب ، وجاس في أعلاه يشرف على الناس ، وقد تواقف الفريقان جميعاً ، وأمسى الناس ينتمون . فلما سمع ذلك سعد قال لمن كان عنده في أعلى القصر : إن تم الناس على الانتماء فلا توقظوني فإنهم أقوياء على عدوهم ، وإن سكتوا فأيقظوني فإن ذلك شرّ ، واشتد القتال في الليل .

أبو محجن الثقفي : وكان أبو محجن الثقفي (١)

---

(١) أبومحجن الثقفي : عمرو بن حبيب (ت نحو ٣٠ هـ) شاعر من الأبطال . كان منهمكاً في شرب الخمر فجلده عمر ثم نفاه إلى جزيرة بالبحر ، فهرب ولحق بسعد في القادسية . توفي بجرجان . بعض شعره مجموع في ديوان صغير .

محبوساً في أسفل القصر ، فسمع انتماءَ الناس إلى آبائهم وعشائرهم ، ووَقْعَ الحديد وشدَّةَ البأس ، فتأسف على مايفوته من تلك المواقف ، فحبا حتى صَعِد إلى سعد يستشفعه ويستقيله ، ويسأله أن يُخَلِّيَ عنه ليخرجَ ، فزجره سعد وردَّه ، فانحدر راجعاً ، فنظر إلى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيباني (١) ، وقد كان سعد تزوجها بعده ، فقال : يابنتَ حفصة ، هل لك في خير ؟ فقالت : وما ذاك ؟ قال : تُخَلِّينَ عني وتُعيرينَني البلقاء (٢) ولله علي إن سلَّمني الله أن ارجع إليك حتى أضع رجلي في القيد ، فقالت : وما أنا وذلك ؟ فرجع يَرسُفُ في قيده وهو يقول :

كفى حزَناً أن تردي الخيلُ بالقنـا

وأُتركَ مشـــــدوداً علي وثاقيا

---

(١) المثنى بن حارثة الشيباني : (ت ١٤ هـ) صحابي فاتح من كبار القادة . غزا بلاد الفرس في أيام أبي بكر وأبلى في غزوه البلاء الحسن . جرح في وقعة « قس الناطف » ومات على إثرها .

(٢) البلقاء : فرس سعد بن أبي وقاص .

إذا قمت عَنَّاني الحديد فاغاقت
مصاريعُ من دوني تُصِمُّ المناديا
وقد كنت ذا مال كثيرٍ وثروةٍ
فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
فللّه عهدٌ لا أخيسُ بعهده
لئن فُرِّجت أن لا أزور الحوانيا(١)

فقالت سلمى : إني استخرتُ اللهَ ورضيتُ بعهدك ، فأطلقته ، وقالت : شأنَكَ وما أردت ، فاقتاد بلقاءَ سعد ، وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق ، فركبها ثم دب عليها ، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبّر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالاً كثيراً من فُتّاكهم ، ونكس آخرين ؛ والفريقان يرمقونه بأبصارهم ، وقد تنوزع في البلقاء ؛ فمنهم من قال : إنه ركبها عُرْياً ، ومنهم من قال : بل ركبها بسَرْجٍ ، ثم غاص في

(١) الحواني : حانات الخمرة .

المسلمين ، فخرج في ميسرتهم ، وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم ، وجعل يلعب برمحه وسلاحه ، لايبدو له فارس إلا هتكه ، فأوقفهم ، وهابته الرجال ، ثم رجع فغاص في قلب المسلمين ، ثم برز أمامهم ووقف بإزاء قلب المشركين ، ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة ، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه ، وحمل عن المسلمين الحرب ، فتعجب الناس منه ، وقالوا : من هذا الفارس الذي لم نَرَهُ في يومنا ؟ فقال بعضهم : هو ممن قدم علينا من إخواننا من الشام من أصحاب هاشم بن عتبة المرقال ، وقال بعضهم: إن كان الخضر عليه السلام يشهد الحرب فهذا هو الخضر قد مَنّ الله به علينا ،وهو علم نصرنا على عدونا ، وقال قائل منهم : لولا أن الملائكة لاتباشر الحروب لقلنا إنه مالك ، وأبومحجن كالليث الضِّرْغام . قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم ، ومن حضر من فرسان المسلمين مثل عمرو بن معد يكرب(١)

(١) عمرو بن معد يكرب : (ت نحو ٢٠ هـ) من بني زبيد من اليمن . شاعر من الفتاك وأصحاب النجدة ، أدرك الاسلا م فأسلم ، ثم ارتد بعد موت النبي (ص) ثم عاد . شهد القادسية ، وقتل في حصار نهاوند . شعره متفرق في كتب الأدب .

وطلحة بن خُويلد والقعقاع بن عمرو وهاشم بن عُتْبة المرقال وسائر فُتاك العرب وأبطالها ينظرون اليه ، وقد حاروا في أمره ، وجعل سعد يفكر ويقول وهو مُشْرِف على الناس من فوق القصر : والله لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبومحجن ،وهذه البَلْقاء ، فلما انتصف الليل تحاجز الناس ، وتراجعت الفرس على أعقابها ، وتراجع المسلمون إلى مواضعهم على بقيتهم ومصافهم ، وأقبل أبومحجن حتى دخل القصر من حيث خرج ولا يُعلم به ، وَرَدَّ البلقاء إلى مربطها وعاد في محبسه ووضع رجله في القيد ، ورفع عقيرته وهو يقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر
بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكرمهم دُرُوعاً سابغات
وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وليلة قادس لم يشعروا بي
ولم أُشعر بمخرجي الزحوفا

وأنّـا رِفـدهم في كل يـوم
فإن عتبوا فسل بهمُ عريفـا (١)

فإن أحبس فـذلكُـمُ بـلائي
وإن أترك أذيقهـم الحتـوفا (٢)

فقالت له سلمى : ياأبا محجن ، في أي شيء حبَسَك هذا الرجل ؟ تعني سعداً ، قال : والله ماحبسني بحرام أكلته ولاشربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني فأصف القهوة (٣) وتداخلني أريحية فألتذ بمدحي إياها ، فلذلك حبسني لأني قلت فيها :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمـة
تروّي عظامي بعد موتي عروقهـا

ولا تدفـنني بالفـلاة فـإنني
أخـاف إذا مامُتُّ أن لاأذوقهـا

---

(١) الرفد : العون . والعريف : العارف الخبير .
(٢) وإن أترك أذيقهم الحتوفا : الفعل أذيق حقه الجزم لأنه جواب الشرط . ويروى الشطر على النحو التالي : وإن أترك اجرعهم حتوفا .
(٣) يريد بالقهوة الخمرة .

وهي أبيات .

وقد كان بين سلمى وسعد كلام كثير أوجب غضبه عليها ، لذكرها المُثَنَّى عند مختلف القنا ، فأقامت مغاضبة له عشية أغواث وليلة الهَرير وليلة السواد ، حتى إذا أصبحت أتته فترضَّته وصالحته . ثم أخبرته خبرها مع أبي محجن ، فدعا به ، فأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله ، قال : لاجَرَمَ والله لاأجبت لساني إلى صفة قبيح أبداً .

يوم عَماس : وأصبح النـــاس في اليوم الثالث وهم على مصافِّهم ، وهو يومُ عَماس (١) ، وأصبحت الأعاجم على مواقفها ، وأصبح بين الفريقين كالرِّجلْة الحمراء — يعني الحرة — في عرض مابين الصفين ، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة مابين رثيثٍ (٢) وميت ، وقُتِل من الأعاجم مالايُحصى ، فقال سعد : أيها الناس ، من شاءَ غسلَ الشهيد الميت والرثيث ، ومن شاء فليدفِنْهم

(١) العماس : الحرب الشديدة . وعمس يومنا : اشتد وأظلم .

(٢) الرثيث : الجريح الذي به رمق .

بدمائهم ، وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم وجعلوهم وراء ظهورهم ، وكان النساء والصبيان يدفنون الشهيد ، ويحملون الرثيثَ إلى النساء . ويعالجونهم من كلومهم ، وكان بين موضع الوقعة مما يلي القادسية وبين حصن العُذَيب نخلة ، فإذا حُملَ الجريحُ وفيه تمييز وعقل ونظر إلى تلك النخلة — ولم يكن هنالك يومئذ نخلةٌ غيرها ، واليوم بها نخل كثير — قال لحامله : قد قَرُبت من السواد ، فأريحوني تحت ظِلِّ هذه النخلة ، فيُراحُ تَحتَها ساعةً ، فسُمع رجلٌ من الجرحى يقال له بُجير من طيىء ، وهو يجود بنفسه ويقول :

ألا ياسلمي يانخلةً بين قادس
وبين العُذيبِ ، لايجاورك النخلُ

وسُمعَ آخرُ من بني تيم الله — وقد أُريحَ تَحتها وحُشْوَته خارجة من جَوفهِ — وهو يقول :

أيا نخلةَ الجرعا ، ويانخلةَ العدا
سقتك الغوادي والغيوثُ الهواطلُ

وأُثخِن الأعورُ بنُ قطبة ، فحُمِل من المعركة ، فسأل حمَاله أن يُريحَه تحتها إذا بلغ إليها قال :

أيا نخلةً بـــين العُذيبِ فتامـــة
سقتك الغوادي الداجنـــاتُ من النخل

وأصبح الناسُ صبيحةَ يومِ القادسية ، وهي صبيحة ليلةِ الهرير (١) ، وهي تسمى ليلة القادسية من تلك الأيام ، والناسُ حيارى ولم يُغمضوا ليلتَهم كلَّها ، وحرّض رؤساءُ القبائلِ عشائرَهُم ، واشتد الجلادُ إلى أن جاء وقتُ الزوال ، فكان أوّلَ من زال حين قام قائمُ الظّهيرة الهرمزانُ والنيرمران ، فتأخرا ، وثبتا حيثُ انتهيا ، وانفرجَ القلبُ حين قام قائم الظهيرة ، وهبت ريحٌ عاصف فقطعت طيّارةَ رستم (٢) عن سريره ، فهوت في نهر العتيق (٣) والريحُ دَبور ، فمال الغبار عليهم ،

---

(١) الهرير : يقال : سمي يوم الهرير من هرير الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع .

(٢) الطيارة : أحسبها : المظلة . ورستم : قائد الفرس . والهرمزان والنيرمران : من أركانه .

(٣) نهر العتيق : بالعراق .

وانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم فعثروا به وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطيارة إلى بغال قد قدمت عليهم بمال يومئذ فهي واقفة فاستظل في ظل بغل منها وحمله ، وضرب هلالُ بن علقمة (١) الحملَ الذي رُستم في ظله فقطعَ حبالَهُ ، ووقع على رستم أحد العدلين ولايراه هلال ولايشعر به ، فأزال من ظهره فقارةً وضربهُ هلال ضربةً فنفحت مسكاً ، ومضى رستم إلى نحو نهر العتيق فرمى بنفسه فيه ، واقتحم هلال عليه فتناوله برجله ، ثم خرج به إلى الخندق وضربه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به يجره حتى رماه بين أرجل البغال ، وصعد السرير ونادى : قتلتُ رُستُمَ وربِّ الكعبة ، إليّ إليّ ، فطاف به الناس لايُحسُّون السريرَ ولايرونه ، وتنادوا ، وتجبّنت قلوب المشركين عندها وانهزموا وأخذهم السيف ، فمن غريق وقتيل ، وقد : كان ثلاثون ألفاً منهم قرَنوا أنفسهم بعضهم إلى بعض

(١) هلال بن علفة وليس علقمة : (ت ٣٨ هـ) من تيم الرباب . ومن زعماء الإباضية كان شجاعاً من أبطال زمنه . قتل رستم يوم القادسية . وقتل في ماسبذان مع مائتين من أصحابه من الخوارج .

بالسلاسل والحبال، وتحالفوا بالنُّور وبيوت النيران لايبرحون حتى يُقْتَحموا أو يُقتلوا ، فجثوا على الرُّكَب ، وقرع بين أيديهم قناديل النُّشاب ، فقتل القوم جميعاً .

وقد تُنوزع فيمن قتَل رُستُمَ : فذهب الأكثرُ إلى أن قاتِله هلالُ بنُ علقمةَ من تَيْمِ الرباب على ماقدمنا ، ومنهم من رأى أن قاتلَه رجلُ من بني أسد ، ولذلك يقول شاعرهم في ذلك اليوم — وهو عمرو بن شأس الأسدي (١) — من أبيات :

جلبنا الخيـــلَ من أكنـــافِ نِيـــقٍ
إلى كســرى فوافقهـــا رعالا (٢)
تركن بهم على الأقْسَام شَجْـــواً
وبالحقْوَيْنِ أيامـــاً طوالا (٣)

---

(١) عمرو بن شأس (ت نحو ٢٠ هـ) أبوعرار : شاعر جاهلي أدرك الإسلام فأسلم . عده الجمحي في الطبقة العاشرة . كان ذا قدر وشرف في قومه .

(٢) نيق العقاب : بين مكة والمدينة (ياقوت) ورعال ج رعلة : القطعة من الخيل .

(٣) الشجو : القهر والغلبة .

قتلنا رستماً وبنيه قسراً
تثير الخيلُ فوقهم الهيالا
تركنا منهمُ حيث التقينا
قياماً لايريدون ارتحالا

وأخذ ضرار بن الخطاب (١) في ذلك اليوم من فارس الراية العظمى المقدم ذكرُها أنها من جاود النمور المعروفة بدِرَفْش كاويان ، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر ، فعُوِّضَ منها بثلاثين ألفاً ، وكانت قيمتُها ألفي ألف ومائتي ألف ،وقتل في ذلك اليوم حول هذه الرواية ـــ غير ماذكرنا من المقرنين وغيرهم ـــ عشرةُ آلاف .

تحديد تاريخ القادسية : وقد تنازع الناس ممن سلف وخلف في عام القادسية والعذيب ، فذهب كثير من الناس إلى أن ذلك كان في سنة ست عشرة ، وهذا قول الواقدي عن آخرين من الناس ، ومنهم من ذهب إلى أن ذلك كان

---

(١) ضرار بن الخطاب: فارس قريش في الجاهلية وشاعرها. أدرك الإسلام فأسلم، وشهد القادسية، وفتوح الشام، واستشهد في وقعة أجنادين سنة ١٣ هـ.

في سنة خمس عشرة ، ومنهم من رأى أنه كان في سنة أربعَ عشرة ، والذي قطع عليه محمد بن إسحاق أنها كانت في سنة خمس عشرة ، وقال : في سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطاب بالقيام في شهر رمضان لصلاة التراويح . والذين ذهبوا إلى أن وقعة القادسية كانت في سنة أربع عشرة احتجوا بهذه الرواية ، وكتب عمر إلى الأمصار بإقامة صلاة التراويح ، وذهب كثير من الناس منهم المدائني وغيره أن عمر أنفذَ عُتْبَةَ بنَ غَزْوانَ (١) في سنة أربع عشرة إلى البصرة فنزلها ومصَّرَها ، وذهبَ كثير من الناس أنها مُصِّرت في ربيع سنة ست عشرة ، وأن عتبة ابن غَزْوَان إنما خرج إليها من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقاص من حرب جَلُولاء وتكريت ، وأن عتبة قدم البصرة وهي يومئذ تدعى أرض الهند ، وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخربية ، ومصَّر سعد بن أبي وقاص الكوفة في سنة خمس عشرة ، ودلهم على موضعها ابن

(١) صحابي قديم الإسلام شهد بدراً والقادسية . وكان طويلا جميلا من الرماة المعدودين . مات سنة ١٧ هـ .

نفيلة الغساني(١) ، وقال لسعد: أدلك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفلاة ، فدله على موضع الكوفة اليوم .

أبولؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة : قال المسعودي : وكان عمر لايترك أحداً من العَجَمِ يدخلُ المدينة ، فكتب إليه المغيرة بن شعبة : إنَّ عندي غُلاماً نقاشاً نَجاراً حدّاداً فيه منافعُ لأهل المدينة ، فإن رأيت أن تأذنَ لي في الإرسال به فعلت ، فأذِن له ، وقد كان المغيرة جعلَ عليه كلَّ يوم درهمين ، وكان يدعى أَبا لؤلؤة ، وكان مَجوسياً من أهل نَهاوَنْد (٢) ، فلبث ماشاء الله ، ثم أتى عمرَ يشكو إليه ثِقَلَ خراجه، فقال له عمر : وما تُحسن من الأعمال ؟ قال : نقّاش نجّار حداد ، فقال له عمر : ماخراجُك بكثير في كنه ماتحسن من الأعمال ، فمضى عنه وهو يتذمر ، قال : ثم مر بعمر يوماً آخر وهو قاعد ، فقال له عمر : ألم أحدَّث عنك

(١) أحسبه عبدالمسيح بن بقيلة الغساني وليس نفيلة. وقد سبقت ترجمته.

(٢) نهاوند : مدينة عظيمة بإقليم الجبال غربي إيران ، بين الأهواز وهمدان .

أذلك تقول : لوشئت أن أصنعَ رحاً تطحن بالريح لفعلت ، فقال أبولؤلؤة: لأصنعن لك رحاً يتحدث الناس بها؛ ومضى أبولؤلؤة ، فقال عمر : أما العلج فقد توعدني آنفاً ، فلما أزمع بالذي أوعد به أخذ خَنْجَراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر في زاوية من زوايا المسجد في الغَلَس(١) ، وكان عمر يخرج في السَحَر فيوقظ الناس للصلاة ، فمر به ، فثار إليه فطعنه ثلاثَ طَعَنات ،إحداهن تحت سُرَّته وهي التي قتلته ، وطعن اثني عشر رجلاً من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقي ستة ، ونحر نفسه بخَنجره فمات ، فدخل عليه ابنه عبدالله بن عمر وهو يجود بنَفْسه ، فقال له : ياأميرَ المؤمنين استخلفْ على أمة محمد ؛ فإنه لوجاءك راعي إبلك أو غنمك وترك إبلَه أو غنَمهُ لاراعي لها ، لَلُمتَه وقلت له : كيف تركت أمانتَك ضائعةً ؟ فكيف ياأميرَ المؤمنين بأمة محمد ؟ فاستخلفْ عليهم ، فقال : إن أستخلف عليهم فقد استخلف عليهم أبوبكر ، وإن أتركهم فقد تركهم

---

(١) الغلس : ظلمة اخر الليل .

رسول الله صلى الله عايه وسلم ، فيئس منه عبدالله حين سمع ذلك منه .

وكان إسلامُ عمرَ قبل الهجرة بأربع سنين، وكان يَخضِبُ بالحنّاء والكَتَم (١) .

أولاد عمر : وكان له من الولد : عبد الله ، وحفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعاصم ، وعبدالله ، وزيد ، من أم ، وعبد الرحمن ، وفاطمة ، وبنات أخر ، وعبد الرحمن الأصغر — وهو المحدود في الشراب ، وهو المعروف بأبي شحمة — من أم .

عمر وابن عباس : وذكَرَ عبدُ الله بن عباس أنّ عمرَ أرسل إليه فقال : يا بن عباس ، إنّ عاملَ حِمْصَ هلَكَ ، وكان من أهلِ الخير ، وأهلُ الخير قليل ، وقد رجوتُ أن تكونَ منهم ، وفي نفسي منك شيءٌ لم أرَهُ منك ، وأعياني ذلك ، فما رأيُكَ في العمل ؟ قال : لن أعملَ حتى تخبرَني بالذي في نفسك ، قال :

---

(١) الكتم : نبت فيه حمرة يختضب به .

وما تريدُ إلى ذلك ؟ قال : أريدُه ، فإن كان شيء أخاف منه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت ، وإن كنت بريئاً من مثله علمت أني لست من اهله ، فقبلتُ عمَلَكَ هنالك ، فإني قلّما رأيتك طلبتَ شيئاً إلا عاجلتَه ، فقال : يا بن عباس ، إني خشيتُ أن يأتيَ عليَّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول : هلُمَّ الينا ، ولا هلم اليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استعملَ الناسَ وتَركَكُم ، قال : والله قد رأيت من ذلك ، فلِمَ تراه فعل ذلك ؟ قال : والله ماأدري أضَنَّ بكم عن العمل فأهلُ ذلك أنتم ، أمْ خشيَ أن تُبايَعوا بمنزلتكم منه فيقعَ العتابُ ، ولابدَّ من عتاب ، وقد فرغت لك من ذلك ، فما رأيك ؟ قال : قلتُ : أرى أن لا أعملَ لك، قال : ولم ؟ قلت : إنْ عملتُ لك وفي نفسك مافيها لم أبرح قَذَىً في عينك ، قال : فأشِر عليَّ ، قلت : إني أرى أن تستعمل صحيحاً منك ، صحيحاً لك .

عمر يسأل عمرو بن معد يكرب عن قبائل من العرب :

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى (١) قال : لما قدم عمرو بن معد يكرب من الكوفة على عُمَرَ سأله عن سعد بن أبي وقّاص ، فقال فيه ماقال من الثناء ، ثم سأله عن السلاح ، فأخبره بما علم ، ثم سأله عن قومه ، فقال له : أخبرني عن قومك مَذْحِج ودَعْ طيئاً قال : سلني عن أيِّهم شئت ، قال : أخبرني عن عُلَةَ بن جَلْد (٢) ، قال : هم فرسان أغراضنا ، وشُفَاة أمراضنا ، وهم أعتقُنا ، وأنجبُنا ، وأسرعُنا طلباً ؛ وأقلُّنا هرباً ، وهم أهلُ السلاح والسَّماح والرِّماح ، قال عمر : فما أبقيت لسعد العشيرة ؟ قال : هم أعظمُنا خَميساً ، وأسخانا نفوساً ، وخيرُنا رئيساً ، قال : فما أبقيت لمراد ؟ قال: أوسعُنا داراً ، وخيرنا جاراً ، وأبعدُنا آثاراً ، وهم الأتقياءُ البررة ، والساعون الفَخَرة ،

---

(١) أبومخنف لوط : (ت ١٥٧ هـ) من أقدم مؤرخي العرب ومحدثيهم . راوية عالم بالسير والأخبار . له رسائل عن حوادث القرن الأول الهجري أفاد منها الطبري في تاريخه .

(٢) علة بن جلد : من كهلان من القحطانية : جد جاهلي . ونسله بطون كثيرة وقبائل منها « النخع » و « صداء » وفروعهما .

قال : فأخبرني عن بني زَبِيد ، قال : أنا عليهم ضنين ، لوسألت الناس عنهم لقالوا هم الرأسُ والناسُ الأذنابُ ، قال : فأخبرني عن طَيِّئ ، قال : خصوا بالجود ، وهم جَمرةُ العرب ، قال : فما تقول في عبس ؟ قال : حجم عظيم، وزَبْن(١) أثير ، قال : أخبرني عن حِمْيَر ، قال : رَعَوْا العفوَ(٢) ، وشربوا الصَّفْوَ ، قال : فأخبرني عن كِنْدَة ، قال : ساسوا العباد ، وتمكنوا من البلاد ، قال : فأخبرني عن هَمْدَان ، قال : أبناءُ الليل وأهل النَّيْل ، يمنعون الجارَ ، ويُوفون الذِّمار ويطلبون الثار ، قال : فأخبرني عن الأزد ، قال : هم أقدمنا ميلاداً ، وأوسعنا بلاداً ، قال : فأخبرني عن الحارث بن كعب ، قال : هم الحَسَكَةُ المَسَكَةُ (٣) ، تلقى المنايا على أطراف رماحهم ، قال : فأخبرني عن لخم ، قال : آخرُنا مُلْكاً ، وأوَّلُنا هُلْكاً ، قال : فأخبرني عن جُذَام ، قال : أولئك كالعجوز الغبراء ، وهم أهل مَقَال وفعَال،

---

(١) الزبن : الدفع .

(٢) العفو : خيار الشيء وأجوده .

(٣) حسكة مسكة : شجعان .

قال : فأخبرني عن غسان ، قال : أربابٌ في الجاهلية نجومٌ في الإسلام ، قال : فأخبرني عن الأوس والخزرج ، قال : هم الأنصار ، هم أعزُّنا داراً ، وأمنعُنا ذِماراً ، وقد كفانا اللهُ مدحَهم إذ يقول «(والذين تَبوَّؤوا الدارَ والإيمانَ — الآية)» قال : فأخبرني عن خُزَاعةَ ، قال : أولئك مع كنانة لنا نَسبهُم ، وبهم نصرُنا ، قال : فأيُّ العرب أبغض إليك أن تلقاه ، قال : أما من قومي فَوَادعةِ من هَمْدَان ، وغُطَيف من مراد ، وبَلْحَرِث من مَذْحِج ، وأما من معد فعَدِيٌّ من فَزَارة ، ومُرَّة من ذبيان ، وكلاب من عامر ، وشيبان من بكر بن وائل ، ثم لو جُلْتُ بفرسي على مياه معد ماخفت هَيْجَ (١) أحد مالم يَلْقني حُرَّاها وعبْداها ، قال : ومَنْ حُرَّاها ومَنْ عبداها ؟ قال : أما حُرَّاها فعامر بن الطُّفَيل (٢) وعُيَيْنة بن

---

(١) الهيج : الغضب .

(٢) عامر بن الطفيل : (ت نحو ٢٤ هـ) من شعراء الجاهلية ومشاهير فرسانها . وفد على النبي (ص) ولم يسلم . له ديوان في الفخر والحماسة جمعه أبوبكر الأنباري .

الحارث ابن شهاب التميمي (١) ، وأما عبداها فعنترةُ العبسي (٢) وسُلَيك المناقب (٣) .

ويسأله عن الحرب : ثم سأله عن الحرب فقال : سألتَ عنها خبيراً ، هي والله ياأمير المؤمنين مُرَّةُ المذاق ، إذا شَمَرت عن ساق ، من صَبَر فيها ظَفِر ، ومن ضَعُف فيها هالك ، ولقد أحسن واصفُها فأجاد :

الحرب أولَ ماتكـــون فتيَّـــةٌ
تبدو بزينتهـــا لكـــل جهـــول

---

(١) هو عتيبة بن الحارث ، وليس عيينة : فارس تميم في الجاهلية . يضرب المثل به في الفروسية . كان يلقب « سم الفرسان » قتله ذؤاب ابن ربيعة بن عبيد (. . .) .

(٢) عنترة بن شداد : (ت نحو ٦٠٠ م) من مشاهير شعراء الجاهلية وفرسانها . ومن أصحاب المعلقات . شهد حرب داحس والغبراء . له ديوان . ونسجت حوله قصة خيالية يعدها الغربيون من بدائع آداب العرب .

(٣) هو السليك بن السلكة : (ت نحو ١٧ ق هـ — ٦٠٥ م) فاتك ، عداء ، شاعر ، أسود ، من شياطين العرب . كان من أدل الناس بالأرض وأعرفهم بمسالكها . قتله أسد بن مدرك الخثعمي .

حتى إذا حميت وشَبَّ ضِرامُها

عادت عجوزاً غيرَ ذاتِ حايل

شمطاء جزّتْ رأسها وتنكرت

مكروهة للثم والتقبيل

ثم سأله عن السلاح ، فأخبره بما عرف حتى بلغ السيف ، قال : هنالك قارعتْكَ أمُّك عن ثُكلِها ، فعلاه عمرُ بالدِّرة ، وقال : بل أُمُّكَ قارَعتْك عن ثُكلها (١) ، والله إني لأَهُمُّ أن أقطعَ لسانَك ، فقال عمرو : الحُمَّى أضرعتني لك اليوم ، وخرج من عنده وهو يقول :

أتوعدني كأنك ذو رُعَيْن

بأنعم عيشة أو ذو نُواسِ

فكم قد كان قبلك من مَلِيك

عظيمٍ ظاهرِ الجبروتِ قاس

---

(١) المقارعة : أن تأخذ الناقة الصعبة فتربضها للفحل ليبسرها .

فأصبح أهلُه بادوا ، وأمسى
يُنَقَّلُ من أناس في أناس

فلا يغررك مُلْكُكُ ، كلُّ مُلْكٍ
يصير مذلة بعد الشماس

قال : فاعتذر عمر إليه ، وقال : مافعلت مافعلته إلا لتعلم أن الاسلام أفضل وأعز من الجاهلية ، وفضله على الوفد .

قال المسعودي رحمه الله تعالى : ولعمرَ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أخبار كثيرة في أسفاره في الجاهلية إلى الشام والعراق مع كثير من مُلوك العرب والعجم ، وسِيَرٌ في الإسلام ، وأخبار وسياسات حسان ، وما كان في أيامه من الكوائن والأحداث وفتوح مصر والشام والعراق وغيرها من الأمصار ، قد أتينا على مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً مما لم نذكره فيما سلف من كتبنا ، وبالله التوفيق .

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه

موجز : بويع عثمانُ يومَ الجمعة غُرَّةَ المحرم لليلةٍ بقيت من ذي الحجة سنة ثلاثٍ وعشرين وقتل لاثنتي عشرةَ ليلة مضت من ذي الحجة سنةَ خمسٍ وثلاثين ، وقيل غيرُ ذلك مما سنورده بعد هذا الموضع إلا أنه في ذي الحجة ؛ فجميع ماولي اثنتا عشرةَ سنةً إلا ثمانية أيام، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، ودُفِنَ بالمدينة بموضعٍ يُعَرفُ بحش كوكب وكانت خلافته رضي الله تعالى عنه اثنتي عشرةَ سنة إلا ثمانية أيام .

ذكر نسبه ، ولمع من أخباره وسيره

نسبه وأولاده : هو عثمانُ بنُ عفانَ بنِ أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويُكَنَّى بأبي عبدالله وأبي عمرو ، والأغلبُ منها أبوعبدالله ، وأمه أروى بنت كريز بن جابر بن حبيب بن عبد شمس ، وكان له من الولد : عبدُ الله الأكبر ، وعبدُ الله الأصغر ، أمُّهما رُقَيَّةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَبانُ ، وخالدُ ، وسعيدُ ، والوليدُ ، والمغيرةُ ، وعبدُ الملك ،

وأمُ أبان ، وأمُ سعيد ، وأم عمرو ، وعائشة ، وكان عبدالله الأكبر يلقب بالمطرف لجماله وحسنه ، وكان كثيرَ التزوّج ، كثير الطلاق ، وكان أبانُ أبرَصَ احوَلَ ، قد حملَ عنه أصحابُ الحديث عِدةً من السّنَن ، وولي لبني مروان مكةَ وغيرها ، وكان سعيد أحولَ بخيلاً ، وقُتل في زمن معاوية. وكان الوليدُ صاحبَ شراب وفُتوّةٍ ومُجونٍ ، وقُتل أبوه وهو مخلَّقُ الوجه (١) سكران عليه مُصَبَّغات (٢) واسعة ، وبلغ عبدالله الأصغر من السن ستاً وسبعين عاماً ، فنقره ديكٌ في عينه ، فكان ذلك سبب موته ، وعبدالملك مات صغيراً ولاعَقِبَ له .

صفاته : وكان عثمان في نهايةِ الجودِ والكرمِ والسَّماحة والبذل في القريب والبعيد ، فسلكَ عُمّالُه وكثيرٌ من أهل عصره طريقته ، وتأسَّوْا به في فعاله ، وبنى دارَه في المدينة ، وشَيَّدها بالحجرِ والكِلْسِ ،

---

(١) مخلق الوجه : الخلوق : ضرب من الطيب . والمخلق : المطلي با لطيب .

(٢) المصبغات : ضرب من الثياب المصبوغة .

وجعل أبوابَها من السّاج والعَرْعَرِ ، واقتنى أموالاً وجِناناً وعُيوناً بالمدينة .

ثروته : وذكر عبدُ الله بن عُتبةَ أنّ عثمانَ يومَ قُتِل كان له عند خازنه من المال خمسونَ ومائةُ الفِ دينارٍ والفُ الفِ درهم ، وقيمةُ ضياعه بوادي القُرَى وحُنَيْن وغيرهما مائةُ الفِ دينار ، وخلّف خَيْلاً كثيراً وإبلاً .

ثروة الزبير بن العوام : وفي أيّامِ عثمانَ اقتنى جماعةٌ من الصحابة الضِّياعَ والدورَ : منهم الزبيرُ بن العَوّام ، بنى دارَه بالبصرة ، وهي المعروفةُ في هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — تنزلها التُجّار وأربابُ الأموال واصحابُ الجهاز من البحريين وغيرهم ، وابتنى أيضاً دُوراً بمصرَ والكوفة والإسكندرية ، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلومٌ غير مجهول إلى هذه الغاية .

وبلغ مالُ الزبير بعد وفاته خمسين الفِ دينار ، وخلّفَ الزبيرُ الفَ فرس ، والفَ عبدٍ وأمة ، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار .

ثروة طلحة بن عبيد الله : وكذلك طلحةَ بن عُبيدالله التيمي : ابتنى دارَهُ بالكوفةِ المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكناسة بدار الطّلحيين ، وكان غلّتهُ من العراق كلّ يوم الفَ دينار ، وقيل أكثرُ من ذلك ، وبناحية الشّراة أكثر مما ذكرنا ، وشيّد دارَهُ بالمدينة وبناها بالآجر والجِص والسّاج .

ثروة عبد الرحمن بن عوف : وكذلك عبدُ الرحمن ابنُ عوفٍ الزهري ، ابتنى دارَه ووسّعها ، وكان على مَربطِهِ مائةُ فرس ، وله الفُ بعيرٍ ، وعَشَرةُ آلاف شاةٍ من الغنم ، وبلغ بعد وفاته رُبُعُ ثمنِ مالِهِ اربعةً وثمانين الفاً .

وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه ، فيمن تملك من الاموال في أيامه ، ولم يكن مثلُ ذلك في عصرِ عُمَرَ ابنِ الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة .

وحج عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً ، وقال لولده عبدالله : لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا .

عمال عثمان : وقَدِمَ على عثمانَ عَمُّهُ الحَكَمُ ابنُ أبي العاص وابنه مروانُ وغيرهما من بني أمية — والحكَمُ هو طريدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غرَّبه عن المدينة ، ونفاه عن جِوارِه — وكان عمالهُ جماعةً منهم الوليدُ بن عُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط (١) على الكوفة ، وهو ممن أخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار ، وعبدُ الله بن أبي سَرْح (٢) على مصر ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيان على الشام ، وعبدُ الله بن عامر(٣)

---

(١) الوليد بن عقبة : (ت نحو ٦١ هـ) أبو وهب الأموي القرشي : وال من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم ، وهو أخو عثمان لأمه . أسلم يوم فتح مكة . تحول بعد قتل عثمان إلى الجزيرة ومات بالرقة .

(٢) عبدالله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري (ت ٣٧ هـ) فاتح إفريقية . وفارس بني عامر من أبطال الصحابة ، أسلم قبل فتح مكة ، شارك في فتح مصر مع عمرو بن العاص . قائد معركة ذات الصواري مات بعسقلان .

(٣) عبد الله بن عامر بن كريز (٤ — ٥٩ هـ) أموي فاتح ولد بمكة ولي البصرة لعثمان فوجه جيشاً لفتح بلدان المشرق فتم له فتح العديد منها مثل هراة وآمل وبست وكابل . شهد الجمل ولم يشهد صفين مات بمكة .

على البصرة ، وصَرَفَ عن الكوفة الوليدَ بنَ عُقبة ، وولاها سعيدَ بنَ العاص (١) .

الوليد بن عقبة : وكان السَّببُ في صَرْفِ الوليدِ ابنِ عُقْبةَ وولايةِ سعيد — على ماروُي — أنَّ الوليد ابنَ عُقبةَ كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله ، فتقدم إلى المحراب في صَلاة الصُّبح ، فصلى بهم أربعاً ، وقال : أتريدون ان أزيدَكم ؟ وقيل : إنه قال في سجوده وقد أطال : إشربْ واسقني . فقال له بعضُ من كان خلفَه في الصف الاول: ماتَزيدُ لا زادك اللهُ من الخير ، والله لاأعْجَبُ إلا ممن بعثك الينا والياً وعاينا أميراً ، وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفي .

وخَطَبَ الناسَ الوليدُ فحَصَبهُ الناسُ بحصباء المسجد ، فدخل قَصْرَهُ يترنَّحُ ، ويتمثلُ بأبيات لتأبط شَرّاً :

---

(١) سعيد بن العاص (ت ٥٩ ﻫ) صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين. ولاه عثمان الكوفة ثم المدينة ، قاد جيوش الفتح في طبرستان وجرجان . عتزل الجمل وصفين . ولي المدينة لمعاوية ومات بالعقيق .

ولست بعيداً عن مُدامٍ وقيْنة

ولا بصفا صالد عن الخير معزل

ولكنني أروي من الخمر هامتي

وأمشي الملا بالساحب المتسلسل

وفي ذلك يقول الحطيئة (١) :

شَهدَ الحطيئةُ يومَ يَلقى ربَّه

أنَّ الوليدَ احقُّ بالعُذْرِ

نادى وقد تَمَّتْ صلاتُهُمُ

أأزيدُكم ؟ ! ثمِلاً وما يَدري

ليزيدهم أُخرى ، ولو قبلوا

لَقرنْتَ بين الشفْعِ والوتْرِ

(١) الحطيئة : (ت نحو ٥٩ هـ) هو جرول بن أوس العبسي . شاعر مخضرم ، أسلم في أواخر حياة الرسول (ص) ارتد في خلافة أبي بكر وكان شاعر المرتدين ثم رجع إلى الاسلام ، امتاز بالهجاء والتهكم . له ديوان .

حَبَســـوا عنانَكَ في الصَّـــلاةِ ، ولو

خَلَّــوْا عِنــانَكَ لم تزل تجري

وأشاعوا بالكوفة فعالَهُ ، وظهرَ فسقهُ ومداومته شُرْبَ الخمر ، فهجم عليه جماعةٌ من المسجد منهم أبوزينب ابن عوف الأزدي وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما ، فوجدوه سكرانَ مضطجعاً على سريره لايَعقلُ ، فأيقظوه من رَقْدته ، فلم يستيقظ ، ثم تَقايأَ عليهم ماشرب من الخمر ، فانتزعوا خاتمهُ منْ يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة ، فَأَتَوا عثمانَ بن عفان ، فشهدوا عنده على الوليدِ أنَّهُ شَرِبَ الخمرَ ، فقال عثمان : وما يُدريكما أنه شَرِبَ خمراً ؟ فقالا : هي الخَمرُ التي كنا نَشربُها في الجاهلية ، وأخرجا خاتَمهُ فدفعاه إليه ، فزجرَهما ودفع في صُدورهما ، وقال : تنحيا عني ، فَخَرَجا من عنده وأتيا عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه واخبراه بالقصة ، فأتى عثمانَ وهو يقول : دفعتَ الشهودَ ، وأبطلتَ الحدودَ . فقال له عثمان : فما تَرى ؟ قال : أرى ان تَبعثَ إلى صاحبك فتُحضرَه فإنْ أقاما الشهادةَ عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحُجَّةٍ أقمتَ عليه الحدَّ ،

فلما حضر الوليدُ دعاهما عثمانُ فأقاما الشهادةَ عليه ولم يُدْلِ بحُجَّةٍ ، فألقى عثمانُ السوطَ إلى عليٍّ ، فقال علي لإبنه الحسن : قم يابُني فأقِمْ عليه ماأوجبَ اللهُ عليه ، فقال : يكفينيه بعضُ من ترى ، فلما نَظَرَ إلى امتناع الجماعةِ عن إقامة الحدِّ عليه ؛ تَوَقّياً لغضبِ عثمانَ لقرابته منه ، أخذ عليٌّ السوطَ ودنا منه ، فلما أقبل نحوه سَبَّهُ الوليدُ ، وقال : ياصاحبَ مكس (١) ، فقال عقيلُ بنُ أبي طالبٍ (٢) وكان ممّن حَضَر : انك لتتكلم يابن أبي مُعَيْط كأنك لاتدري من أنت ، وأنت عِلْجٌ من أهل صَفُّورِيَّةَ — وهي قريةٌ بين عكاءَ واللّجون ، من أعمال الأردن ، من بلادِ طَبريّةَ ، كان ذُكرَ أنَّ اباه كان يهودياً منها — فأقبل الوليدُ يرُوغ من عليٍّ ، فاجتذبه عليٌّ فضربَ به الأرضَ ، وعلاه بالسوط ،

---

(١) المكس : الضريبة التي تؤخذ على البضائع . وصاحب المكس : جابي الضريبة .

(٢) عقيل بن أبي طالب : (ت ٦٠ هـ) أخو علي بن أبي طالب لأبيه ، صحابي من فصحاء قريش والعارفين بأيامها ومآثرها وأنسابها . فارق أخاه علياً في خلافته . عمي في أواخر أيامه توفي في خلافة معاوية .

فقال عثمان : ليس لكَ ان تفعلَ به هذا ، قال : بل وشرّاً من هذا اذا فسقَ ومنعَ حق الله تعالى ان يؤخذَ منه .

بدءُ الطعنِ على عثمانَ وسببهُ : وفي سنة خمسٍ وثلاثين كثُرَ الطعنُ على عثمانَ رضيَ اللهُ عنه ، وظهرَ عليه النكير (١) لأشياءَ ذكروها من فعله :

منها ماكان بينهُ وبينَ عبد الله بن مسعود (٢) ، وانحراف هُذَيْل عن عثمان من أجله .

ومن ذلك مانال عمّارَ بنَ ياسر (٣) من الفتَنِ والضرْبِ ، وانحراف بني مخزوم عن عثمان من أجله .

بين عثمان وأبي ذر : ومن ذلك مافعَل بأبي

---

(١) النكير : الإنكار .

(٢) عبدالله بن مسعود (ت ٣٢ ه) صحابي هذلي خدم النبي (ص) مدة حياته . أول من جهر بالقران في مكة وأحد المبشرين. بالجنة من الثقات في رواية الحديث .

(٣) عمار بن ياسر : (ت نحو ٣٧ ه) أبو اليقظان : صحابي من الولاة ذوي الشجاعة والرأي وهو أحد السابقين إلى الإسلام ولي الكوفة لعمر وشهد الجمل وصفين مع علي وقتل في الثانية .

ذرٌّ (١)، وهو أنّهُ حضرَ مجلسَهُ ذاتَ يومٍ فقال عثمانُ: أرأيتم من زكّى مالَه هل فيه حقٌّ لغيره؟ فقال كعبٌ(٢): لا ياأميرَ المؤمنين، فدفع أبوذر في صدْرِ كعب، وقال له: كذبتَ يا بنَ اليهوديّ، ثم تلا «(ليس البرَّ أن تُولّوا وجوهكم قِبَلَ المشرقِ والمغرب — الآية)» فقال عثمان: أتَرَوْن بأساً أن نأخذَ مالاً من بيتِ مالِ المسلمين فنُنفقَهُ فيما يَنُوبُنا من أمورِنا ونعطيكمُوه؟ فقال كعب: لابأسَ بذلك، فرفع أبوذرٍّ العصا فدفعَ بها في صدرِ كعب وقال: ياابنَ اليهوديّ ماأجرأك على القول في ديننا! فقال له عثمان: ماأكثرَ أذاكَ لي! غيّب وجهَكَ عنّي فقد آذيتنا، فخرجَ أبو ذر إلى الشام، فكتبَ معاويةُ إلى عثمانَ: إن أبا ذرٍّ تجتمعُ إليه الجموع، ولا آمنُ أنْ يُفسِدَهُم عليك، فإن كان لك في القوم

---

(١) أبو ذر الغفاري: (ت ٣٢ هـ) جندب بن جنادة: صحابي من السابقين إلى الإسلام، عرف بالتقشف والزهد. عاش في الشام بعد وفاة النبي (ص) فاجتمع إليه الفقراء والصعاليك. ندد باقبال معاوية على حياة الترف والإسراف بمال المسلمين. نفاه عثمان إلى الربذة فمات فيها.

(٢) كعب الأحبار: سبقت ترجمته.

حاجةٌ فأحمله إليك ، فكتب إليه عثمان بحملِه ، فحمله على بعير عليه قتبٌ (١) يابسٍ معه خمسةٌ من الصقالبة يَطيرونَ به ، حتى أتَوا به المدينةَ وقد تَسلّخت بواطنُ أفخاذِه وكادَ أنْ يتلفَ ، فقيلَ له : إنّك تَموتُ من ذلك ، فقال : هيهاتَ لن أموتَ حتى أُنفى . وذكر جوامِعَ ما ينزلُ به بعدُ ، ومن يتولّى دفنَه ، فأحسن إليه عثمانُ في داره أياماً ، ثم دخل إليه فجلسَ على ركبتيه وتكلّم بأشياءَ ، وذكر الخبرَ في ولَدِ أبي العاص إذا بلغوا ثلاثين رجلاً اتخذوا عبادَ الله خوَلاً ، ومرَّ في الخبر بطوله ، وتكلّمَ بكلامٍ كثير ، وكان في ذلك اليوم قد أتيَ عثمانُ بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهري من المال ، فنُثرتِ البِدَرُ (٢) حتى حالت بين عثمانَ وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : إني لأرجو لعبدِ الرحمن خيراً ؛ لأنه كان يتصدّقُ ، ويقري الضيفَ ، وتَركَ ماترَون ، فقال كعبُ الأحبار : صدقتَ ياأميرَ المؤمنين ؛

---

(١) القتب : الرحل .

(٢) البدر : ج بدرة : وهي الأكياس التي توضع فيها الدراهم . والبدرة : عشرة الاف درهم .

فشال أبوذر العصا، فضربَ بها رأسَ كَعْب، ولم يشغَلْه ماكان فيه من الألم ، وقال : ياابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خَيرَ الدنيا وخيرَ الآخرة ، وتقطعُ على الله بذلك ، وانا سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : « مايسرُّني أنْ أموتَ وأدَعَ مايَزِنُ قيراطاً » فقال له عثمان : وارِ عَنّي وَجْهَك ، فقال : أسيرُ إلى مَكّةَ ، قال : لاوالله ، قال : فتمنَعُنْي من بيتِ ربي أعبدُه فيه حتى اموتَ ؟ قال : إيْ والله ، قال : فإلى الشام ، قال : لاوالله ، قال البصرة ؟ قال : لا والله ، فاختر غيرَ هذه البلدان ، قال : لاوالله مااختارُ غيرَ ماذكرتُ لك، ولو تركتَني في دار هجرتي ما أردتُ شيئاً من البُلْدان ، فَسيِّرني حيثُ شئتَ من البلاد ، قال : فإني مُسَيِّرُك إلى الرَّبَذَةِ ، قال : أللهُ أكبرُ ، صدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرني بكلّ ما أنا لاقٍ ، قال عثمانُ : وما قال لك ؟ قال : أخبرني بأني أمنعُ عن مَكَةَ والمدينةَ وأموتُ بالرَّبَذَةِ ، ويتولّى مواراتي نَفَرٌ ممن يَرِدون من العراق نحو الحجاز ، وبعث أبوذر إلى جملٍ له فَحَمَلَ عليه امرأته — وقيل :

ابنته — وأمَرَ عثمانُ أنْ يتجافاهُ الناسُ حتى يَسيرَ إلى الرَّبَذَةِ ، فلما طَلَعَ عن المدينة ومروانُ (١) يُسَيِّرهُ عنها طَلَعَ عليه عليٌّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه ومعه ابناه الحسنُ والحسينُ وعَقيلٌ أخوه وعبدِ الله بن جعفر (٢) وعمارُ بن ياسر ، فاعترضَ مروانُ فقالَ : ياعليّ إن أميرَ المؤمنين قد نَهى الناسَ أنْ يَصحبوا أبا ذَرٍّ في مَسيره ويُشيّعوه ، فإن كنت لم تدرِ بذلك فقد أعلَمتُكَ ، فَحَمَلَ عليه عليٌّ بنُ ابي طالب بالسوط وضَرَبَ بين أُذُني راحلته ، وقال : تنحَّ نَحّاك اللهُ إلى النار ، ومضى مَعَ أبي ذَرٍّ فشيّعه ثم ودّعه وانصرف ، فلما أراد عليٌّ الانصرافَ بكى أبو ذر ، وقال : رَحِمكم اللهُ أهلَ البيتِ ، إذا رأيتُكَ ياابا الحسن وَوَلَدكَ ذكرتُ بكم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فشكا مروانُ إلى عثمان مافعل به عليٌّ بنُ ابي طالب ، فقال عثمانُ : يامعشرَ

(١) مروان : هو مروان بن الحكم : (٢ — ٦٥) رابع الخلفاء الأمويين . من أنصار عثمان ، مات بالطاعون بدمشق .

(٢) عبدالله بن جعفر بن أبي طالب : (١ — ٨٠ هـ) صحابي ولد بأرض الحبشة ، أحد قادة علي في صفين . مات بالمدينة .

المسلمين من يَعذرني (١) من علي ؟ ردّ رسولي عما وجهته له ، وفعل كذا ، والله لنُعطينَّه حقَّه ، فلما رَجَعَ عليٌّ استقبله الناسُ ، فقالوا له : إن أميرَ المؤمنين عليك غضبانُ لتشييعك أبا ذر ، فقال علي : غَضَبُ الخيلِ على اللُّجُمِ .

فلما كان بالعَشيِّ جاء إلى عثمان ، فقال له : ماحملك على ماصنعت بمروان ولم اجترأت عليَّ ورَدَدْتَ رسولي وأمري ؟ ! قال : أمّا مروان فإنه استقبلني يردُّني فرددْتُه عن رَدِّي ، وأما أمرُك فلم أَرُدَّهُ ، قال عثمان : ألم يبلغك أني قد نهيتُ الناسَ عن أبي ذر وعن تشييعه ؟ فقال علي : أوَ كلُّ ماأمرتَنا به من شيء نرى طاعةَ الله والحقَّ في خلافه اتَّبعنا فيه أمرَك . بالله لانفعلُ ، قال عثمان : أقِدْ (٢) مروانَ ، قال : ومم أُقيدُه ؟ قال : ضربتَ بين أذُنَي راحلته وشتمته ، فهو شاتمك وضاربُ بين أذُنَي راحلتك . قال عليّ : أمّا راحلتي فهي تلك فإن أرادَ ان يضربَها كما ضربتُ راحلتَه

(١) يعذرني : يبدي لي عذراً .

(٢) دعه يقتص منك .

فليفعلْ ، وأمّا أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنّكَ أنتَ مِثلَها بما لا أكذبُ فيه ولا أقولُ إلا حقاً ، قال عثمان: ولم لايشتُمُك إذا شتمتَه ، فوالله ماأنتَ عندي بأفضلَ منه ؟ ! فغضب علي بن ابي طالب وقال : إليّ تقولُ هذا القول ؟ وبمروانَ تَعدلُني ؟ فأنا والله أفضلُ منك ، وأبي أفضلُ من أبيك ، وأمي أفضلُ من أمّك ، وهذه نَبْلي قد نَثَلْتُها (١) ، وهَلُمّ فانثُلْ بنبالك ، فغضب عثمانُ واحمرّ وَجههُ ، فقام ودخلَ دارَه ، وانصرفَ عليٌّ ، فاجتمع اليه أهلُ بيته ، ورجالٌ من المهاجرين والأنصار .

فلما كان من الغد واجتمع الناسُ إلى عثمان شكا إليهم عليّاً وقال : إنه يُعيبني ، ويُظاهرُ من يُعيبُني ، يُريد بذلك أبا ذَرّ وعمّارَ بنَ ياسر وغيرَهما ، فدخل الناسُ بينهما حتى اصطلحا وقال له عليٌّ : والله ماأردْتُ بتشييع أبي ذَرّ إلا اللهَ تعالى .

الثورة على عثمان : ولما كان سنةُ خمسٍ وثلاثين

(١) نثلتها : نثرتها .

سار مالكُ بنُ الحارثِ النَّخعيّ (١) من الكوفة في مائتي رجلٍ ، وحُكَيمُ بن جَبَلَة العبديّ(٢) في مائة رجل من أهل البصرة ، ومن أهل مِصْرَ ستمائة رَجُلٍ عليهم عبدُ الرحمن بنُ عديس البَلَوِيُّ(٣) ، وقد ذكر الواقدي وغيرُه من أصحاب السير أنّه ممن بايع تحتَ الشجرة ، إلى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الحمق الخزاعي(٤) وسعد بن حُمْران التُّجيبي ، ومعهم محمدُ بن ابي بكر الصديق (٥) ، وقد كان تكلَّم بمصر ، وحرَّضَ النّاس

---

(١) مالك بن الحارث النخعي : (ت ٣٧ هـ) المعروف بالأشتر : أمير شجاع ، كان رئيس قومه في الجاهلية . شهد اليرموك فذهبت عينه فيها ، كما شهد الجمل وصفين مع علي ثم ولاه مصر فمات في الطريق .

(٢) حكيم بن جبلة : من بني عبد القيس : صحابي شجاع . ولاه عثمان إمرة السند . شهد الجمل مع علي وقتل فيها سنة ٣٦ هـ .

(٣) عبد الرحمن بن عديس : (ت ٣٦ هـ) صحابي ممن بايع تحت الشجرة . من قادة الثورة على عثمان قتله عامل معاوية على فلسطين .

(٤) عمرو بن الحمق : (ت ٥٠ هـ) صحابي من قتلة عثمان ، كان على خزاعة يوم صفين . طلبه معاوية ففر إلى الموصل فدخل غاراً فنهشته حية فمات . وحمل رأسه إلى معاوية فكان أول رأس حمل في الإسلام .

(٥) محمد بن أبي بكر : (١٠ — ٣٨ هـ) نشأ بالمدينة .شهد الجمل وصفين مع علي . ولاه علي إمارة مصر بعد موت الأشتر . قتل بمصر .

على عثمانَ لأمرٍ يطولُ ذكرُه كان السَّببُ فيه مروانُ ابنُ الحكم ، فنزلوا في الموضع المعروف بذي الخُشُب(١) فلما علم عثمان بنزولهم بعثَ إلى علي بن أبي طالب فأحضره ، وسأله أنْ يخرُجَ إليهم ، ويضمنَ لهم عنه كُلَّ مايريدون من العدلِ وحسنِ السيرة ، فسار عليٌّ إليهم ، فكان بينهم خطبٌ طويل ، فأجابوه إلى ماأراد وانصرفوا ، فلما صاروا إلى الموضع المعروف بِحسمى إذا هم بغلامٍ على بعير وهو مُقْبِل من المدينة ، فتأملوه فإذا هو ورشُ غلامُ عثمان ، فقرَّروه ، فأقر وأظهرَ كتاباً إلى ابن أبي سَرْح صاحبِ مِصْرَ وفيه : « إذا قَدِمَ عليك الجيشُ فاقطع يدَ فلان ، واقتل فلاناً ، وافعل بفلان كذا ، وأحصي أكثرُ من في الجيش ، وأُمِر فيهم بما أُمِر » وعلم القومُ أنَّ الكتابَ بخط مروان ، فرجعوا إلى المدينة ، واتفق رأيُهم ورأْيُ من قَدِمَ من العراق ، ونَزَلوا المسجدَ وتكلَّموا ، وذكروا مانزل بهمْ من عُمَّالهم ، ورجعوا إلى عثمان فحاصروه في داره ، ومنعوه الماءَ ، فأشرف

---

(١) ذو الخشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث والمغازي . (أنظر معجم البلدان لياقوت الحموي) .

على الناس وقال : ألا أحَدٌ يَسقينا ؟ وقال : بِم تستحلّون قتلي وقد سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفرٍ بعدَ إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتلِ نفسٍ بغيرِ نفس » ؟ ووالله مافعلت ذلك في جاهليةٍ أو إسلام ، فبَلغَ علياً طَلَبُهُ للماء ، فبعث إليه بثلاثِ قِرَبِ ماءٍ ، فما وصلَ إليه ذلك حتى خرج جماعةٌ من موالي بني هاشم وبني أُميّة ، وارتفع الصوتُ ، وكَثُرَ الضجيجُ ، وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان ، فأبى أنْ يُخلي عنه ، وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود (١) لأنّه كان من أحلافها ، وهُذَيْلُ لأنه كان منها ، وبنو مخزوم وأحلافها لعمار ، وغِفارُ وأحلافُها لأجل أبي ذر ، وتَيْمُ بنُ مُرَّة مع محمد بن أبي بكر ، وغير هؤلاء ممن لايحمل كتابنا ذكره ، فلما بلغ علياً أنّهم يُريدون قتلَه بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته ، وامرهم ان يمنعوه منهم ، وبعثَ الزبيرُ ابنَهُ عبدَالله ،

---

(١) عبدالله بن مسعود : سبقت ترجمته .

وبعثَ طلحةُ ابنَه محمَّداً ، وأكثرُ أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداءً بمن ذكرنا ، فصدوهم عن الدار ، فرمى من وَصفْنا بالسهام ، واشتبك القومُ ، وجُرِحَ الحسنُ ، وشُجَّ قنبرُ ، وجُرِحَ محمدُ بنُ طلحةَ ، فخشي القومُ أنْ يتعصب بنو هاشم وبنو أُمية ، فتركوا القومَ في القتال على الباب ، ومضى نَفَرٌ منهم إلى دار قوم من الأنصار فتَسوَّروا عليها ، وكان ممن وَصَلَ إليه محمدُ بنُ أبي بكر ورجلان آخران ، وعندَ عثمانَ زوجتهُ ، وأهلهُ ومواليه مَشاغيلُ بالقتال ، فأخذ محمَّدُ ابنُ أبي بكر بلحيتِه ، فقال : يامحمّدُ ، والله لو رآك أبوك لَساءَهُ مكانُك . فتراخت يدُه ، وخرج عنه إلى الدار ، ودخل رجلان فوجداه فقتلاه ، وكان المصحفُ بين يَديه يقرأ فيه ، فَصَعِدت امرأتهُ فصرخت وقالت : قد قُتِلَ أميرُ المؤمنين ، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية ، فوجدوه قد فاضَتْ نَفْسهُ رضيَ الله عنه ، فبكَوا ، فبلغ ذلك علياً وطلحةَ والزبيرَ وسَعْداً وغيرَهم من المهاجرين والأنصار ، فاسترجَعَ (١) القومُ ،

---

(١) استرجع القوم : قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ودخلَ علي الدارَ ، وهو كالواله الحزين ، وقال لابنيه : كيف قُتِلَ أميرُ المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ولَطَمَ الحسنَ وضَرَبَ صَدْرَ الحُسين ، وشَتَمَ محمدَ بنَ طلحةَ ، ولعن عبدَ الله بنَ الزُّبير ، فقال له طلحة : لاتضربْ يا أبا الحسن، ولا تَشْتُمْ ولا تلعن لو دَفَعَ إليهم مروانَ ماقُتِلَ ، وهَرَبَ مروانُ وغيرهُ من بني أمية وطُلِبوا ليُقتَلوا فلم يُوجدوا ، وقال عليٌّ لزوجته نائلة بنت الفَرافِصة : (١) مَنْ قتله وأنتِ كنتِ معه؟ قالت : دخل إليه رجلان وقَصَّتْ خَبَرَ محمد بن أبي بكر ، فلم يُنكِر ماقالت ، وقال : والله لقد دخلتُ عليه وأنا أُريدُ قَتْلَه ، فلما خاطبني بما قال خرجتُ ، ولا أعلَمُ بتخلُّف الرجلين عني ، واللهِ ماكان لي في قتلهِ من سَبَبٍ ، ولقد قُتِلَ وأنا لاأعلم بقتله .

وكانت مدةُ ما حُوصِرَ عثمانُ في داره تِسْعاً وأربعين يوماً ، وقيل : أكثرُ من ذلك .

---

(١) نائلة : من بني كلب خطيبة شاعرة من ذوات الرأي والشجاعة ، حملت إلى عثمان من بادية السماوة فتزوجها . خطبها معاوية بعد الفتنة فأبت .

مقتله ، وقتلته : وقُتِلَ في ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة ، وذُكر أنّ أحدَ الرجلين كنانةُ ابنُ بشرٍ التُجيبي (١) ، ضربه بعمود على جبهته ، والآخر منهما سَعْدُ بنُ حُمْرانَ المراديّ ، ضربه بالسيف على حَبْل عاتقه فَحَاتَّهُ .

وقد قيل : إن عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات ، وكان فيمن مال عليه عمير بن ضابىء البرجمي التميمي (٢) ، وخضخض سيفه في بطنه .

مدفنه : ودفن على ما وصفنا في الموضع المعروف بحش كوكب ، وهذا الموضع فيه مقابر بني أمية ، ويعرف أيضاً بحاة ، وصلى عليه جُبيرُ بنُ مُطعِم (٣) وحكيم بن حِزام وأبو جهم بن حذيفة .

---

(١) كنانة بن بشر : (ت ٣٦ هـ) ثائر من رؤساء الجيش الذي زحف من مصر لخلع عثمان شارك في مقتل عثمان . قتله والي فلسطين من قبل معاوية .

(٢) عمير بن ضابىء : (ت ٧٥ هـ) شاعر من سكان الكوفة ، مات أبوه في سجن عثمان . قتله الحجاج .

(٣) جبير بن مطعم : صحابي من علماء قريش وسادتهم عده الجاحظ من كبار النسابين توفي بالمدينة عام ٥٩ هـ وحكيم بن حزام : صحابي قرشي وهو من ساداتها في الجاهلية والإسلام توفي بالمدينة عام ٥٤ هـ .

ولما حوصر عثمان كان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يصلي بالناس ، ثم امتنع ، فصلى بهم سهل بن حُنَيْف (١) ، فلما كان يوم النحر صلى بهم علي ، وقيل : إن عثمان قتل ومعه في الدار من بني أمية ثمانية عشر رجلاً منهم مروان بن الحكم .

قال المسعوديُّ رَحِمَهُ اللهُ : ولعثمانَ أخبارٌ وسِيَرٌ ومآثرُ حِسَانٌ ، قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبارِ الزمان » والكتابِ الأوسط ، وكذلك ما كان في أيامه من الكوائنِ والأحداثِ والفتوحِ والحروبِ مع الروم وغيرهم ، واللهُ وليُّ التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ذكر
خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه

موجز : بويعَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ في اليوم الذي

(١) سهل بن حنيف : أنصاري من الأوس . صحابي شهد المشاهد كلها . ولاه علي البصرة بعد الجمل ثم شهد صفين . مات بالكوفة سنة ٣٨ هـ .

قُتِلَ فيه عثمانُ بنُ عفّانَ رضيَ الله عنه ، فكانت خلافتهُ إلى أن استُشهد أربعَ سنين وتسعةَ أشهرٍ وثمانية أيام ، وقيل : أربعُ سنينَ وتسعةُ أشهر إلا يوماً ، وكانت الفُرقةُ بينَه وبينَ معاويةَ بنِ أبي سفيان على ماذكرنا في خلافته ، وكان مَوْلِدُه في الكعبة ، وقيل : إن خلافته كانت خمسَ سنين وثلاثةَ أشهرٍ وسبْعَ ليالٍ ، واستُشهد وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وعاش بعد الضَّربةِ الجمعةَ والسبتَ ، وتُوفي ليلةَ الاحد ، وقد قيل في مقدار عمره أقلُّ ماذكرنا ، وقد تُنوزع في موضع قبره ؛ فمنهم من قال : إنه دُفِنَ في مسجد الكوفة ، ومنهم من قال : إنه حُمِلَ إلى المدينة فدُفِنَ عند قبرِ فاطمة ، ومنهم من قال إنه حُمِلَ في تابوتٍ على جملٍ وإن الجملَ تاه ووَقَعَ إلى وادي طيِّء ، وقد قيل من الوجوه غيرُ ماذكرنا ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الاوسط .

نسبهُ ، ولُمعٌ من أخباره وسِيَرِه

نسبهُ : هو عليُّ بنُ أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مَنَاف ، ويُكَنَّى ابا الحسن ، وأمُّه فاطمة

بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، ولم يكن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا من خلافة المتقي ممن ولي الخلافة مَن اسمهُ عليٌّ غيره ، وغير المكتفي بالله علي بن المعتضد ، وكان أوّلَ من وَلدَهُ هاشميان من الخلفاء ، وقد قيل: إنه بُويع البَيْعَةَ العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيام ، وقد ذكرنا البيعة الأولى فيما سلف من هذا الكتاب ،

مَسيرُهُ إلى البصرة : وكان مَسيرُ عليٍّ إلى البصرة في سنة ستٍّ وثلاثين ، وفيها كانت وقعةُ الجمل ، وذلك في يوم الخميس لعشْرٍ خلون من جُمادى الأولى منها وقُتِلَ فيها من أصحاب الجمل من أهلِ البصرة وغيرِهم ثلاثةَ عَشَرَ الفاً ، وقُتِلَ من أصحاب عليٍّ خمسةُ آلافٍ ، وقد تنازَعَ الناسُ في مقدارِ من قُتِلَ من الفريقين : فمِنْ مُقَلِّلٍ ومُكْثِرٍ ، فالمقلل يقول : قُتِلَ منهم سبعةُ آلافٍ ، والمُكثر يقول : عَشْرةُ آلاف . على حَسَبِ مَيْلِ الناسِ وأهوائهم إلى كلّ فريق منهم ، وكانت وقعةً واحدةً في يوم واحد .

وقيل : إنه كان بين خلافةِ عليٍّ إلى وقعة الجمل خمسةُ

أشهرٍ وأحدٌ وعشرون يوماً ، وبينَ وقعةِ الجمل وأولِ الهجرة خمسٌ وثلاثون سنةً وخمسةُ أشهرٍ وعَشرةُ أيام ، وبين ذلك وبين دخولِ عليٍّ إلى الكوفة شهرٌ ، وبين ذلك وبين أوَّلِ الهجرة خمسٌ وثلاثونسنةً وستةُ أشهر وعشرة أيام ، وبين دخول علي والتقائه مع معاوية للقتال بصفّينَ ستةُ أشهر وثلاثةَ عَشَرَ يوماً ، وبين ذلك وأوَّلِ الهجرةِ ستٌّ وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوماً .

قتلى صفين وأيامها : وقُتِلَ بصفين سبعون ألفاً : من أهل الشام خمسةٌ وأربعون ألفاً ، ومن أهل العراق خمسةٌ وعشرون ألفاً ، وكان المقامُ بصفين مائةَ يومٍ وعَشَرَةَ أيام ، وقُتِلَ بها من الصحابة ممن كان مع علي خمسةٌ وعشرون رجلاً : منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سُميَّة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة.

وكانت عِدَّةُ الوقائعِ بين أهلِ العراق والشام سبعين وقعةً .

التقاء الحكمين : وفي سنة ثمانٍ وثلاثين كان التقاء الحكمين وهما عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري

بأرض البلقاء من أرض دمشق وقيل : بدُومَةِ الجندلِ (١) ، وهي على نحو عَشَرَة أميال من دمشق ، وكان من أمرهما ماقد شهر ، وسنُورد في هذا الكتاب جوامعَ ماذكرنا وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما سلف من كتبنا .

وفي هذه السنة حَكَمتِ الخوارجُ وتحكَّمت وهم الشُّرَاةُ (٢) .

وكان ممن شَهِدَ صفين مع علي من أصحاب بدر سبعةٌ وثمانون رجلاً : منهم سبعةَ عَشَرَ من المهاجرين ، وسبعونَ من الانصار ، وشَهِدَ معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بَيْعَةُ الرِّضوان من المهاجرين والأنصار من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعمائة وكان جميعُ من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة .

---

(١) دومة الجندل : هي بلدة في منطقة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية . وقال ياقوت : وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول (ص) .

(٢) الشراة : سمى الخوارج أنفسهم شراة لقولهم : شرينا أنفسنا بالجنة . أي باعوها لله .

حربه مع الخوارج : وفي سنة ثمانٍ وثلاثين كان حربُهُ مع أهلِ النهروان من الخوارج . وقعد عن بَيْعته جماعةٌ عثمانية لم يَروا إلاّ الخروجَ عن الأمر ، منهم سعدُ بنُ أبي وقّاص ، وعبدُ الله بن عمر (١) .

عمرو بن العاص : وقد كان عمرو بن العاص انحرفَ عن عثمان لانحرافه عنه وتوليته مِصرَ غيره ، فنزلَ الشامَ ، فلما اتّصل به أمرُ عثمان وما كان من بَيْعة علي ، كتب إلى معاوية يَهزُّه ويُشير عليه بالمطالبة بدَم عثمان ، وكان فيما كَتَبَ به إليه : ماكنت صانعاً إذا قُشِرتَ من كلّ شيء تَملِكهُ فاصنعْ ماأنت صانع ، فبعث إليه معاوية ، فسار إليه ، فقال له معاوية : بايعني ، قال : لا ، واللهِ لاأعطيك من ديني حتّى أنالَ من دنياك ، قال : سَلْ ، قال : مصرُ طُعْمَة ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له به كتاباً ، وقال عمرو بن العاص في ذلك :

---

(١) عبدالله بن عمر بن الخطاب : (١٠ ق . هـ — ٧٣ هـ) صحابي من رواة الحديث . شارك في غزو إفريقية . مات بمكة .

معاويَ لأعطيـــك ديني ولم أنــلْ
به منك دنيا ، فانظُرَنْ كيف تَصنَعُ

فإن تُعطِني مِصراً فأَربِــحْ بصفْقةٍ
أخذتَ بهـــا شَيخـــاً يَضُرُّ ويَنفعُ

المغيرة بن شعبة ينصح علياً ثم يرجع : وأتى المُغيرةُ بنُ شعبة علياًّ ، فقال له : إن لك حقَّ الطاعة والنصيحة ، وإنَّ الرأيَ اليومَ تحوزُ به ما في غدٍ ، وإنَّ المُضاعَ اليوم تُضيعُ به ما في غد ، أقررْ معاويةَ على عمله ، وأقررْ ابنَ عامرٍ (١) على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتُهم وطاعةُ الجنودِ استبدلتَ أو تركت ، قال : حتى أنظرَ ، فخرج من عنده وعاد إليه من الغد ، فقال : إني أشَرْتُ عليك بالأمس برأي وتَعقَّبتهُ برأي ، وإنما الرأي أن تعاجِلَهم بالنَزْعِ فتعرفَ السامعَ من غيره وتستقبلَ أمرَك ، ثم خرج من عنده فتلقَّاه ابنُ عباس خارجاً وهو داخل ، فلما انتهى إلى علي قال : رأيت المُغيرةَ خارجاً من عندك ففيمَ جاءك ؟ قال :

---

(١) هو عبدالله بن عامر بن كريز وقد سبقت ترجمته .

جاءني أمسِ بكَيتَ وكيتَ ، وجاءني اليوم بذيتَ وذَيتَ(١) ، فقال : أمّا أمْسِ فقد نَصَحَكَ ، وأمّا اليومَ فقد غَشَّكَ ، قال : فما الرأي ؟ قال : كانَ الرأيُ أن تَخرُجَ حين قُتِلَ عثمانُ ، أو قبلَ ذلك ، فتأتيَ مَكَّةَ فتدخُلَ فتُغلق عليك بابَكَ ، فإن كانت العربُ مائلةً مضطربةً في أثرك لاتجدُ غيرك ، فأمّا اليومَ فإن بني أميةَ سَيُحسِنون الطَّلَبَ بأنْ يُلزموك شُعبةً من هذا الأمر ، ويُشبِّهون فيك على الناس ، وقال المُغيرةُ : نصحتهُ فلم يَقْبَلْ ، فغششتهُ ، وذُكرَ أنّهُ قال : واللهِ مانَصحتهُ قَبْلَها ، ولا أنْصحهُ بعدَها .

ذكر الأخبار عن يوم الجمل

وبَدْئه وما كان فيه من الحرب ، وغير ذلك

الخروجُ على علي : ودخلَ طلحةُ والزبيرُ مكةَ ، وقد كانا استأذنا علياً في العُمْرةِ ، فقال لهما : لَعلَّكما تريدان البصرةَ أو الشامَ ، فأقسما أنهما لايقصدان غيرَ مَكَّةَ ، وقد كانت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها بمكةَ ،

---

(١) كذا وكذا .

وقد كان عبدُ الله بنُ عامر عاملُ عثمانَ على البصرة هربَ عنها حين أخذَ البَيْعةَ لعليٍّ بها على الناس حارثةُ ابنُ قُدامةَ السعّديّ (١) ، ومسيرِ عثمانَ بنِ حُنَيف الأنصاري(٢) إليها على خراجها من قِبَلِ عليٍّ رضي الله عنه ! . وانصرفَ عن اليمن عاملُ عثمان وهو يَعلى ابن مُنْيَةَ (٣) ، فأتى مكةَ وصادف بها عائشةَ وطلحةَ والزبيرَ ومروانَ بنَ الحكم في آخرين من بني أمية ، فكان ممن حَرَّض على الطلب بدم عثمان ، وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة ألف درهم ، وكُرَاعاً (٤) وسلاحاً ، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى عَسْكراً وكان شراؤه عليه باليمن مائتي دينار ، فأرادوا الشامَ ، فصدَّهم ابن عامر ، وقال : إن به معاوية ، ولاينقاد

---

(١) حارثة بن قدامة السعدي : لم أعرفه .

(٢) عثمان بن حنيف الأنصاري الأوسي :(ت بعد ٤١ هـ) وال من الصحابة من أنصار علي حضر وقعة الجمل . مات بالكوفة .

(٣) يعلى بن منية : (ت ٣٧ هـ) هو يعلى بن أمية ، تميمي حنظلي أول من أرخ الكتب وهو صحابي من الولاة قاتل مع عائشة في وقعة الجمل ، ثم صار من أصحاب علي وقتل وهو معه في صفين .

(٤) الكراع : الخيل والبغال والحمير .

إليكم ، ولايُطيعكم ، لكنَّ هذه البصرةَ لي بها صنائعُ وعُدَدٌ ، فَتجهّزهُم بألفِ ألف درهم ومائة من الإبل وغير ذلك . وسار القومُ نحو البصرة في ستمائة راكبٍ . فانتهوْا في الليل إلى ماء لبني كلاب يعرف بالحوْأب(١) ، عليه ناسٌ من بني كلاب ، فعَوَتْ كلابُهم على الركب ، فقالت عائشة : ماإسمُ هذا الموضعِ ؟ فقال لها السائقُ لجمالِها : الحوأبُ ، فاسترجعتْ وَذكرَت ماقيل لها في ذلك ، فقالت : رُدُّوني إلى حَرَمِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم ، لاحاجةَ لي في المسير ، فقال الزبيرُ : بالله ماهذا الحوأبُ ، ولقد غَلِطَ فيما أخبرَكِ به ، وكانَ طلحةُ في ساقةِ(٢) الناس ، فلحقها فأقسم أنَّ ذلك ليس بالحوأب ، وشَهِدَ معهما خمسونَ رَجُلاً ممن كان معهم ، فكان ذلك أوّلَ شهادةِ زُورٍ أقيمت في الإسلام ، فأتَوا البصرة فخرج إليهم عثمانُ بن حُنَيف فمانعَهم ، وجرى بينهم قتالٌ ، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب

---

(١) الحوأب : قال ياقوت : الحوأب موضع في طريق البصرة .

(٢) الساقة : المؤخرة .

إلى قدوم علي ، فلما كان في بعض الليالي بيّتوا(١) عثمانَ ابنَ حنيف فأسروه وضربوه ونتفوا لحيته ، ثم إن القوم استرجعوا وخافوا على مخلّفيهم بالمدينة من أخيه سهل ابن حُنَيف وغيره من الأنصار ، فخلّوا عنه وأرادوا بيتَ المال فمانعهم الخزّان والموكّلون به وهم السبابجة(٢) ، فقُتِل منهم سبعون رجلاً غيرَ من جرح ، وخمسون من السبعين ضربت رقابُهم صبراً (٣) من بعد الأسر ، وهؤلاءِ أوّلُ من قُتل ظلماً في الإسلام وصَبْراً ، وقتلوا حكيمَ بنَ جَبَلة العبديّ ، وكان من سادات عبد القيس وزُهادِ ربيعةَ ونُسّاكها ، وتشاحّ طلحة والزبير في الصلاة بالناس (٤) ، ثم اتفقوا على أنْ يُصلّيَ بالناس عبدُ الله بن الزبير يوماً ، ومحمدُ بنُ طلحةَ يوماً ، في خَطْبٍ طويل كان بينَ طلحةَ والزبير إلى أن اتفقا على ما وصفنا .

---

(١) بيتوه : أوقعوا به ليلا .

(٢) السبجة والسبيجة : كساء أسود ولعل السبابجة كانوا يرتدون الأكسية السود .

(٣) قتل صبراً : أن يحبس ويرمى حتى يموت .

(٤) تنافسا في إمامة الصلاة .

مسيرُ علي إلى العراق : وسارَ عليٌّ من المدينة بعدَ اربعة أشهر ، وقيلَ غيرُ ذلك ، في سبعمائة راكب منهم اربعُمائةٍ من المهاجرين والأنصار ، منهم سبعون بدرياً وباقيهم من الصحابة ، وقد كان استخلَفَ على المدينة سهلَ بنَ حنيفٍ الأنصاري ، فانتهى إلى الرَّبَذة بين الكوفةِ ومكّةَ من طريق الجادة ، وفاتَهُ طلحةُ وأصحابُه ، وقد كان عليٌّ أرادهم فانصرفَ حين فاتوه إلى العراق في طَلَبِهم ، ولَحِقَ بعلي من أهلِ المدينة جماعةٌ من الأنصار فيهم خُزيمة بن ثابت ذو الشهادتين(١) ، وأتاه من طيِّءٍ ستُّمائةِ راكبٍ ، وكاتَبَ عليٌّ من الرَّبَذَةِ أبا موسى الأشعري ليستنفرَ الناس ، فثبَّطَهُم أبو موسى ، وقال : إنما هي فِتْنَةٌ ، فنُمِيَ ذلك إلى علي ، فولّى على الكوفة قَرَظَةَ بنَ كعبٍ الأنصاري ، وكَتب إلى أبي موسى : اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً ، فما هذا أوّلُ يومِنا منك . وإنَّ لك فينا

(١) خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين : أبوعمارة : صحابي من أشراف الأوس، شهد صفين مع علي فقتل فيها سنة ٣٧ هـ .

لَهَنَّاتٍ(١) وهُنيّات ، وسار علي بمن معه حتى نزل بذي قار ، وبعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفران الناس ، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحوٌ من سبعة آلاف ، وقيل : ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ، منهم الأشترُ ، فانتهى علي إلى البصرة وراسل القوم وناشدهم الله ، فأبوا إلا قتالَه .

قدوم علي البصرة : وذُكِرَ عن المنذرِ بنِ الجارود(٢) فيما حدث به أبو خليفة الفَضْلُ بن الحُبَاب الجمحي عن ابن عائشة عن معْن بن عيسى عن المنذر بن الجارود قال : لما قَدِمَ عليٌّ رضي الله عنه البصرةَ دخل مما يلي الطفَّ ، فأتى الزاوية فخرجتُ أنظر إليه فورد موكبٌ في نحوُ ألفِ فارسٍ يتقدَّمُهم فارسٌ على فرسٍ أشهبَ عليه قَلَنْسُوَةٌ وثيابٌ بيضٌ مُتَقَلِّدٌ سيفاً ومعه رايةٌ ، وإذا تيجانُ القومِ الأغلبُ عليها البياضُ والصُّفْرةُ مدجَّجينَ في الحديد والسلاح ؛ فقلت : من هذا ؟ فقيل :

---

(١) الهنات : الدواهي .

(٢) المنذر بن الجارود : هو بشر بن عمرو العبدي ، أمير ، جواد ، شهد الجمل مع علي ثم والى الأمويين . مات بثغر الهند سنة ٦١ هـ .

هذا أبو أيوب الأنصاري صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأنصارُ وغيرُهم ، ثم تلاهم فارسٌ آخرُ عليه عِمامةٌ صفراءُ وثيابٌ بيضٌ متقلِّدٌ سيفاً مُتَنكِّبٌ قوساً معه رايةٌ على فرسٍ أشقرَ في نحوِ ألفِ فارسٍ ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : هذا خُزَيمَةُ بنُ ثابتٍ الأنصاريّ ذو الشهادتين ، ثم مر بنا فارسٌ آخر على فرسٍ كُمَيْتٍ معتمٌ بِعمامةٍ صفراءَ من تحتها قَلَنْسُوَةٌ بيضاءُ وعليه قَبَاءٌ أبيضُ مصقولٌ متقلِّدٌ سيفاً متنكِّبٌ قوساً في نحوِ ألفِ فارسٍ من الناس ومعه رايةٌ ، فقلتُ : من هذا ؟ فقيل لي : أبوقَتَادةَ بن ربعي (١) ، ثم مَرَّ بنا فارسٌ آخرُ على فرسٍ أشهبَ عليه ثيابٌ بيضٌ وعِمامةٌ سوداءُ قد سَدَلَها من بين يديه ومن خلفه شديدُ الأُدْمَةِ (٢) عليه سكينةٌ ووقارٌ ، رافعٌ صوتَه بقراءةِ القرآنِ ، مُتَقلِّدٌ سيفاً مُتَنَكِّبٌ قوساً ، معه

---

(١) أبوقتادة بن ربعي : من الخزرج ، فارس النبي (ص) وهو قاتل ابني حذيفة الفزاريين اللذين أغارا على سرح المدينة ، فشك اثنين في رمح .

(٢) الأدمة : السمرة .

رايةٌ بيضاءُ في ألفٍ من الناس مختلفي التيجان ، حوله مَشْيَخَةٌ وكُهولٌ وشبابٌ كأنما قد أُوقفوا للحساب ، أثَرُ السجود قد أثَّرَ في جباههم ، فقالتُ : من هذا ؟ فقيل : عمّارُ بنُ ياسر في عِدَّةٍ من الصَّحابةِ من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، ثم مر بنا فارسٌ على فرسٍ أشقرَ عليه ثيابٌ بيضٌ وقَلَنْسُوَةٌ بيضاء وعِمامةٌ صَفْراءُ ، متنكّبٌ قوساً متقلّدٌ سيفاً ، تخطُّ رجلاه في الأرضِ في ألفٍ من الناس الغالبُ على تيجانهم الصُّفْرةُ والبياضُ معه رايةٌ صفراء ، قالت : من هذا ؟ قيل : هذا قيسُ ابنُ سعدِ بن عُبَادةَ (١) في عِدَّةٍ من الأنصار وأبنائهم وغيرِهم من قحطان ، ثم مرَّ بنا فارسٌ على فَرَسٍ أشْهَلَ ما رأينا أحْسنَ منه ، عليه ثيابٌ بيضٌ وعِمامةٌ سوداءُ قد سَدَلها من بين يديه بإزاء ، قالت : من هذا ؟ قيل : هو عبدُ اللهِ بنِ العباس في وَفدِهِ وعِدَّةٍ من أصحاب رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثم تلاه موكب

---

(١) قيس بن سعد : (ت ٦٠ هـ) صحابي أنصاري خزرجي من الولاة . حمل راية الأنصار مع النبي (ص) استعمله علي على مصر . مات بالمدينة .

آخر فيه فارسٌ أشبهُ الناس بالأولين ، قلت : من هذا ؟ قيل : عُبيدُ الله بن العباس ، ثم تلاه موكب آخر فيه فارسٌ أشبه الناس بالأولين ، قلت : من هذا ؟ قيل : قُثَم بن العباس (١) ، أو مَعْبَدُ بن العباس ، ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضاً ، واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس . عليهم السلاحُ والحديد مختلفو الرايات في أوله رايةٌ كبيرةٌ يَقْدُمُهم رَجُلٌ كأنما كُسِرَ وجُبِرَ ، قال ابن عائشة : وهذه صفةُ رجلٍ شديدِ الساعدين نَظَرُهُ إلى الأرض أكثرَ من نظرِه إلى فوق ، كذلك تُخبِرُ العربُ في وَصْفِها إذا أخبرتْ عن الرَّجل أنه كُسِرَ وجُبِرَ كأنما على رُؤوسِهم الطيرُ ، وعن يمينه شابٌّ حَسَنُ الوجه ، وعن يَسارِهِ شابٌّ حَسَنُ الوجه ، وبين يديه شابٌّ مثلُهما ، قلت : مَنْ هؤلاء ؟ قيل : هذا عليٌّ بنُ أبي طالب ، وهذان الحسنُ

---

(١) قثم بن العباس بن عبد المطلب (ت ٥٧ هـ) أمير . من الولاة . ولي المدينة في خلافة علي . مات بسمرقند .

والحسين عن يَمينه وشماله، وهذا محمدُ بنُ الحنفيّة (١) بَينَ يديه معه الرايةُ العُظمى، وهذا الذي خلْفَه عبدُ الله ابنُ جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء وَلَدُ عَقيل وغيرهم من فِتْيان بني هاشم، وهؤلاءِ المشايخُ هم أهلُ بَدْرٍ من المهاجرين والأنصار.

فساروا حتى نزَلوا الموضع المعروفَ بالزّاوية، فصلّى أربعَ ركعاتٍ، وعفّر خدّيه على التراب، وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعو: اللّهُمَّ ربَّ السموات وما أظلّتْ، والأرَضين وما أقلّت، وربَّ العرشِ العظيم، هذه البصرةُ أسألُكَ من خيرِها، وأعوذُ بك من شرِّها، اللهم أنزلنا فيها خيرَ منزل وأنت خيرُ المنزلين، اللهم إنَّ هؤلاء القومَ قد خلَعوا طاعتي، وبَغَوا عليَّ، ونكَثُوا بيْعتي، اللهم احقُنْ دماءَ المسلمين.

وبعثَ إليهم مَنْ يُناشدهُمُ اللهَ في الدماء، وقال:

---

(١) محمد بن الحنفية: (٢١ – ٨١ هـ). هو محمد بن علي بن أبي طالب. أمه خوله بنت جعفر الحنفية من أبطال صدر الإسلام. كان واسع العلم ورعاً. مولده ووفاته بالمدينة.

عَلامَ تُقاتِلونَني ؟ فأبَوا إلاَّ الحربَ ، فبعث إليهم رَجُلاً من أصحابِه يُقالُ له مُسلمُ معه مُصْحَفٌ يدعوهم إلى الله ، فرمَوهُ بسهمٍ فقتلوه ، فحُمِلَ إلى علي وقالت أمُّه :

يارِبِّ إنَّ مُسلماً أتاهم
يتلو كتابَ اللهِ لايخشاهم
فخضَّبوا من دَمِهِ لحاهم
وأمُّهُ قائمةٌ تَراهم

مبدأُ القتال : وأمر علي رضي الله عنه أن يُصافُّوهم، ولا يَبدؤوهم بقتال ، ولا يرموهم بسهم، ولايضربوهم بسيف، ولا يَطعنوهم برمح ، حتى جاء عبدُ الله بن بُدَيل ابن ورقاء الخزاعي (١) من الميمنة بأخٍ له مقتول ، وجاء قومٌ من الميسرَة برجُل قد رُمِيَ بسهم فقُتِلَ ؛ فقال عليٌّ : اللّهمَّ اشهدْ ، وأعذَروا إلى القوم (٢) .

---

(١) عبد الله بن بديل : (ت ٣٧ هـ) صحابي من الدهاة الفصحاء . سيد خزاعة قاتل مع علي في صفين حتى قتل .

(٢) أعذروا إلى القوم : صاروا ذوي عذر .

ثم قام عمارُ بنُ ياسر بين الصفَّين فقال : أيها الناسُ ، ماأنصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم في الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف ، وعائشةُ على جمل في هودجٍ من دُفوفِ الخشب قد ألبسوه المسوحَ (١) وجلودَ البقر ، وجعلوا دونه اللبودَ ، وقد غُشِّيَ على ذلك بالدروع ، فدنا عمارُ من موضعها ، فنادى : إلى ماذا تدْعين ؟ قالت : إلى الطَّلب بدمِ عثمانَ ، فقال : قاتل اللهُ في هذا اليوم الباغيَ والطَّالبَ بغيرِ الحق، ثم قال : أيُّها الناس ، إنكم لتعلمونَ أيُّنا الممالِىءُ (٢) في قتلِ عثمان ؟ ثم انشأ يقول وقد رشقُوه بالنبل :

فمنكِ البكاءُ ، ومنكِ العويـــلُ
ومنكِ الرياحُ ، ومنكِ المطرْ
وأنتِ أمرْتِ بقتـــلِ الإمـــامِ
وقاتِلُــه عنـــدنا مَـــنْ أمرْ

وتواتر عليه الرميُ واتصل ، فحرك فرسه ، وزال

(١) المسوح : ثياب أو بسط تنسج من الشعر ومفردها مسح .
(٢) الممالىء : المساعد .

عن موضعه وأتى عليّاً فقال : ماذا تنتظر ياأميرَ المؤمنين وليس لك عند القوم إلا الحرب ؟ !

خطبة لعلي قبل الالتحام : فقامَ عليٌّ رضي الله عنه في الناس خطيباً رافعاً صوته فقال : أيُّها الناس ، إذا هزمتموهم فلا تُجهِزوا على جريح ، ولا تَقتلُوا أسيراً ، ولا تتبعوا مُولّياً ، ولاتطلبوا مُدْبِراً، ولاتكشفوا عَورَةً ، ولاتُمثّلوا بقتيل ، ولا تَهتِكوا سِتْراً ، ولاتَقرَبوا شيئاً من أموالهم إلا ماتجدونَه في عَسكرهم من سِلاحٍ أو كُرَاعٍ أو عبدٍ أو أمةٍ ، وما سوى ذلك فهو ميراثٌ لورثتهم على كتاب الله .

بين علي والزبير : وخرج علي بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسلاح عليه فنادى : يازُبير ،اخرج إليّ ،فخرج اليهِ الزبير شاكّاً في سلاحه(١) ، فقيل ذلك لعائشة ، فقالت : واثُكلَاتِ ياأسماءُ ، فقيل لها : إنّ علياً حاسِرٌ فاطمأنت ، واعتنق كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه ، فقال له علي : ويحاك يازبيرُ ! ماالذي

---

(١) شك في السلاح : دخل فيه وارتداه . والشكة : السلاح .

أخرجك ؟ قال : دَمُ عثمانَ ، قال : قتلَ اللهُ أولانا بدمِ عثمانَ ، أما تذكرُ يومَ لقيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في بني بياضة وهو راكبٌ حمارَه ، فضحك إلي رسولُ الله ، وضحكتُ إليه ، وأنتَ معه ، فقلت أنت : يارسول الله مايدعُ عليٌّ زَهْوَه ، فقال لك : « ليس به زَهوٌ ، أتُحبهُ يازُبير » فقلت : إني والله لأُحبهُ ، فقال لك « إنك والله ستُقاتِلُه وأنت له ظالم » فقال الزبير : أستغفرُ اللهَ ، والله لوذكرتُها ماخرجت ، فقال له : يازبير ارجع ، فقال : وكيف أرجعُ الآنَ وقد التقت حلقتا البطان (١) ؟ هذا والله العارُ الذي لايُغسَلُ ، فقال : يازبيرُ ارجعْ بالعارِ قبل أن تجمعَ العارَ والنارَ ، فرجع الزبير وهو يقول :

اخترتُ عـاراً على نارٍ مُؤجَّجَـةٍ
ماإن يقومُ لها خَلقٌ من الطينِ

نادى عَليٌّ بأمـر لست أجهلُـه
عارٌ لَعمْرُك في الدنيا وفي الدين

---

(١) مثل يضرب للأمر إذا اشتد .

فقالت : حسبُك من عَذلٍ أبا حسن
فبعضُ هذا الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبدالله : أين تذهبُ وتدعُنا ؟ فقال : يابُني أذكرني أبو الحسن بأمرٍ كنتُ قد أُنسيتهُ فقال: لا والله، ولكنَّك فررتَ من سُيوفِ بني عبد المطلب ، فإنها طِوالٌ حِداد ، تحملُها فِتيةٌ أنجاد ، قال : لا والله ، ولكني ذكرتُ ماأنسانيهِ الدهرُ ، فاخترتُ العارَ على النار ، أبالجبن تُعيرُني لا أبا لك ؟ ثم أمالَ سِنانَه وشدَّ في الميمنة فقال علي : أفرجُوا له فقد هاجُوه ، ثم رَجَعَ فشدَّ في الميسرة ، ثم رجع فشدَّ في القلب ، ثم عاد إلى ابنه، فقال: أيفعل هذا جبان ؟ ثم مضى منصرفاً ، حتى أتى واديَ السِّباع (١) والأحنَفُ بنُ قيس (٢) معتزلٌ في قومه من بني تميم ، فأتاه آتٍ فقال له : هذا

---

(١) وادي السباع : بين البصرة ومكة بينه وبين البصرة خمسة أميال . (ياقوت) .

(٢) الأحنف بن قيس (ت ٧٢ هـ) سيد بني تميم . قائد من الفاتحين عمل في خدمة عبدالله بن عامر ففتح هراة وبلخ ومرو . قاتل إلى جانب علي في صفين . ومات بالكوفة .

الزبيرُ ماراً ، فقال : ماأصنعُ بالزبير وقد جَمَعَ بين فئتين عظيمتين من الناس يَقتُلُ بعضُهم بعضاً وهو مارٌّ إلى منزله سالماً ؟ ! فلحقه نَفَرٌ من بني تميم ، فسبقهم إليه عمرو بن جُرموز ، وقد نزل الزبيرُ إلى الصلاة فقال : أتؤمُّني أو أؤمك ؟ ! فأمَّهُ الزُّبير فقتله عمرو في الصلاة ، وقُتِل الزبير رضي الله عنه وله خمسٌ وسبعون سنة ، وقد قيل : إن الأحنف بن قيس قتله بإرساله مَنْ أرسَل من قومه ، وقد رثته الشعراء وذكرت غدْرَ عمرو بن جُرمُوز به ، وممن رثاه زوجتهُ عاتكةُ بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل أختُ سعيد بن زيد ، فقالت :

غدَرَ ابن جُرموزٍ بفارس بُهْمةٍ (١)
يومَ اللقــاء ، وكان غيرَ مسدَّدِ
ياعمرو ، لــو نبهتــه لوجــدته
لا طائشاً رَعشَ الجنــان ولا اليد

---

(١) فارس بهمة : هو الشجاع الذي لايهتدى من أين يؤتى .

هَبِلَتْكَ (١) أمك ان قتلت لمسلماً
حلّتْ عليك عقوبةُ المتعمّدِ

ماإن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله
فيمن مضى ممّن يروحُ ويَغتدي

وأتى عمرو علياً بسيف الزبير وخاتَمه ورأسِه ، وقيل : إنه لم يأت برأسِه ، فقال علي : سيفٌ طالما جلا الكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه الحَيْنُ ومصارعُ السوء ، وقاتلُ ابنِ صفيّةَ في النار ؛ ففي ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمي في أبيات :

أتيتُ علياً برأس الزبيرِ
وقد كنت أرجو به الزُلْفَهْ (٢)

فبشّر بالنار قبلَ العيان
وبئس بشارةُ ذي التُّحَفَهْ (٣)

لسيّان عنديَ قَتْلُ الزبيرِ
وضرطةُ عنز بذي الجُحفَهْ

(١) هبلتك : ثكلتك .
(٢) الزلفة : التقرب .
(٣) التحفة : البر واللطف .

ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق وأهل الشام بصِفّين

قال المسعودي رَحِمه الله : قد ذكرنا جُملاً وجوامعَ من أخبار علي رضي الله عنه بالبصرة وما كان يومَ الجمل، فلنذكر الآنَ جوامعَ من سَيْره إلى صِفّين ، وما كان فيها من الحروب ، ثم نُعقِبُ ذلك بشأن الحكمَين والنَّهروان، ومقتَله عليه السلام .

مسيره إلى صفين : وكان سير علي من الكوفة إلى صِفّينَ لخمس خلون من شوال سنة ستٍّ وثلاثين ، واستخلفَ على الكوفة أبا مسعود عُقبةَ بنَ عامرٍ الأنصاري، فاجتاز في مسيره بالمدائن ، ثم أتى الأنبارَ ، وسار حتى نَزلَ الرَّقّةَ ، فعُقِدَ له هنالك جسرٌ ، فعبر إلى جانب الشام .

عدد جيشه : وقد تُنوزع في مِقدارِ ما كان معه من الجيش ، فمكثِرٌ ومُقلل ، والمتفقُ عليه من قول الجميع تسعون ألفاً ، وقال رَجُلٌ من أصحاب علي لما استقرّوا مما يلي الشام من أبيات كتب بها إلى معاوية حيث يقول :

اثبُتْ معاويَ قد أتاك الحافلُ (١)

تسعـون ألفـاً كلهم مقـاتل

عما قليل يضمحلُّ الباطلُ

جيش معاوية : وسار معاويةُ من الشام ، وقد تُنوزع في مقدار من كان معه أيضاً ، فمكثرٌ ومُقلِّل ، والمتفقُ عليه من قول الجميع خمسٌ وثمانون ألفاً ، فسبق علياً إلى صِفِّين ، وعَسْكَر في موضعٍ سَهْل أفيح اختاره قبلَ قدوم علي ، على شريعةٍ (٢) لم يكن على الفرات في ذلك الموضع أسهلُ منها للواردِ إلى الماء ، وما عداها أخراقٌ عالية ، ومواضع إلى الماء وَعْرة ، ووَكَّلَ أبا الأعور السُلَمي (٣) بالشريعة مع أربعين ألفاً ، وكان على مُقدّمَتِهِ ، وبات عليٌّ وجيشهُ في البر عِطاشاً قد حِيل بينهم وبين الورود إلى الماء فقال عمرو بن العاص

---

(١) الحافل : الجمع .

(٢) الشريعة : مورد الشاربة .

(٣) أبوالأعور السلمي : (ت نحو ٦٠ هـ) هو سفيان بن عوف من كبار رجال معاوية شهد فتوح الشام ومصر ، وكان من قادة معاويةفي صفين.

لمعاوية : إن علياً لايموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق وسيوفُهم على عواتقهم ، ولكن دَعْهُم يشربون ونشربُ ، فقال معاويةُ : لاوالله أو يموتوا عطشاً كما ماتَ عثمانُ ، وخرج علي يدور في عسكره بالليل ، فسمع قائلاً وهو يقول :

أيمنعنــا القومُ مــاءَ الفُــرات
وفينــا عليٌّ وفينــا الهــدى ؟
وفينــا الصــلاة وفينــا الصيــام
وفينــا المنــاجون تحت الدجــى

ثم مر بآخر عند رايةِ ربيعة ، وهو يقول :

أيمنعنــا القومُ مــاءَ الفرات
وفينــا الرماحُ وفينا الجحفْ (١)
وفينــا عليٌّ لــه صــولةٌ
إذا خوَّفــوه الردى لم يخــف

---

(١) الجحف : ج جحفة : الترس من جلد .

ونحن غداةَ لقينا الزُّبَيرَ
وطاحةَ خُضْنَا غِمَارَ التلف
فما بالُنا أمْسِ أسْدِ العرين
وما بالُنا اليوم شاءِ النَّجَفَ

وأُلقِيَ في فِسطاط الأشعث بن قيس(١) رُقعةٌ فيها :

لئن لم يُجَلِّ الأشعثُ اليومَ كُرْبةً
من الموت فيها للنفوسِ تَفَلُّتُ
فنشربَ من ماءِ الفراتِ بسيفه
فَهَبْنَا أناساً قبلُ كانوا فَمُوِّتوا

فلما قرأها حَمِيَ وأتى علياً رضي الله عنه ، فقال له : أخرُجْ في أربعةِ آلافٍ من الخيل حتى تَهجُمَ بهم في وَسَطِ عسكرِ معاوية فتشربَ وتستقيَ لأصحابك أو تموتوا عن آخركم ، وأنا مُسيِّرٌ الأشتَرَ في خيل ورجَّالة

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي : (ت نحو ٤٠ هـ) من أمراء كندة . شهد اليرموك والقادسية ونهاوند وصفين . توفي بالكوفة .

وراءك ، فسار الأشعث في أربعة آلاف من الخيل وهو يقول مرتجزاً :

لأوردَنَّ خيلي الفُراتا
شُعْثَ النواصي أو يقال ماتا

ثم دعا عليّ الأشتَرَ فسرَّحه في أربعةِ آلافٍ من الخيل والرَّجالة ، فصارَ يَؤمُّ الأشعثَ وصاحب رايته وهو رجل من النَّخَع وهو يرتجز ويقول :

ياأشترَ الخيراتِ ياخَيرَ النَخَعْ
وصاحبَ النصر إذا عَمَّ الفزع
قد جَزِعَ القومُ وعُمُّوا بالفزع
إن تَسْقِنَا اليوم فما هو بالبدع

ثم سار عليٌّ رضي الله عنه وراءَ الأشتر بباقي الجيش ، ومضى الأشعثُ فما رَدَّ وجهَه أحدٌ حتى هَجَمَ على عسكر معاوية ، فأزال أبا الأعور عن الشَّريعة ، وغَرَّقَ منهم بَشَراً وخَيلاً ، وأورد خيلَه الفرات ، وذلك أن الأشعثَ داخلتْه الحميَّةُ في هذا اليوم ، وكان

يُقدِّم رمحه ثم يَحثُّ أصحابه فيقول : ازحموهم مقدار هذا الرمح ، فَيُزيلوهم عن ذلك المكان ، فبلغ ذلك من فعل الأشعث علياً ، فقال : هذا اليوم نُصِرنا فيه بالحمية ، وفي ذلك يقول رَجلٌ من أهل العراق :

كشفَ الأشعثُ عنا كُرْبَةَ الموتِ عِيانا
بعد ماطارت طلاقا طيرةً مَسَّت لُهانا
فله المنُّ علينا وبه دارت رَحانا

وارتحل معاويةُ عن الموضع ، وَوَرَدَ الأشتَرُ ، وقد كشف الأشعث القومَ عن الماء ، وأزالهم عن مواضعهم ، وورد عليٌّ فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية ، فقال معاويةُ لعمرو بن العاص : ياأبا عبد الله ، ماظَنُّكَ بالرجل أتراه يمنعنا الماءَ لمنعنا إياه ؟ وقد كان انحاز بأهل الشام إلى ناحية في البر نائية عن الماء ، فقال له عمرو : لا ، إن الرجل جاء لغير هذا ، وإنه لايرضى حتى تَدخُلَ في طاعته أو يقطعَ حَبلَ عاتقك ، فأرسل إليه معاوية يستأذنُه في وُروده مَشْرعَتَه واستقاءِ الناس من طريقهِ ودخولِ رُسلِهِ في عسكره ، فأباحَه على كل ماسأل وطلب منه .

ولما كان أوّلُ يوم من ذي الحجة — بعد نزول عليّ على هذا الموضع بيومين — بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين ، وطالت المراسلة بينهما ، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين ،وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر والبر لشغلهم بالحروب ، وقد كان معاويةُ صالح مَالكَ الروم على مال يحملهُ إليه لشُغله بعلي ، ولم يتمّ بين علي ومعاوية صلحٌ على غير مااتفقا عليه من الموادعة في المحرم ، وعزمَ القومُ على الحرب بعد انقضاء المحرم ، ففي ذلك يقول حابس بن سعد الطائي صاحب راية معاوية (١) :

فما دونَ المنايا غيرُ سَبعٍ بقين من المحرم أو ثمانِ

ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث عليٌّ إلى أهل الشام : إني قد احتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، وإني قد نبذت إليكم على سَوَاء ، إن الله لايهدي كيد الخائنين ، فلم يردوا عليه جواباً إلا « السيفُ بيننا وبينَك أو يهلك الأعجزُ منا » .

(١) قاض من الصحابة . ولاه عمر قضاء حمص . شهد صفين مع معاوية وقتل فيها سنة ٣٧ هـ .

مبدأ الحرب : وأصبح علي يومَ الأربعاء – وكان أوّلَ يوم من صفر – فعبّأ الجيش ، وأخرج الأشتر أمام الناس ، وأخرج إليه معاويةُ – وقد تصافَّ أهلُ الشام وأهلُ العراق – حبيبَ بنَ مَسْلَمةَ الفهري (١) ، وكان بينهم قتال شديد سائر يومهم ، وأسفرت عن قتلى من الفريقين جميعاً ، وانصرفوا .

فلما كان يومُ الخميس – وهو اليومُ الثاني – أخرجَ عليٌ هاشمَ بنَ عُتْبَةَ بن أبي وقاص الزهري المِرْقَال ، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص ، وإنما سمي المرقال لأنه كان يُرقِل في الحرب (٢) ، وكان أعورَ ذهبت عينُه يومَ اليرموك ، وكان من شيعة علي ، وقد أتينا على خبره في اليوم الذي ذهبت فيه عينُه ، وحسْنِ بلائه في ذلك اليوم ، في الكتاب الأوسط في فتوح الشام ، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السلمي وهو سفيان بن عوف ،

(١) حبيب بن مسلمة الفهري : (ت ٤٢ هـ) قائد من كبار الفاتحين . ولاه عثمان أذربيجان، وكان من قادة معاوية في صفين، ثم ولي أرمينيا وتوفي فيها .

(٢) أي يسرع .

وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن علي ، فكانت بينهم الحرب سِجالاً ، وانصرفوا في آخر يومهم عن قتلى كثيرة .

وأخرجَ عليٌّ في اليوم الثالث — وهو يوم الجمعة — أبا اليقظان عمارَ بنَ ياسر في عِدَّةٍ من البدريين وغيرهم من المهاجرين والانصار فيمن تَسرَّع معهم من الناس ، وأخرج إليه معاوية عمرو بنَ العاص في تَنُوخَ وبَهرْاء وغيرِهما من أهل الشام ، فكانت بينهم سِجالاً إلى الظهر ، ثم حَمَلَ عمارُ بنُ ياسر فيمن ذكرنا ، فأزال عَمراً عن موضعه وألحقه بعسكر معاوية ، وأسفرت عن قتلى كثيرةٍ من أهل الشام ودونهم من أهل العراق .

وأخرج علي في اليوم الرابع — وهو يوم السبت — ابنَه محمدَ بنَ الحنفيَّة في هَمْدانَ وغيرِها ممن خَفَّ معه من الناس ، فأخرج إليه معاويةُ عبيدَالله بنَ عُمَرَ ابنِ الخطاب (١) في حِمْيَرَ ولَخْم وجُذَام ، وقد كان

---

(١) عبيد الله بن عمر : (ت ٣٧ هـ) قرشي صحابي من أنجاد قريش وفرسانهم . غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد ، شهد صفين مع معاوية وقتل فيها .

عُبَيْدُ الله بنُ عُمَرَ لحق بمعاويةَ خوفاً من عليّ أن يُقيدَهُ بالهرمزان – وذلك أنَّ أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة قاتل عمر، وكان في أرض العجم غلاماً للهُرْمزان، فلما قُتل عُمَرُ شدَّ عبيد الله علىَ الهُرمُزان فقتله، وقال : لا أترك بالمدينة فارسياً ولا في غيرها إلا قتلتُه بأبي، وكان الهُرمُزانُ عليلاً في الوقت الذي قتل فيه عمر – فلما صارت الخلافةُ إلى عليّ أراد قَتْلَ عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظُلماً من غير سبب استحقه، فلجأ إلى معاوية، فاقتتلوا في ذلك اليوم، وكانت علىَ أهل الشام، ونجا ابنُ عمر في آخر النهار هَرَباً.

وأخرَجَ عليٌّ في اليوم الخامس – وهو يوم الأحد – عبدَالله بنَ العباس، فأخرجَ إليه معاويةُ الوليدَ بنَ عُقْبةَ ابنِ أبي مُعيْط (١)، فاقتتلوا وأكثرَ الوليدُ من سَبِّ بني عبدِ المطلب بن هاشم، فقاتله ابنُ عباس قتالاً

---

(١) الوليد بن عقبة : (ت ٦١ هـ) أموي قرشي وال من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم من أنصار معاوية . مات بالرقة .

شديداً ، وناداه : ابرز إلي ياصفوانُ ، وكان لقبَ الوليدِ ، وكانت الغَلَبةُ لابن عباس ، وكان يوماً صعباً .

وأخرج عليٌّ في اليوم السادس — وهو يومُ الاثنين — سعيدَ بنَ قيس الهمداني (١) ، وهو سيِّدُ هَمْدانَ يومئذٍ ، فأخرج إليه معاوية ذا الكَلاع (٢) ، وكانت بينهما إلى آخر النهار ، وأسفرت عن قتلى ، وانصرف الفريقان جميعاً .

وأخرج عليٌّ في اليوم السابع — وهو يوم الثلاثاء — الأشترَ في النَخَع وغيرهم ، فأخرج إليه معاويةُ حبيبَ ابنَ مَسْلمَةَ الفِهْري ، فكانت الحرب بينهم سِجالاً ، وصبر كلا الفريقين وتكافؤوا وتواقفوا للموت

---

(١) فارس من الدهاة من سلالة ملوك همدان ومن خواص علي . كان إليه أمر همدان بالعراق توفي نحو ٥٠ هـ .

(٢) هو سميفع بن ناكور : من ملوك اليمن ، أسلم ولم ير النبي (ص) وشهد اليرموك وفتح دمشق . ثم سكن حمص وقاد أهلها في صفين مع معاوية وقتل بها سنة ٣٧ هـ .

ثم انصرف الفريقان وأسفرت عن قتلى منهما ، والجراح في أهل الشام أعم :

خروج علي للقتال : وخرج في اليوم الثامن — وهو يوم الأربعاء — عليٌّ رضي الله تعالى عنه بنفسه في الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعةَ وهَمْدانَ .

قال ابنُ عباس : رأيتُ في هذا اليوم علياً وعليه عِمامةٌ بيضاء ، وكأن عينيه سراجَا سَليطٍ (١) ، وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم يحثُّهم ويحرضهم ، حتى انتهى إليّ وأنا في كثيف من الناس ، فقال : يامعشرَ المسلمين ، غُضّوا الأصوات ، وأكملوا اللأمة ، واستشعروا الخشية ، وأقلقوا السيوفَ في الأجفان قبل السَلَّة ، والحظوا الشزْر ، واطعنوا الهَبْر(٢) ، ونافحوا بالظبا ، وصِلوا السيوفَ بالخطا والنِّبال بالرماح ، وطِيبوا عن أنفسكم أنفساً ؛ فإنكم بعين الله ، ومع ابن عم رسول الله ، عاودوا

(١) السليط : الزيت عند عامة العرب .
(٢) الهبر : القطع .

الكرَّ ، واستقبحوا الفرَّ ، فإنه عارٌ في الأعقاب ، ونارٌ يومَ الحساب ودونكم هذا السوادَ الأعظم ، والرُّواقَ المطنَّب ، فاضربوا ثَبَجَه فإن الشيطان راكبٌ صعيده ، مفترش ذراعيه ، قد قدَّم للوثبة يداً وأخَّرَ للنكوص رجلاً ، فصبراً جميلاً حتى تنجلي عن وجه الحق ، وأنتمُ الأعلَوْنَ واللهُ معكم ولَنْ يَتِرَكم(١) أعمالَكم.

وتقدم عليٌّ للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشَّهباء، وخرج معاويةُ في عدد أهل الشام، فانصرفوا عند المساء وكلٌّ غيرُ ظافر .

وخرج في اليوم التاسع — وهو يوم الخميس — عليٌّ ، وخرجَ معاويةُ فاقتتلوا إلى ضَحْوة من النهار ، وبرزَ أمامَ الناس عُبيدُ الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من الخُضَرِيَّة مُعمَّمين بشقاق الحرير الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان ، وابن عمر يَقْدُمُهم وهو يقول :

---

(١) لن يتركم : لن ينقصكم .

أنا عُبيدُ الله ينميني عُمر

خيرُ قريشٍ مَنْ مَضى ومن غَبَر

غيرَ نبيِّ اللهِ والشيخِ الأغر

قد أبطأت في نصرِ عثمانَ مُضرْ

والربعيون ، فلا أسقوا المطر

فناداه علي : ويحك يا بنَ عمر ، علامَ تُقاتلني ؟ والله لو كان أبوك حيّاً ماقاتلني ، قال : أطالب بدم عثمان ، قال : أنت تطلب بدم عثمانَ ، واللهُ يَطلبُك بدمِ الهُرمُزان ، وأمر عليٌّ الأشترَ النخعي بالخروج إليه ، فخرج الأشتر اليه وهو يقول :

إني أنا الأشترُ معروف السِّير

إني أنا الأفعى العراقيُّ الذَكر

لستُ من الحيِّ ربيعٍ أو مضر

لكنني من مَذْحِجِ البيضِ الغُرر

فانصرف عنه عبيدُ الله ولم يبارزه ، وكثُرت القتلى يومئذ .

عمار بن ياسر : وقال عمارُ بن ياسر : إني لأرى وجوهَ قومٍ لا يزالون يقاتلون حتى يرتابَ المبطلون ، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَات هَجَر (١) لكنا على الحق وكانوا على الباطل .

وتقدم عمار فقاتل ثم رجع إلى موضعه فاستسقى ، فأتته امرأة من نساء بَني شيبان من مصافهم بعُسّ (٢) فيه لبن ، فدفعته إليه ، فقال : الله أكبر الله أكبر ، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة ، صَدَقَ الصادق ، وبذلك أخبرني الناطق ، وهو اليوم الذي وُعِدْتُ فيه ، ثم قال : أيها الناس ، هل من رائح إلى الله تحت العوالي ؟ والذي نفسي بيده لَنُقَاتِلَنَّهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله
فاليومَ نَضربُكمُ على تأويله

---

(١) هجر : ناحية البحرين كلها . وهو اسم لقصبتها .
(٢) العس : القدح أو الإناء الكبير .

ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عن مقيلِه
ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله
أو يرجعَ الحقُّ إلى سبيله

فتوسَّط القوم ، واشتبكت عليه الأسنة ، فقتله أبو العادية العاملي وابن جَوْن السكسكي ، واختلفا في سلبه ؛ فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال لهما : اخرجا عني ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، أو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وولعت قريش بعمار « مالهم ولعمار ؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . وكان قتله عند المساء وله ثلاثٌ وتسعون سنة ، وقبره بصفين ، وصلى عليه عليٌّ عليه السلام ولم يغسله ، وكان يُغيِّرُ شَيبتَه . وقد تُنوزِعَ في نسبه فمن الناس من ألحقه ببني مخزوم ، ومنهم من رأى أنه من حُلفائهم ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وقد أتينا على خبره في كتاب « مزاهر الأخبار وطرائف الآثار » .

مقتل عبيد الله بن عمر : وكان عُبَيدُ الله بن عمر إذا خرج إلى القتال قام إليه نساؤه فشددْنَ عليه سلاحه ،

ماخلا الشَّيبانية بنت هانىء بن قَبيصة (١) ، فخرج في هذا اليوم ، وأقبل على الشيبانية ، وقال لها : إني قد عبأت اليومَ لقومك ، وايم الله إني لأرجو أن أربط بكل طُنب من أطناب فسطاطي سَيّداً منهم ، فقالت له : ماأبغض إلا أنْ تُقاتِلَهم ، قال : ولم ؟ قالت : لأنه لم يتوجَّه إليهم صنديد في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه صعَرٌ (٢) إلا أبادوه ، وأخافُ أن يقتلوك ، وكأني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يَهَبوا لي جيفتك ، فرماها بقوس فشجَّها ، وقال لها : ستعلمين بمن آتيك من زُعماء قومك ، ثم توجه فحمل عليه حريث بن جابر الجعفي فطعنه فقتله ، وقيل : إن الأشتر النخعي هو الذي قتله ، وقيل : إن علياً ضربه ضربةً فقطع ماعليه من الحديد حتى خالط سيفه حُشوةَ جوفه ، وإن علياً قال حين هَربَ فطلبه ليُقيدَ منه بالهُرمُزان : لئن فاتني في هذا اليوم لايفوتني في غيره ،

---

(١) هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيباني : أحد الشجعان الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي . قيل : أدرك الإسلام ومات بالكوفة وقيل : لم يدرك الاسلام وهو المرجح .

(٢) صعر : تيه وكبر .

وكلّم نساؤه معاويةَ في جيفته ، فأمر أن تأتين ربيعةَ فتبذلن في جيفته عشَرةَ آلاف ، ففعلن ذلك ، فاستأمرت ربيعةُ علياً ، فقال لهم : انما جيفته جيفةُ كَلْبٍ لايَحِلُّ بَيْعُها ، ولكن قد أجبتهم إلى ذلك ؛ فاجعلوا جيفتَه لبنت هانىء بن قبيصة الشيباني زوجتهِ ، فقالوا لنسوة عبيدِ الله : إنْ شئتن شددناه إلى ذنب بغل ثم ضربناه حتى يدخل إلى عسكر معاوية ، فصرخن وقلن : هذا أشَدُّ علينا ، وأخبرنَ معاويةَ بذلك ، فقال لهنَّ : ائتوا الشيبانية فسلوها أنْ تكلّمهم في جيفته ، ففعلن ، وأتت القومَ وقالت : أنا بنتُ هانىء بن قبيصة ، وهذا زوجي القاطع الظالم وقد حذرتهُ ماصار إليه فهبوا إلي جيفتَه ففعلوا ، وألقت إليهم بمُطرَفٍ (١) خز فأدرجوه فيه ودفعوه إليها فمضت به ، وكان قد شُدَّ في رِجله إلى طُنُبِ فِسطاط من فساطيطهم .

ولما قُتِلَ عمَّارُ ومن ذكرنا في هذا اليوم حرَّضَ عليٌّ عليه السلام الناسَ وقال لربيعةَ : أنتم درعي ورمحي ،

---

(١) مطرف : رداء .

فانتدب له مابين عشرة آلاف إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم ، قد جادوا بأنفسهم لله عز وجل ، وعليٌّ أمامهم على البغلة الشهباء ، وهو يقول :

من أي يوميَّ من الموتِ أفِر
أيومَ لم يُقدر أم يوم قُدِر

وحَمَلَ وحملوا معه حملةَ رجلٍ واحد ، فلم يبقَ لأهل الشام صفٌّ إلا انتُقض ، وأهمدوا كلَّ ماأتَوا عليه ، حتى أتَوا إلى قُبَّةِ معاوية ، وعليٌّ لا يمرُّ بفارس إلا قَدَّه وهو يقول :

أضربُهُم ولا أرى معاويه
الأخزرَ العين العظيمَ الحاويه (١)
تهوي به في النار أمٌّ هاويه

وقيل : إن هذا الشعر لبديل بن ورقاء(٢) ، قاله في ذلك اليوم .

---

(١) الخزر : كسر العين بصرها خلقة . أو ضيقها وصغرها . والعظيم الحاوية : العظيم البطن .

(٢) بديل بن ورقاء : زعيم بني خزاعة وهي قبيلة كانت تسكن بالقرب من مكة وكانت قد حالفت الرسول (ص) بعد صلح الحديبية .

ثم نادى عليٌّ : يامعاوية ، علامَ يُقتَل الناسُ بيني وبينك ؟ هَلُمَّ أحاكِمْكَ إلى الله فأيُّنا قَتَلَ صاحِبَهُ استقامت له الأمور ، فقال له عمرو : قد أنصفك الرجلُ ، فقال له معاوية : ماأنصفتَ ، وإنك لَتعلَمُ أنه لم يبارزْه رجلٌ قطُّ إلا قَتَلَه أو أسَره ، فقال له عمرو : وما يَجمُلُ بك إلا مبارزتُه ، فقال له معاوية : طَمِعتَ فيها بعدي ، وحَقَدَها عليه .

. . . . .

خدعة رفع المصاحف : وكان الأشتر في هذا اليوم — وهو يوم الجمعة — على مَيمنة عليّ ، وقد أشرف على الفتح ، ونادت مَشْيَخةُ أهل الشام : يامَعشرَ العرب اللهَ اللهَ في الحُرمات والنساء والبنات ، وقال معاويةُ : هَلُمَّ مخبآتِك يا بنَ العاص فقد هَلَكْنا ، وتذكَّر ولايةَ مِصْر ، فقال عمرو : أيُّها الناس ، من كان معه مُصحفٌ فليرفَعْه على رُمحه ، فكثُر في الجيش رفعُ المصاحف ، وارتفعت الضجَّةُ ونادوا : كتابُ الله بيننا وبينكم ، مَن لِثغور الشام بعدَ أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد أهلِ العراق ؟ ومن لجهاد

الروم ؟ ومَنْ للترك ؟ ومن للكفار ؟ ورُفِعَ في عسكر معاويةَ نحوٌ من خمسمائة مُصحف ، وفي ذلك يقول النجاشيُّ بنُ الحارث (١) :

فأصبح أهلُ الشام قد رفعوا القَنـــا
عليها كتابُ الله خـيرُ قُرانِ
ونادَوا علياً : يا بن عَمِّ مُحمَّـدٍ
أمـا تتّقي أن يهلِـكَ الثقَلانِ ؟(٢)

فلما رأى كثيرٌ من أهلِ العراق ذلك قالوا : نُجيبُ إلى كتابِ الله ونُنيب إليه ، وأحبَّ القومُ الموادعة ، وقيل لعلي : قد أعطاك معاويةُ الحقَّ ، ودعاك إلى كتاب الله فاقبلْ منه ، وكان أشدَّهم في ذلك اليوم الأشعثُ ابن قَيس ، فقال علي : أيها الناس ، إنه لم يزل من أمركم ماأُحب حتى قرَحتكم الحربُ ، وقد والله أخذَتْ منكم

---

(١) النجاشي بن عمرو الحارثي : (ت ٤٠ هـ) شاعر من اليمن ناصر علياً في صفين كان سكيراً فطرده ولجأ إلى معاوية ثم عاد إلى اليمن ومات فيها .

(٢) الثقلان : الإنس والجن .

وتَرَكت ، وإني كنتُ بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً ، وقد أحببتم البقاءَ ، فقال الأشتر : إنَّ معاويةَ لاخَلَفَ له من رجاله ، ولك بحمد الله الخَلَفُ، ولو كان له مِثْلُ رجالك لما كان له مِثلُ صبرك ولانصرك ، فاقرعِ الحديدَ بالحديد واستعِنْ بالله ، وتكلَّم رؤساءُ أصحابِ علي بنحوِ من كلامِ الأَشتر ، فقال الأشعثُ بنُ قيس : إنالك اليوم على ماكنا عليه أمسِ ، ولسنا ندري مايكون غداً ، وقد والله فُلَّ الحديدُ، وكلَّت البصائر، وتكلم معه غيره بكلام كثير، فقال علي: ويحكم إنهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولايعلمون بها ، وما رفعوها لكم إلا خديعةً ودهاءً ومَكيدة ، فقالوا له : إنه مايسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نَقبَله ، فقال : ويحكم إنما قاتلتُهم ليَدينوا بحكم الكتاب ، فقد عَصَوْا اللهَ فيما أمرهم به ، ونبذوا كتابَهُ ، فامضوا على حقِّكم وقصدِكم ، وخذوا في قتال عدوِّكم ؛ فإن معاويةَ وابنَ العاص وابنَ أبي مُعَيْط وحبيبَ بن مَسلمة وابنَ النابغة وعدداً غيرَ هؤلاء ليسوا بأصحاب دِين ولا قرآن ، وأنا أعرفُ بهم منكم ؛ صحبتهم أطفالاً

ورجالاً ، فهم شرٌّ أطفالٍ ورجالٍ ، وجرى له مع القوم خطبٌ طويل قد أتينا ببعضه ، وتهدّدوه أنْ يُصنَعَ به ماصُنِع بعثمان ؛ وقال الأشعثُ : إن شئتَ أتيتُ معاويةَ فسألته مايُريد ، قال : ذلك إليك فأتِه إن شئت ، فأتاه الأشعث فسأله ، فقال له معاوية : نَرجِعُ نحن وأنتم إلى كتابِ الله وإلى ماأمَرَ به في كتابه : تبعثون منكم رجلاً تَرضونه وتختارونه ، ونَبعثُ برجل ، ونأخذ عليهما العهدَ والميثاقَ أنْ يعملا بما في كتاب الله ولايَخرجا عنه ، وننقادُ جميعاً إلى مااتفقا عليه من حكم الله ، فصوَّبَ الأشعثُ قولَه ، وانصرف إلى علي ، فأخبره ذلك ، فقال أكثرُ الناس : رضينا وقبلنا وسَمِعنا وأطعنا ، فاختارَ أهلُ الشام عمرَو بنَ العاص ، وقال الأشعثُ ومَن ارتدَّ بعد ذلك إلى رأي الخوارج : رَضينا نحنُ بأبي موسى الأشعري فقال علي : قد عصيتموني في أوَّلِ هذا الأمرِ فلا تَعصوني الآنَ ، إني لاأرى أن أُوَلّيَ أبا موسى الأشعري ، فقال الأشعثُ ومن معه : لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري ، قال : وَيْحكم ! هو ليس بثقةٍ ، قد فارقني وخَذَّل الناسَ مني (١) ، وفعل كذا وكذاً ،

(١) حرضهم على ترك معونتي .

وذكر أشياءَ فعلها أبوموسى ، ثم إنه هرب شهوراً حتى آمنته ، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك . فقال الأشعث وأصحابه : والله لايَحكُمُ فينا مُضَرِّيان ، قال عليٌّ : فالأشترُ ، قالوا : وهل هاجَ هذا الأمرَ إلا الأشتر ، قال : فاصنعوا الآن ماأردتم ، وافعلوا مابدا لكم أنْ تفعلوه ، فبعثوا إلى أبي موسى وكتبوا له القصة ، وقيل لأبي موسى : إن الناسَ قد اصطلحوا ، فقال : الحمدُ لله ، قيل : وقد جعلوك حكماً ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

التقاء الحكمين : وفي سنة ثمانٍ وثلاثين كان التقاءُ الحكمين بدُومةِ الجندل ، وقيل : بغيرها على ماقدمنا من وَصفِ التنازع في ذلك ، وبَعثَ عليٌّ بعبدِ الله بنِ العبّاس وشريح بن هانيء الهمداني (١) في أربعمائة رجل فيهم أبوموسى الأشعري ، وبَعَثَ معاويةُ بعمرو بنِ العاص

---

(١) شريح بن هانيء : راجز شجاع ، من مقدمي أصحاب علي ومن أمراء جيشه يوم الجمل . قتل غازياً بسجستان سنة ٧٨ هـ .

ومعه شُرَحْبيلُ بنُ السِّمط (١) في أربعمائة ، فلما تدانى القومُ من الموضع الذي كانَ فيه الاجتماعُ قال ابنُ عبَّاس لأبي موسى : إن علياً لم يرضَ بكَ حَكَماً لفضلٍ عندك والمتقدمون عليك كثيرٌ ، وإن الناس أبَوا غيرَك ، وإني لأظنُّ ذلك لشرٍّ يُرادُ بهم ، وقد ضَمَّ داهيةَ العرب معك ، إن نَسيتَ فلا تنسَ أنَّ علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خَصْلَةٌ تُباعدُه من الخلافة ، وليس في معاويةَ خَصْلَةٌ تُقرِّبهُ من الخلافة . ووَصَّى معاويةُ عَمْراً حين فارقَه وهو يُريدُ الاجتماعَ بأبي موسى ، فقال : ياأبا عبد الله ، إنَّ أهلَ العراقِ قد أكرهوا عَلِيّاً على أبي موسى ، وأنا وأهلُ الشام راضونَ بك ، وقد ضُمَّ إليك رَجلٌ طويلُ اللسانِ قصيرُ الرأي ، فأَخِّرِ الحزَّ ، وطَبِّقِ المَفْصِل ، ولا تَلْقَه برأيِك كلِّه ، ووافاهم سعدُ بنُ أُبي

---

(١) شرحبيل بن السمط : وال من القادة الشجعان ، له صحبة . شهد القادسية وفتوح الشام وقاتل في حروب الردة . وشهد صفين مع معاوية ثم ولي حمص . مات نحو ٤٠ هـ .

وقّاص وعبدُ الله بنُ عمرو (١) وعبدُ الرحمن بنُ عوف الزهري والمُغيرة بن شُعْبَة الثَّقَفِي وغيرُهم ، وهؤلاء ممن قَعَدَ عن بَيْعَةِ علي ، في آخرين من الناس . وذلك في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين ، فلما التقى أبوموسى وعمرو قال عمرو لأبي موسى : تَكَلّم وقُلْ خيراً ، فقال أبوموسى : بل تكلم أنت ياعمرو ؛ فقال عمرو : ماكنت لأفعلُ وأُقدّم نفسي قَبلَك ، ولك حقوقٌ كلُّها واجبةٌ لِسِنِّك وصُحْبَتك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتَ ضيفٌ ، فحَمِدَ اللهَ أبوموسى وأثنى عليه ، وذَكَرَ الحدَثَ الذي حَلَّ بالإسلام ، والخلافَ الواقعَ بأهله ، ثم قال : ياعمرو : هَلُمَّ إلى أمرٍ يجمعُ اللهُ به الألفةَ ، ويَلُمُّ الشَعَثَ ، ويُصالِحُ ذاتَ البَين ، فجزّاه عمرو خيراً ، وقال : إنّ للكلام أولاً وآخراً ، ومتى تنازعنا الكلامَ خُطَباً لم نبلغْ آخرَه حتى ننسى أوّله ، فاجعل ماكانَ من كلامٍ بيننا في كتابٍ يَصيرُ

(١) هو عبدالله بن عمرو بن العاص : (٧ ق . هـ - ٦٥ هـ) صحابي من النساك من أهل مكة كان يحسن السريانية وكان من كتاب الجاهلية . وشهد صفين مع معاوية . ثم ولاه الكوفة .

إليه أمرُنا ، قال : فاكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، وكان الكاتبُ غلاماً لعمرو ، فتقدَّمَ إليه ليبدأَ به أولاً دون أبي موسى ؛ لما أراد من المكر به ، ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فإنك شاهد علينا ، ولاتكتب شيئاً يأمرك به أحدُنا حتى تستأمرَ الآخرَ فيه ، فإذا أمرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمعَ رأيُنا ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماتقاضى عليه فلان وفلان فكتب ، وبدأ بعمرو ، فقال له عمرو : لاأم لك ! أتقدمني قبله كأنك جاهلٌ بحقه ؟ فبدأ باسم عبد الله بن قيس (١) ، وكتب : تقاضيا على أنهما يشهدان أنَّ لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كلِّه ولوكره المشركون ، ثم قال عمرو : ونشهدُ أنَّ أبابكر خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عَمِلَ بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قَبضَه اللهُ إليه ، وقد أدَّى الحقَّ الذي عليه ، قال أبوموسى : اكتب ، ثم قال في عمر مثل ذلك ، فقال أبوموسى : اكتب ، ثم قال عمرو : واكتب « وأن عثمان

---

(١) هو أبوموسى الأشعري وقد سبقت ترجمته .

وَلِيَ هذا الأمرَ بعد عُمَرَ على إجماعٍ من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورِضاً منهم ، وأنّه كان مؤمناً ، فقال أبوموسى الأشعري : ليس هذا مما قعدنا له ، قال عمرو : والله لابُدّ من أن يكونَ مؤمناً أو كافراً ، فقال أبوموسى : كان مؤمناً ، قال عمرو : فَمُرْه يكتب : قال أبوموسى : اكتب ، قال عمرو : فظالماً قُتِلَ عثمانُ أو مظلوماً ، قال أبوموسى : بل قُتِلَ مظلوماً ، قال عمرو : أفليس قد جَعَل الله لولي المظلوم سلطاناً يَطلُبُ بدمه ؟ قال أبوموسى : نعم ، قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وَلياً أولى من معاوية ؟ قال أبوموسى : لا ، قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلبَ قاتله حيثما كان حتى يقتلَهُ أو يَعجزَ عنه؟ قال أبو موسى : بلى ، قال عمرو للكاتب : اكتب ، وأمره أبوموسى فكتب ، قال عمرو : فإنا نُقيمُ البيِّنةَ أن علياً قتَلَ عثمانَ ، قال أبوموسى : هذا أمْرٌ قد حَدَثَ في الإسلام ، وإنما اجتمعنا لغيره ، فهلُمّ إلى أمرٍ يُصلِح اللهُ به أمرَ أمةِ محمد ، قال عمرو : وما هو ؟ قال : أبوموسى : قد علمتَ أنّ أهلَ العراق لايُحبون معاويةَ أبداً ،

وإن أهل الشام لايُحبون علياً أبداً ، فهلُم نَخلَعْهما جميعاً ونَستخلِف عبدَ الله بنَ عمر (١) ؟ وكان عبدُ الله ابنُ عمر على بنت أبي موسى ، قال عمرو : أيفعل ذلك عبدالله بن عمر ؟ قال أبوموسى : نعم إذا حمَلَه الناس على ذلك فعل ، فعمَدَ عمرو إلى كل مامال إليه أبوموسى فصوَّبه ، وقال له : هل لك في سعد ؟ قال له أبوموسى : لا ، فعدَّد له عمرو جماعةً وأبوموسى يأبى ذلك إلا ابنَ عمر ، فأخذ عمرو الصحيفةَ وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعاً ، وقال عمرو : أرأيت إن رضيَ أهلُ العراق بعبد الله بن عمر ، وأباه أهلُ الشام أتقاتلُ أهلَ الشام ؟ قال أبوموسى : لا ، قال عمرو : فإن رضي أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهلَ العراق ؟ قال أبوموسى : لا ، قال عمرو : أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فاخطُبِ الناس ، واخلعْ صاحبينا معاً وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه ، فقال أبوموسى : بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك ،

---

(١) عبدالله بن عمر بن الخطاب : سبقت ترجمته .

قال عمرو : ماأُحبُّ أن أتقدمَكَ ، وما قولي وقولك للناس إلا قول واحد ، فقم راشداً .

تمام الخدعة : فقام أبو موسى فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقربَ مايحضرنا من الأمنِ والصلاح ولمِّ الشَّعثِ وحقْنِ الدماء وجمعِ الأُلفة خَلْعنَا علياً ومعاويةَ ، وقد خَلَعتُ علياً كما خلعتُ عِمامتي هذه ، ثم أهْوى إلى عِمامته فخلعها ، واستخلفنا رجلاً قد صَحِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ، فبرّزَ في سابقته ، وهو عبدُ الله بنُ عمر ، وأطراه ، ورَغّبَ الناس فيه ، ثم نزل .

فقام عمرو فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، إن أبا موسى عبدَ الله بنَ قيسٍ قد خلع علياً وأخرجه من هذا الأمر الذي يَطلُبُ ، وهو أعلمُ به ، ألا وإني قد خَلَعتُ عَلياً معه ، وأثبتُّ معاويةَ عليَّ وعليكم ، وإن أبا موسى قد كتبَ في الصحيفة أن عثمانَ قد قُتِلَ مظلوماً شهيداً

وأنَّ لوليِّه سلطاناً أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صَحِبَ معاويةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصَحِبَ أبوه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وأطراه ، ورغَّب الناسَ فيه ، وقال : هو الخليفةُ علينا ، وله طاعتُنا وبَيعتُنا على الطَّلب بدمِ عثمانَ ، فقال أبو موسى : كذَبَ عمرو ، لم نستخلِفْ معاويةَ ، ولكنَّا خلعنا معاويةَ وعلياً معاً ، فقال عمرو : بل كذبَ عبدُ الله بنُ قيس ، قد خلع علياً ولم أخلعْ معاويةَ .

فلما انصرف أبو موسى انصرف عمرو بن العاص إلى منزله ، ولم يأتِ إلى معاوية ، فأرسل إليه معاوية يدعوه ، فقال : إنما كنت أجيئك إذ كانت لي إليك حاجةٌ ، فأما إذا كانت الحاجة إلينا فأنتَ أَحقُّ أن تأتينا ، فعلم معاويةُ ماقد دُفع إليه ، فخَمَّرَ الرأيَ (١) وأعملَ الحيلةَ ، وأمر معاويةُ بطعامٍ كثيرٍ فصُنِع ، ثم دعا بخاصته ومواليه وأهله ، فقال : إني سأغدو إلى عمرو فإذا دعوتُ بالطعام فَلْيَدْعُوا مواليَه وأهلَهُ ، فليجلسوا قَبْلَكم ، فإذا

---

(١) خمر الرأي : أخفاه وكتمه .

شَبِعَ رَجُلٌ منهم وقام فايجلس رَجُلٌ منكم مكانه ، فإذا خرجوا ولم يبقَ في البيت أحدٌ منهم فأغلقوا بابَ البيت ، واحذروا أن يدخلَ أحَدٌ منهم إلا أن آمركم .

غدر معاوية وخدعته لعمرو بن العاص : وغدا إليه معاويةُ وعمرو جالسٌ على فرشه ، فلم يَقُمْ له عنها ، ولا دعاه إليها فجاء مُعاويةُ وجلس على الأرض ، واتكأ على ناحيةِ الفراش ، وذلك أنّ عَمْراً كان يُحدّث نفسَه أنّه قد ملك الأمرَ وإليه العقد ، يضعُها فيمن يرى ، ويندُبُ للخلافة من يشاء ، فجرى بينهما كلام كثير ، وكان مما قال له عمرو : هذا الكتاب الذي بيني وبينه عليه خاتَمي وخاتَمهُ ، وقد أقر بأن عثمانَ قُتِلَ مظلوماً ، وأخرجَ علياً من هذا الأمر ، وعَرَض عليّ رجالاً لم أرَهم أهلاً لها ، وهذا الأمرُ إلى أن أستخلفُ من شئتهُ ، وقد أعطاني أهلُ الشام عُهودَهم ومواثيقَهم ، فحادثَه معاويةُ ساعةً وأخرجَه عما كانوا عليه ، وضاحَكَه وداعَبَه ، ثم قال : ياأبا عبدالله ، هل من غداء ؟ قال : أما والله شيءٌ يُشبِعُ من ترى فلا ، فقال معاويةُ : هَلُمَّ ياغلامي غَداءَك ؟ فجيء بالطعام المستعَدّ ، فوُضِعَ ،

فقال : ياأبا عبدالله ادعُ مواليَكَ وأهلَكَ ، فدعاهم . ثم قال له عمرو : وادعُ أنتَ أصحابَكَ ، قال : نعم يأكُلُ أصحابُكَ أولاً ثم يجلِسُ هؤلاءِ بعدُ ، فجعلوا كُلَّما قام رجلٌ من حاشيةِ عمرو قعد موضعَهُ رجلٌ من حاشية معاوية ، حتى خرجَ أصحابُ عمرو وبقي أصحابُ معاوية ، فقام الذي وكَّلَه بغلق الباب ، فأغلقَ الباب ، فقال له عمرو : فعلتَها ، فقال : إي والله بيني وبينك أمران فاختر أيَّهما شئتَ : البَيعةَ لي ، أو أقتلك ، ليس والله غيرهما ؛ قال عمرو : فأذَنْ لغلامي وردان حتى أُشاورَه وأنظرُ رأيَهُ ، قال : لاتَراه والله ولايَراك إلا قتيلاً أو على ماقلتُ لك ، قال : فالوفاءَ إذن بطُعمةِ مِصْرَ ، قال : هي لك ماعشتَ ، فاستوثق كلٌّ واحدٍ منهما من صاحبه ، وأحضر معاويةُ الخواصَّ من أهلِ الشام ، ومنعَ أن يدخلَ معهم أحدٌ من حاشية عمرو ، فقال لهم عمرو : قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحداً أقوى على هذا الأمر منه ، فبايعه أهلُ الشام وانصرف معاوية إلى منزله خليفةً .

بين عليّ وأصحابه : ولما بلغ علياً ما كان من أمر

أبي موسى وعمرو قال : إني كنت تقدمتُ إليكم في هذه الحكومة ونهيتُكم عنها ، فأبيتم إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبةَ أمركم إذا أبيتم علي ؟ والله إني لأعرف من حَمَلكم على خلافي والتَّرْكِ لأمري ، ولو أشاءُ أخذْتَه لفعلت ، ولكنّ اللهَ من ورائه ، يريد بذلك الأَشعثَ ابن قيس والله أعلم ، وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني خثعم (١) :

أمرتهمُ أمري بمنعرج اللـوى

فلم يستبينوا الرشد إلا ضُحى الغـد

مَن دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قَتَلَه اللهُ . ولو كانَ تحتَ عِمامتي هذه ، ألا إن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حَكَمَين قد تركا حُكْمَ الله ، وحَكَما بهوى أنفسهما بغير حُجَّةٍ ولا حقٍّ معروف ، فأماتا ما أحيا القرآن ، وأحْيَيَا ما أماته ، واختلفَ في حكمهما كلامُهما ، ولم يُرشِدهما اللهُ ولم يوفقهما ،

(١) البيت لدريد بن الصمة : (ت نحو ٧ هـ) وهو شاعر جاهلي وفارس من هوازن كان سيد بني جشم . أدرك الإسلام ولم يسلم .

فبرىء اللهُ منهما ورسولهُ وصالِحُ المؤمنين ، فتأهبوا للجهاد واستعدوا للمسير ، وأصبحوا في عساكركم ، إن شاء الله تعالى .

قال المسعودي : وقد اختلفت الفرق من أهل ملتنا في الحكمين ، وقالوا في ذلك أقاويل كثيرة ، وقد أتينا على ماذهبوا إليه في ذلك، وما قاله كل فريق منهم ، ومن أيد قوله من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من فرق هذه الأمة في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » .

* * *

ذكر حروبه رضي الله عنه مع أهل النهروان وما لحق بهذا الباب من مقتل محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه والأشتر النخعي ، وغير ذلك

اجتماع الخوارج ومسير علي إليهم : واجتمعت الخوارجُ في أربعة آلاف ، فبايعوا عبدَ الله بنَ وهب الراسبي(١) ، ولحقوا بالمدائن ، وقتلوا عبدَالله بنَ خُباب

(١) عبدالله بن وهب الراسبي : (ت ٣٨ هـ) أزدي من أئمة الإباظية. كان ذا علم ورأي وفصاحة وشجاعة. شهد فتوح العراق، وانحاز إلى علي، ثم خرج عليه بعد التحكيم . وقتل في وقعةالنهروان .

عامل علي عليها : ذبحوه ذبحاً ، وبقروا بطنَ امرأته وكانت حاملاً ، وقتلوا غيرَها من النساء ، وقد كان علي انفصل عن الكوفة في خمسةٍ وثلاثين ألفاً ، وأتاه من البصرة ، من قبل ابن عباس — وكان عامله عليها — عشرةُ آلاف فيهم الأحنفُ بنُ قيس وحارثةُ بنُ قُدامةَ السعدي ، وذلك في سنة ثمان وثلاثين ، فنزل عليٌّ الأنبارَ ، والتأمت إليه العساكر ، فخطب الناس وحرضهم على الجهاد ، وقال : سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قُدُماً ، فإنهم طالما سعوا في إطفاء نور الله ، وحرضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، إلا إن رسول الله أمرني بقتال القاسطين (١) وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم ، والناكثين (٢) وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم ، والمارقين ولم نلقهم بعد ، فسيروا إلى القاسطين ، فهم أهم علينا من الخوارج ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أرباباً . ويتخذون عبادَ الله خَوَلاً ، وما لَهم دُوَلاً ، فأبوا إلا أن يبدؤوا بالخوارج ، فسار عليٌّ إليهم ،

---

(٢) القسوط : الجور والعدول عن الحق .

(٣) الناكثون : الذين نقضوا العهد .

حتى أتى النهروان ، فبعث إليهم بالحارث بن مرة العبدي رسولاً يدعوهم إلى الرجوع ، فقتلوه ، وبعثوا إلى علي : إن تُبْتَ من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك ، وإن أبيتَ فاعتزلنا حتى نختارَ لأنفسنا إماماً فإنا منك بُرَآء ، فبعثَ إليهم عليٌّ : أنِ ابعثوا إلي بقَتَلة إخواني فأقتلهم ثم أتارككم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ، ولعل اللهَ يقلبُ قلوبَكم ، فبعثوا إليه : كلُّنا قَتَلَتُهُ أصحابك ، وكلُّنا مستحلٌّ لدمائهم ، مشتركون في قتلهم ، وأخبره الرسول — وكان من يهود السواد — أن القوم قد عبروا نهر طَبَرِستانَ وهذا النهر عليه قنطرة ، تعرف بقنطرة طَبَرِستان ، بين حلوان وبغداد ، من بلاد خُراسان ، فقال علي : والله ماعبروه ولايقطعونه ، حتى نقتلهم بالرُّمَيلةِ دونه ، ثم تواترت عليه الأخبار بقطعهم لهذا النهر ، وعبورهم هذا الجسر ، وهو يأبى ذلك ، ويحلفُ أنهم لم يعبروه ، وأن مصارعَهم دونه . ثم قال : سيروا إلى القوم ، فوالله لايُفلتُ منهم إلا عَشَرةٌ ، ولايُقتل منكم عشرةٌ ، فسار علي ، فأشرف عليهم ، وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرُّميلة

على حسب ماقال لأصحابه . فلما أشرف عليهم قال : الله أكبر ، صدق الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتصافَّ القوم ، ووقف عليهم بنفسه ، فدعاهم إلى الرجوع والتوبه ، فأبوا ورَموا أصحابه ، فقيل له : قد رمونا ، فقال : كفُّوا ، فكرروا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرُهم بالكف ، حتى أتيَ برجل قتيل متشحِّطٍ (١) بدمه ، فقال علي : الله أكبر ، الآنَ حَلَّ قتالُهم ، احملوا على القوم ، فحمل رجلٌ من الخوارج على أصحاب علي ، فجرح فيهم ، وجعل يغشى كل ناحية ، ويقول :

أضربهم ولو أرى علياً ألبسته أبيضَ مشرفياً

فخرج إليه علي رضي الله عنه ، وهو يقول :

يا أيُّهذا المبتغي علياً إني أراك جاهلاً شقيا

قد كنت عن كفاحه غنيا هَلُمَّ فابرز هاهنا إليَّا

وحمل عليه عليٌّ ، فقتله .

---

(١) متشحط بدمه : مضرج به .

ثم خرج منهم آخر ، فحمل على الناس ، ففتك فيهم ، وجعل يكر عليهم ، وهو يقول :

أضربهم ولو أرى أبا حَسَن
ألبسته بصارمي ثوبَ غَبن

فخرج إليه علي وهو يقول :

ياأيهذا المبتغي أبا حسن
إليك فانظر أينا يلقى الغبن

وحمل عليه علي وشكّه بالرمح وترك الرمحَ فيه ، فانصرف علي وهو يقول : لقد رأيت أبا حسن فرأيت ماتكره .

وحمل أبوأيوب الأنصاري على زيد بن حصن فقتله ، وقُتِل عبدالله بن وهب الراسبي (١) ، قتله هانىء بن حاطب الأزدي ، وزياد بن حفصة ، وقُتل حُرقوص

(١) من الأزد : من أئمة الإباضية . كان ذا علم ورأي وفصاحة ونسك . شهد فتوح العراق وكان مع علي في حروبه . ثم خرج عليه بعد التحكيم وقتل بالنهروان سنة ٣٨ هـ .

ابن زهير السعدي (١) ، وكان جماة من قتل من أصحاب علي تسعة ، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة ، وأتى علي على القوم ، وهم أربعة آلاف ، فيهم المخدَّج ذوالثُدَيَّة ، إلا من ذكرنا من هؤلاء العشرة ، وأمر علي بطلب المخدَّج ، فطلبوه ، فلم يقدروا عليه ، فقام علي عليه أثرُ الحزن لفقدِ المخدَّج ، فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض ، فقال : أفرجوا ، ففرجوا يميناً وشمالاً واستخرجوه . فقال علي رضي الله عنه : الله أكبر ، ما كذَبْتُ على محمد ، وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم ، طَرَفُها حَلَمةٌ مثلُ ثَدي المرأة ، عليها خمسُ شعرات أو سبع ، رؤوسها معقفة ، ثم قال : ائتوني به ، فنظر إلى عضده ، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة عليه شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذي بطن يده الأخرى ، ثم تترك فتعود إلى منكبه ، فثَنَى رجلَه ونزل وخر لله ساجداً .

---

(١) حرقوص بن زهير : صحابي من بني تميم ، يلقب بـ « ذي الخويصرة » شهد صفين مع علي ثم خرج عليه بعد التحكيم . قتل بالنهروان سنة ٣٨ هـ .

ثم ركب ومر بهم وهم صَرْعى ، فقال : لقد صرعكم مَنْ غركم ، قيل : ومن غرهم ؟ قال : الشيطانُ وأنفسُ السوء ، فقال أصحابهُ : قد قطع اللهُ دابِرَهم إلى آخرِ الدهر ، فقال : كلا والذي نفسي بيده ، وإنهم لفي أصلاب الرجال وأرحامِ النساء ، لاتخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلُها حتى تخرجَ خارجَةٌ بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الأشمط يخرج إليه رجلٌ منا أهلَ البيت فيقتله ، ولاتخرج بعدها خارجة إلى يوم القيامة .

ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه !

المؤامرة : وفي سنة أربعين اجتمع بمكةَ جماعة من الخوارج ، فتذاكروا الناس ، وماهم فيه من الحرب والفتنة ، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل عليّ ، ومعاويةَ ، وعمرِو بنِ العاص ، وتواعدوا ، واتفقوا على أن لايَنكُصَ رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه ، حتى يقتله

أو يُقتل دونه ، وهم عبدُ الرحمن بنُ مُلجَم(١) ، لعنه الله ! وكان من تُجِيب ، وكان عِدادُهم في مراد ، فنسب إليهم ، وحَجَّاج بنُ عبدالله الصريمي(٢) ، ولقبه : البُرَك ، وزادويه : مولى بني العنبر (٣) ، فقال ابن ملجم — لعنه الله ! — : أنا أقتل علياً ، وقال البُرَكُ : أنا أقتل معاوية ، وقال زادويه : أنا أقتل عمرَو بنَ العاص ، واتَّعدوا أن يكون ذلك ليلةَ سبعَ عشرة من شهرِ رمضانَ ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين .

ابنُ مُلجَم وقطام : فخرج عبد الرحمن بن مُلجَم المرادي إلى عليّ ، فلما قَدِمَ الكوفة أتى قَطام بنتَ عمه ، وكان علي قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، وكانت أجملَ أهلِ زمانها ، فخطبها ، فقالت : لاأتزوج

(١) عبد الرحمن بن ملجم المرادي التدؤلي الحميري : (ت ٤٠ هـ) فاتك ثائر من أشداء الفرسان أدرك الجاهلية وكان من أهل الفقه والعبادة شهد فتح مصر وكان من شيعة علي وخرج عليه بعد صفين. قتل وأحرق بعدقتله.

(٢) من بني سعد من تميم ، ثائر من أهل البصرة ، أول من عارض التحكيم. قتله معاوية سنة ٤٠ هـ .

(٣) خارجي انتدب لقتل عمرو بن العاص . قتل سنة ٤٠ هـ .

حتى تُسَمّي لي (١) ، قال : لاتسأليني شيئاً إلا أعطيته ، فقالت : ثلاثةَ آلافٍ وعبداً وقينة ، وقَتْلَ عليّ ، فقال : ماسألتِ هو لك مَهْرٌ إلا قتلَ علي ، فلا أراك تدركينه ، قالت : فالتمس غِرَّته (٢) ، فإن أصبته شفَيتَ نفسي ، ونفعك العيشُ معي ، وإن هلكْتَ فما عندَ الله خيرٌ لك من الدنيا ، فقال : والله ماجاءَ بي إلى هذا المصر وقد كنت هارباً منه إلا ذلك ، وقد أعطيتُكِ ماسألت ، وخرج من عندها وهو يقول :

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ
وقتلُ علي بالحسام المصمم (٣)
فلا مهرَ أغلى من علي وإن غلا
ولا فتكَ إلا دونَ فتكِ ابن مُلجَم

فلقيه رجلٌ من أشجع يقال له شَبيبُ بن نَجدة(٤)

---

(١) تجعل لي شيئاً معلوماً .
(٢) الغرة : الغفلة .
(٣) المصمم : القاطع .
(٤) هو شبيب بن بجرة : (وليس نجدة) خارجي من أهل الكوفة . اشترك مع ابن ملجم في قتل الإمام علي . توفي بعد ٤٠ هـ .

من الخوارج ، فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : تساعدُني على قتل عليّ ، قال : ثكلتك أُمُّك ! لقد جئت شيئاً إدّاً (١) ، قد عرفت غَنَاءه في الإسلام ، وسابقته مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال ابنُ مُلجَم : وَيحَك ! أما تعلم أنه قد حَكّم الرجال في كتاب الله ، وقتل إخوانَنا المصلين ؟ فنقتله ببعض إخواننا ، فأقبل معه حتى دخل على قَطام ، وهي في المسجد الأعظم ، وقد ضَربتْ كِلةً لها وهي معتكفةٌ يومَ الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، فأعلمتْهما أنَّ مُجاشعَ بنَ وردان بن علقمة قد انتُدِب لقتله معهما ، فدعت لهما بحرير فعصبتهما وأخذوا أسيافَهم وقعدوا مقابلين لباب السُدّةِ (٢) التي يخرج منها علي للمسجد، وكان علي يخرج كُلَّ غداةٍ أوّلَ الأذان يوقظ الناسَ للصلاة ، وقد كان ابنُ مُلجَم مرَّ بالأشعث وهو في المسجد فقال له : فضَحَكَ الصُّبْحُ ، فسمعها حُجرُ بنُ

---

(١) الإد : الأمر الفظيع .

(٢) السدة : باب الدار .

عَدي (١) ، فقال : قَتَلْتَه ياأعور قتلك الله ، وخرج علي رضي الله عنه ينادي : أيها الناس ، الصلاةَ ، فَشَدَّ عليه ابنُ مُلجَم وأصحابهُ وهم يقولون : الحكْمُ لله ، لا لكَ ، وضربَه ابنُ مُلجَمٍ على رأسه بالسيف في قَرنِه وأما شَبيبُ فوقعت ضربتهُ بعضادة الباب ، وأما مجاشع بن وردان فهرب ، وقال علي: لايفوتنكم الرجلُ. وشدَّ الناسُ على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ، ويتناولونه ويصيحون ، فضرب ساقَه رجلٌ من همدان برجاه ، وضرب المغيرةُ بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وَجْهَهُ فصرعه ، وأقبل به إلى الحسن ، ودخل ابنُ وردان بين الناس ، فنجا بنفسه ، وهرب شبيبُ حتى أتى رحلَه ، فدخل إليه عبد الله بن نجدة — وهو أحد بني أبيه — فرآه ينزعُ الحريرَ عن صدره ، فسأله عن **ذلك ،** فخبَّره خَبَرَه فانصرف عبد الله إلى رحله ، وأقبل إليه بسيفه فضربه حتى قتله .

---

(١) هو حجر بن عدي الكندي : من صلحاء الصحابة ، شهد فتوح فارس . وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي . قتله معاوية في مرج عذراء قرب دمشق سنة ٥١ هـ .

وقيل : إن علياً لم ينم تلك الليلة ، وإنه لم يزل يمشي بين الباب والحجرة ، وهـو يقول : والله ما كذبتُ ولا كذّبت ، وإنها الليلة التي وُعِدتُ فيها ، فلما خرج صاح بَطٌ كان للصبيان ، فصاح بهنّ بعض من في الدار ، فقال علي : ويحك ! دعهن فإنهُنّ نوائح .

سنه وفضله : وقُبِضَ وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة ، وقيل : اثنتان وستون ، وقد قدّمنا تنازعَ الناس في مقدار سنه ، وكان كما قال الحسن : والله لقد قُبِضَ فيكم الليلةَ رَجلٌ ماسبقه الأولون إلا بفضلِ النبوّة ، ولايُدركهُ الآخرون ، وإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعثَ فيكتنفه جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يَساره فلا يرجعُ حتى يفتحَ اللهُ عليه .

وكان الذي صلى عليه الحسنُ ابنهُ ، وكَبرّ عليه سبعاً ، وقيل غيرُ ذلك .

تركته : ولم يترك صفراءَ ولابيضاءَ إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يشتريَ بها خادماً لأهله ، وقال بعضهم : ترك لأهله مائتين وخمسين درهماً ومُصحفَه وسيفَه .

قتلهم بابن ملجم : ولما أرادوا قَتْلَ ابنَ مُلجَم لعنه الله ، قال عبدالله بن جعفر (١) : دعوني حتى أشفي نفسي منه ، فقطعَ يديه ورجليه وأحمى له مسماراً حتى إذا صارَ جَمرةً كَحلَهُ به ، فقال : سبحان الذي خلقَ الإنسانَ ، إنكَ لتَكحلُ عمَّكَ بِمُلمُولِ (٢) الرَّصاص ، ثم إنَّ الناسَ أخذوه وأدرجُوه في بواري (٣) ثم طَلَوها بالنِّفْط ، وأشعلوا فيها النارَ فاحترق .

البُركُ ومُعاوية : وانطلق البركُ الصَّريمي إلى معاوية فطعنَه بخَنجرٍ في أليته وهو يُصلي فأخذ وأُوقِفَ بين يديه ، فقال له : ويلك ! وما أنت ؟ وما خَبَرُكَ؟ قال : لاتَقتُلني ، وأخبره ، قال : إنا تبايعنا في هذه الليلة عليك وعلى عليّ وعلى عمرو ؛ فإن أردتَ فاحبسني عندك ، فإن كانا قُتِلا وإلا خَلَّيْتَ سبيلي فطابتُ قَتلَ عليّ ولك علي أن أقتلَه ، وأن آتيك حتى أضعَ يدي في يدك ، فقال بعض الناس : قَتَلَهُ يومئذٍ ، وقال بعضهُم : حبسه حتى جاءه خبر قتل علي فأطلقه .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

(٢) الململول : المكحل الذي يكتحل به .

(٣) البواري : ج بارياء وباريا : ضرب من الحصر .

زادويه وعمرو بن العاص : وانطلق زَادوَيْه — وقيل : إنه عمرو بن بكر التميمي — إلى عمرو بن العاص ، فوجدَ خارجةَ قاضي مصر (١) جالساً على السرير يُطعم الناسَ في مجلس عمرو ، وقيل : بل صلى خَارجةُ بالناس الغداةَ ذلك اليوم ، وتخلّف عمرو عن الصلاة لعارض ، فضربَهُ بالسيف ، فدخل عليه عمرو وبه رَمَقٌ ، فقال له خارجَةُ : والله ماأراد غيرَك ، فقال عمرو : ولكن اللهَ أرادَ خَارِجَةَ ، وأُوْقِفَ الرجلُ بين يدَي عمرو ، فسأله عن خبره ، فقصّ عليه القصةَ وأخبره أن علياً ومعاويةَ قد قُتِلا في هذه الليلة ، فقال : إن قُتِلا أو لم يُقْتَلا فلا بد من قَتْلِك ، فَبكى ، فقيل له : أ-َزَعاً من الموت مع هذا الإقدام ! ؟ قال : لا والله، ولكن غَمّاً أن يفوزَ صاحباي بقتلِ عليٍّ ومعاوية ولا افوزُ أنا بقتل عمرو ، فضُرِبَتْ عنقُهُ وصُلِب .

---

(١) خارجة بن حذافة : (ت ٤٠ هـ) صحابي قرشي عدوي من الشجعان ، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص وولي شرطته وقضاءه .

ذِكْر لُمَعٍ من كلامه ، وأخباره ، وزهده رضوان الله عليه

لم يلبس عليه السلام في أيامه ثوباً جديداً ، ولا اقتنى ضيعةً ولا رَبْعاً (١) ، إلا شيئاً كان له بِيَنْبُعَ مما تصدّق به وحَبَسَهُ .

والذي حَفِظَ الناسُ عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعُمائة خطبة ونيّف وثمانون خُطبة يُورِدُها على البديهة ؛ وتَداولَ الناسُ ذلك عنه قولاً وعملاً .

خيار العباد : وقيل له : من خيارُ العباد ؟ قال : الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤوا استغفروا ، وإذا أُعطُوا شكروا ، وإذا ابتُلوا صبروا ، وإذا أُغضِبوا غفروا .

وصف الدنيا : وكان يقول : الدنيا دار صدق لمن صَدَّقها ، ودارُ عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزوَّد منها ، الدنيا مَسجد أحباء الله ، ومُصلّى ملائكةِ الله ،

---

(١) الربع : الدار أو المحلة .

ومَهبِطُ وحيه ، ومَتْجَرُ أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، ومن ذا يذمها وقد آذنَتْ ببينها ، ونادت بفراقها ، ونَعتْ نفسَها وأهلَها ، ومَثَّلتْ لهم ببلائها البلاءَ ، وشَوَّقتْ بسرورها إلى السرور ، وراحت بفجيعة ، وابتكرت بعافية ؛ تحذيراً وترغيباً وتخويفاً ، فذمَّها رجالٌ غِبَّ الندامة (١) ، وحَمِدَها آخرون غِبَّ المكافأة ، ذَكَّرتْهم فذكروا تصاريفَها ، وصَدَقَتْهم فَصَدَّقوا حديثها ، فيا أيها الذَّامُّ للدنيا ، المغترُّ بغرورها ، متى استدامت لك الدنيا ؟ بل متى غرتك من نفسها ؟ أبمضاجع آبائك من البلى ؟ أم بمصارع أمهاتك من الثرى ؟ كم قد عَلَّلتَ (٢) بكفَّك ومَرَّضْتَ بيدك من تَبغي له الشفاءَ وتستوصفُ له الدواءَ من الأطباء ؟ لم تنفعه بشِفائك ، ولم تُسعِف له بطَلِبتِك ، قد مثَّلتْ لك به الدنيا نفسَك ، وبمصرعه مصرعَك ، غداً لاينفعُك بكاؤك ، ولايغني عنك أحباؤك . ولا تسمع في مدح الدنيا أحسن من هذا .

وصف علي عند معاوية : ودخل ضرار بن ضمرة ــ

---

(١) غب كل شيء : عاقبته .
(٢) علله : عالجه من علته .

وكان من خواص علي — على معاوية وافداً ، فقال له : صِف لي علياً ، قال : أعفِني ياأميرَ المؤمنين ، قال معاوية : لابُدَّ من ذلك ، فقال : أما إذا كان لابد من ذلك فإنه كان والله بعيدَ المدَى ، شديد القُوى ، يقول فصْلاً ، ويحكمُ عدلاً ، يتفجَّرُ العِلمُ من جوانبه ، وتنطقُ الحكمة من نواحيه ، يُعجبه من الطعام ماخَشُنَ ، ومن اللباس ماقَصُرَ ، وكان واللهِ يُجيبنا إذا دعوناه ، ويعطينا إذا سألناه ، وكنا والله — على تقريبه لنا وقربه منا — لانكلِّمهُ هَيبةً له ، ولا نبتدئه لعِظَمِهِ في نفوسنا ، يَتبسم عن ثَغْرٍ كاللؤلؤ المنظوم ، يُعظِّمُ أهلَ الدين ، ويَرحَم المساكين ، ويُطعِمُ في المسْغَبة يتيماً ذا مَقْرَبة أو مِسكيناً ذا مَترَبة (١) ، يكسو العُريان ، وينصر اللهفان ، ويستوحش من الدنيا وزهرتِها ، ويأنس بالليل وظُلمته ، وكأني به وقد أرخى الليلُ سدُولَه ، وغارت نجومُه ، وهو في محرابه قابض على لحيته يتململ تململَ السليم ، ويبكي بُكاء الحزين ويقول : يادنيا غرّي غيري ، ألي تعرَّضتِ

---

(١) المسغبة : الجوع . والمتربة : الفاقة .

أم إليّ تشوّفتِ ؟ هيهاتَ هيهاتَ ! ! لاحان حيْنُكِ(١) ، قد أبنتكِ ثلاثاً لارَجعةَ لي فيكِ ، عمرُكِ قصير ، وعيشُكِ حقير ، وخطَرُكِ يسير ، آهٍ من قلةِ الزاد وبُعْدِ السفَرِ ووحشةِ الطريق .

ذكر

خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

ثم بويع الحسنُ بنُ علي بن أبي طالب بالكوفة بعد وفاة علي أبيه بيومين ، في شهر رمضان من سنة أربعين ، ووجّه عمالَه إلى السواد والجبل .

وقتَل الحسنُ عبدَ الرحمن بنَ مُلْجَم ، على حسب ماذكرنا ، ودخل معاويةُ الكوفةَ بعد صُلحِ الحسن بن علي ، لخمس بقين من شهر ربيع الأول في سنة إحدى وأربعين .

وكانت وفاةُ الحسن — وهو يومئذٍ ابنُ خمسٍ وخمسين سنة — بالسُّم ودفن بالبقيع (٢) مع أمه فاطمةَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ولي التوفيق .

---

(١) الحين : الهلك .

(٢) البقيع : مقبرة بالمدينة المنورة .

ذكر لمع من أخباره وسيره ، رضي الله عنه

حدثنا جعفرُ بنُ محمد ، عن أبيه ، عن جده علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، قال : دخل الحسينُ على عمي الحسن بن علي لما سُقِيَ السُّمَّ ، فقام لحاجةِ الإنسان ثم رجع ، فقال : لقد سُقِيتُ السُّم عِدةَ مرارٍ فما سُقِيتُ مِثلَ هذه ، لقد لَفظتُ طائفةً من كَبِدي فرأيتني أُقَلِّبُه بعودٍ في يدي ، فقال له الحسين : يا أخي مَنْ سقاك ؟ قال : وما تُريدُ بذلك ؟ فإن كان الذي أظُنُّهُ فاللهُ حَسيبهُ ، وإن كان غيرَه فما أُحِبُّ أن يؤخذَ بي بريء ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً حتى تُوفي رضي الله عنه .

وذُكر أنَّ امرأتَه جَعْدةَ بنتَ الأشعثِ بن قيسٍ الكندي سقته السُّمَّ ، وقد كان معاوية دسَّ إليها : إنك إن احتلْتِ في قتلِ الحَسَنِ وَجَّهتُ إليك بمائة ألفِ درهم ، وزوَّجْتُكِ من يَزيدَ(١) ، فكان ذلك

---

(١) يزيد بن معاوية : (٢٥ - ٦٤ هـ) الخليفة الأموي الثاني وسيرد ذكره مفصلا .

الذي بعثها على سَمّه ، فلما ماتَ وَفّى لها معاوية بالمال ، وأرسل إليها : إنا نُحِب حياةَ يزيدَ ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

رثاءُ ابن الحنفية للحسن : ولما دُفِنَ الحسنُ رضي الله عنه وقف محمدُ بنُ الحنفيّةِ أخوه على قبره فقال : لئن عَزّتْ حياتُكَ لقد هَدّتْ وفاتُك ، ولَنِعْمَ الروحُ رُوحٌ تضمّنه كَفَنُكَ ، ولَنِعْمَ الكَفَن كفن تَضمّنَ بدنَك ، وكيفَ لاتكونُ هكذاوأنت عَقْبة(١) الهدى وخَلَفُ أهلِ التقوى ، وخامسُ أصحاب الكساء(٢) ، غَذَتْكَ بالتقوى أكفُّ الحق ، وأرضعتك ثُديُّ الإيمان ، ورُبّيتَ في حِجر الإسلام ، فطِبتَ حَيّاً ومَيْتاً ، وإن كانت أنفُسنا غيرَ سخيةٍ بفراقك ، رَحِمكَ اللهُ أبا محمد .

ذكر خلافة معاوية بن أبي سفيان

وبويع معاويةُ في شوال سنة إحدى وأربعين ، ببيت

---

(١) العقبة : الولد أو ولد الولد .

(٢) أي هو خامس الخلفاء بعد الرسول (ص) .

المقدس ، فكانت أيامُه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وتوفي في رجب سنة إحدى وستين ، وله ثمانون سنة ، ودفن بدمشق بباب الصغير ، وقبره يُزَار إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — وعايه بيت مبني يفتتح كل يوم اثنين وخميس .

ذكر لمع من أخبـاره
وسيره ونوادر من بعض أفعاله

مقتل حُجْر الكِنْدي : وفي سنة ثلاث وخمسين قَتَلَ معاويةُ حُجْرَ بن عدي الكندي ، وهو أول من قتل صبراً في الإسلام : حمله زياد (١) من الكوفة ومعه تسعةُ نَفَرٍ من أصحابه من أهل الكوفة وأربعةٌ من غيرها ، فلمَّا صار على أميال من الكوفة يُراد به دمشق أنشأت ابنتهُ تقول ولاعقب له من غيرها :

---

(١) هو زياد بن أبيه : (ت ٥٣ هـ) أمير من القادة الفاتحين ومن كبار رجال الدولة الأموية ، يكتنف نسبه الغموض ، لذا دعي ابن ابيه . ألحقه معاوية بنسب أبيه أبي سفيان وولاه الكوفة . توفي بالطاعون .

تَرفَّعْ أيها القمرُ المنيرُ
لعلَّك أن تَرى حُجْراً يسيرُ

يسير إلى معاويةَ بنِ حرب
ليقتلَه ، كذا زَعَم الأميرُ

ويَصْلِبَه على بابَيْ دمشق
وتأكلَ من محاسنه النُسورُ

تخيرت الخبائر(١) بعد حُجْرٍ
وطاب لها الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ(٢)

ألا يا حُجْرُ حجر بني عدي
تلقتك السلامةُ والسرور

أخاف عليك ماأرْدَى عليًاً
وشيخاً في دمشق له زئير

---

(١) رواية الطبري : تجبرت الجبابر بعد حجر . . .
ورواية الأغاني : ترفعت الجبابر . . .
أما تخيرت الخبائر ، فتصحيف من النساخ .

(٢) الخورنق : موضع بالعراق قرب النجف بنى فيه النعمان قصراً سمي قصر الخورنق، وكذلك السدير فهو قصر بالحيرة بناه النعمان الأكبر لبعض ملوك العجم .

ألا يــاليتَ حُــجْراً مــات موتاً
ولم ينحَرْ كما نُحِر البعــــيرُ

فإن تَهلِكْ فــكلُّ عميدِ قَوم
إلى هُلْكٍ مــن الدنيـــا يَصير

ولما صار إلى مرج عذراء على اثني عشر ميلاً من دمشق تقدم البريدُ بأخبارهم إلى معاوية ، فبعث برجل أعور ، فلما أشرف على حجْر وأصحابه قال رجلٌ منهم : إن صدَق الزَّجر (١) فإنه سيقتل منا النصف وينجو الباقون ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : أما ترون الرجل المقبل مُصَاباً بإحدى عينيه ، فلما وصل إليهم قال لحجر : إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يارأس الضَّلال ومَعدِنَ الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب (٢) وقتلِ أصحابك ، إلا أن ترجعوا عن كفركم ، وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه ، فقال حَجْر وجماعة ممن كان معه : إن الصَّبرَ على حَدِّ السيف لأَيسرُ علينا مما تدعونا إليه ، ثم القدوم

---

(١) الزجر : ضرب من التكهن .
(٢) أبو تراب : كنية الإمام علي بن أبي طالب .

على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحبُّ الينا من دخول النار ، وأجاب نصفُ من كان معه إلى البراءة من علي ، فلما قُدِّمَ حُجْر ليُقتلَ قال : دعوني أصلي ركعتين ، فجعل يطول في صلاته ، فقيل له: أجَزَعاً من الموت؟ فقال : لا ، ولكني ماتطهرتُ للصلاة قطُّ إلا صليت وما صلَّيتُ قط أخفَّ من هذه ، وكيف لاأجزعُ ، وإني لأرَى قبراً محفوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وكفَناً منشوراً ، ثم تقدَّمَ فنُحر ، وأُلحقَ به من وافقه على قوله من أصحابه ، وقيل : إن قتلهم كان في سنة خمسين .

عدي بن حاتم ومعاوية : وذكر أن عـدي بن حاتم الطائي دخل على معاوية ، فقال له معاوية : مافعلت الطرفات ؟ يعني أولاده ، قال : قُتِلوا مع علي ، قال : ما أنصفَك علي قَتلَ أولادك وبقي أولاده ، فقال عدي : ما أنصفْتَ علياً ، إذ قُتِلَ وبقيتَ بعده ، فقال معاوية : أما إنه قد بقيت قطرةٌ من دَم عثمانَ مايمحوها إلا دمُ شريفٍ من أشرافِ اليمن ، فقال عدي : والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإنَّ أسيافَنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت إلينا من الغدر فتراً لَنُدْنِيَنَّ

إليك من الشرِّ شبراً ، وإن حزَّ الحلقوم وحشرجةَ الحيزوم(١) لأهون علينا من أن نسمع المساءَة في علي ، فسلِّم السيف يامعاوية لباعث السيف ، فقال معاوية : هذه كلمات حِكم فاكتبوها ، وأقبل على عدي محادثاً له كأنه ماخاطبه بشيء .

كتاب معاوية إلى علي : ومما كَتَبَ به معاوية إلى علي : أمَّا بعدُ ، فلو علمنا أنَّ الحربَ تبلغُ بنا وبك مابلغت لم يَجنِها بعضُنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها مانَرُمّ (٢) به مامضى ، ونُصلحُ به ما بقي ، وقد كنت سألتك الشَّامَ على أن لاتلزمني لك طاعة ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ماأرجو ، ولاتخاف من القتال إلاَّ ماأخاف ، وقد والله رَقَّت الأجنادُ(٣) وذهبت الرجالُ ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضلٌ يُستذَل به عزيز ، ويُستَرقُّ به حُرٌّ ، والسلام .

---

(١) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام .
(٢) نرم : نصلح .
(٣) رقت الأجناد : ضعفت . وساء حالها وقل مالها والأجناد هنا : البلدان والمناطق .

جواب علي لمعاوية : فكتب إليه عليّ كرمَ اللهُ وجهه : من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد : فقد جاءني كتابُك تذكرُ فيه أنك لو علمت أن الحربَ تبلغ بنا وبك مابلغت لم يجنها بعضُنا على بعض ، وأنا وإياك نلتمس منها غايةً لم نبلغْها بعدُ ، فأما طلبُك مني الشامَ فإني لم أكنْ أعطيك اليومَ مامنعتُكَ أمسِ ، وأما استواؤنا في الخوفِ والرجاء فلستُ بأمضى على الشك مني على اليقين ، وليس أهلُ الشام على الدنيا بأحرَصَ من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن ، وليس أميةُ كهاشم ، ولا حرْبٌ كعبد المطلب ، ولا أبوسفيانَ كأبي طالب ، ولاالطليقُ كالمهاجر ، ولاالمبطِلُ كالمحقّ ، وفي أيدينا فضْلُ النبوة التي قتَلْنا بها العزيزَ ، وبعنا بها الحرَّ ، والسلام .

وذكر أبومخنف لوط بن يحيى وغيره من الأخباريين أن الأمر لما أفضى إلى معاوية أتاه أبوالطفيل الكناني (١)

---

(١) أبوالطفيل : (٣ – ١٠٠ هـ) هو عامر بن واثلة الكناني القرشي شاعر كنانة وأحد فرسانها ومن ذوي السيادة فيها . حمل راية علي في بعض وقائعه . أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز ومات بمكة .

فقال له معاوية : كيف وجْدُكَ على خليلك أبي الحسن ؟ قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكو إلى الله التقصير ، فقال معاوية : أكنت فيمن حضر قتلَ عثمان ؟ قال : لا ، ولكني فيمن حضر فلم ينصرْه ، قال : فما منعك من ذلك وقد كانت نصرتُه عليك واجبة ؟ قال : منعني مامنعك إذ تربَّصُ به رَيْب المنون وأنت بالشام ، قال : أوَ ماترى طلبي بدمه نُصْرةً له ؟ قال : بلى ، ولكنك وإياه كما قال الجعدي (١) :

لاألفينَّك بعد الموت تندُبُني
وفي حياتيَ ما زودتني زادا

ودخل على معاوية ضِرارُ بن الخطاب فقال له : كيف حزنُك على أبي الحسن ؟ قال : حزنُ من ذُبح ولدُها على صدرها فما ترقأُ عَبْرتُها ولا يَسْكنُ حزنُها .

---

(١) لعله النابغة الجعدي : (ت نحو ٦٤ هـ) شاعر مخضرم من الكبار ، كان سيد قومه في الجاهلية . أدرك الإسلام فأسلم وشهد فتوح فارس كما شهد صفين مع علي مات معمراً بأصفهان .

ومما جرى بين معاوية وبين قَيْس بن سعد بن عبادة(١) حين كان عاملاً لعليٍّ على مصر ، فكتب إليه معاوية : أما بعدُ ، فإنك يهوديٌّ ابنُ يهودي ، إنْ ظَفِر أحبُّ الفريقين إليك عَزَلك واستبدلَ بك ، وإن ظفرَ أبغضُهما إليك نَكَّل بك وقتلك ، وقد كان أبوك أوترَ قوسه ، ورمى غرضَه ، فأكثر الحزَّ وأخطأ المفْصِلَ ، فخذلَه قومهُ ، وأدركه يومهُ ، ثم مات بِحوران طريداً .

فكتب إليه قَيسُ بن سعد : أما بعدُ ، فإنما أنت وثنيٌّ ابنُ وثني ، دخلتَ في الإسلام كَرْهاً ، وخرجتَ منه طَوعاً ، لم يقدمْ إيمانُك ، ولم يَحدثْ نفاقُك ، وقد كان أبي أوترَ قوسَه ، ورمى غرضَه ، فشغَب به من لم يبلغ عَقِبَهُ ، ولا شَقَّ غُبَارَه ، ونحن أنصارُ الدين الذي منه خرجتَ ، وأعداءُ الدين الذي فيه دخلت .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم : قد أعياني أن أعلم أجبانٌ أنت أم شجاع ، لأني أراك تتقدم حتى

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة (ت ٦٠ ﻫ) صحابي أنصاري خزرجي من الولاة ، حمل راية الأنصار مع النبي (ص) وصحب علياً في خلافته فاستعمله على مصر . توفي بالمدينة .

أقول : أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول أراد الفرار ، فقال له معاوية : والله ماأتقدم حتى أرى التقدم غُنْماً ، ولا أتأخر حتى أرى التأخرَ حَزْماً ، كما قال القُطامي(١) :

شجاعٌ إذا ما أمكنتني فرصةٌ
وإلا تكنْ لي فرصةٌ فجبانُ

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى عن أبي الأعز التيمي(٢) ، قال : بينا أنا واقف بصفّين إذ مر بي العباس ابن ربيعة(٣) مُغَفَّراً بالسلاح ، وعيناه تبصان من تحت المِغفَر (٤) كأنهما شعلتا نار ،أو عينا أرقم (٥) . وبيده صفيحة له يمانية يقلبها ، والمنايا تلوح في شَفْرتها ، وهو على فرس صَعْب ، فبينا هو يبعثه ويمنعه ويُلينُ من عريكته

---

(١) القطامي : هو عمير بن شيم (ت نحو ٩٢ هـ) شاعر تغلبي عاصر الأخطل .

(٢) أبو الأغر التميمي . هكذا ضبطه ابن قتيبة في «المعارف»/ ١٢٨ .

(٣) العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب : هاشمي ، كان له قدر شهد صفين مع علي .

(٤) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٥) الأرقم : الحية التي فيها سواد وبياض .

إذ هتفَ به هاتفٌ يقال له عرار بنُ أدهم من أهل الشام : ياعباس، هلُمَّ إلى النزال . قال : فالنزول إذاً ، فإنه إياس من الحياة ، فنزل إليه الشامي وهو يقول :

إن تركبوا فركوب الخيل عـــادتنا
أو تنزلـــوا فإنا معشر نُـــزُلُ

وثنى العباس وركه وهو يقول :

الله يعلـــم أنا لانحبكُـــــــمُ
ولا نلومكُـــمُ أن لاتحـــبونا

ثم عصر فضلات درعه في محزمه يريد منطقته ودفع فرسه إلى غلام له أسود كأني والله أنظر إلى فلافل شعره ، ثم زحف كل واحد منهما إلى صاحبه ، وكف الفريقان أعِنَّةَ الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين ، فتكافحا بسيفيهما مَلِياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلىصاحبه لكمال لأمته (١) ، إلى أن لحظ العباس وهناً في درع الشامي فأهوى إليه بيده وهتكه إلى ثُندؤته (٢) ، ثم

(١) اللأمة : الدرع المحكمة .
(٢) الثندؤة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة .

عاد لمجاولته ، وقد أفرج له مفتق الدرع ، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره ، فخرَّ الشامي لوجهه ، فكبر الناس تكبيرة ارتَجَّتْ لها الأرض من تحتهم ، وانساب العباسُ في الناس ، فإذا قائل يقول من ورائي : «(قاتِلوهم يُعذِّبْهُم اللهُ بأيديكم ويُخْزِهم وينْصرْكم عليهم وَيشفِ صدورَ قومٍ مؤمنين — الآية)» فالتفتّ فإذا بعلي رضي الله عنه ، فقال : يا بن الأعز ، من المبارزُ لعدونا ؟ قلت : ابنُ اخيكم العباسُ بن ربيعة ، قال : وإنه لهو العباس ؟ قلت : نعم ، فقال : ياعباس ، ألم أنهَك وعبدَ الله ابن العباس أن تخلا بمركز أو تبارزا أحداً ؟ قال : إن ذلك كما قلت ، قال علي : فما عدا مما بدا ؟ قال : أفأُدعى إلى البِراز فلا أجيب ؟ قال : طاعةُ إمامك أوْلى بك من إجابة عدوك ، وتَغيّظَ واستطار (١) ، ثم تطامن وسكن ورفع يديه مبتهلاً ، فقال : اللهم اشكر للعباس مقامَه ، واغفر ذنبَه ، اللهم إني قد غفرتُ له فاغفر له ، وتأسّف معاويةُ على عَرارِ بنِ أدهم ، وقال : متى

---

(١) استطار : هاج .

ينطق فحلٌ بمثله أبطلْ دمَه ! لاها الله (١) ، ألا رجل يشري نفسه يطلب بدم عرار ، فانتدب له رجلان من لخم من أهل البأس ومن صناديد الشام ؛ فقال : اذهبا فأيكما اقتل العباس فله مائة أوقية من التبر ، ومثلها من اللُّجَين وبعددهما من برود اليمن ، فأتياه فدعواه إلى البراز ، وصاحا بين الصفين : ياعباس ياعباس ، ابرز إلى الداعي ، فقال : إنَّ لي سَيِّداً أريدُ أن أؤامره ، فأتى علياً وهو في جناح الميمنة يحرض الناس ، فأخبره الخبر ، فقال علي : والله لَوَدَّ معاوية أنه مابقي من بني هاشم نافخُ ضَرَمَة (٢) إلا طعن في بطنه إطفاء لنور الله «(ويأبى اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نُورَه ولو كَرِهَ الكافرون)» أما والله لَيملِكَنَّهم منا رجالٌ ورجالٌ يسومونهم سَومَ الخسف (٣) حتى تعفو الآثار ، ثم قال : ياعباس ، ناقلني سلاحك بسلاحي ، فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد اللخميَّين ، فلم يَشكَّا أنه العباس ، فقالا له : أذِن لك صاحبُك ؟

---

(١) لا ها الله : جل وعلا .
(٢) مابقي نافخ ضرمة : مابقي أحد . والضرمة النار .
(٣) أي يذلونهم .

فتحرّج أن يقول نعم ، فقال : «(أُذن للّذين يُقاتلون بأنهم ظُلِموا ، وإنّ اللهَ على نصرِهم لقدير)» وكان العباس أشبه الناس في جسمه وركوبه بعلي ، فبرز له أحدهما فما أخطأه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول ، ثم أقبل وهو يقول : «(الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ ، والحُرماتُ قِصاصٌ ، فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمثلِ مااعتدى عليكم)» ثم قال : ياعباس ، خذ سلاحَك وهات سلاحي ، فإن عاد لك أحد فعد لي ، ونما الخبر إلى معاوية / فقال : قبّحَ اللهُ اللّجاج إنه لعقور ماركبتهُ قط إلاخُذِلت ، فقال عمرو بن العاص : المخذولُ واللهِ اللّخميان ، والمغرورُ من غررته ، لاأنت المخذول ، قال : اسكت أيها الرجل فليس هذا من شأنك ، قال : وإن لم يكن ، رحم الله اللخميين ، ولاأراه يفعل ، قال : ذلك والله أضيَقُ لحجتك وأخسَرُ لصفقتك ، قال : قد علمتُ ذلك ، ولولا مصرُ وولايتُها لركبت المَنْجاةَ منها (١) ، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضدّه ، فقال معاوية : مصرُ والله أعمتْك ، ولولا مصرُ لألفيتُك

(١) أي الحرب .

بصيراً ، ثم ضحك معاوية ضحكاً ذهب به كل مذهب ، قال : ممّ تضحك ياأمير المؤمنين ، أضحك الله سنّك ؟ قال : أضحكُ من حُضورِ ذهنك يوم بارزتَ عليّاً ، وإبدائك سوأتَكَ ، أما والله ياعمرو لقد واقعتَ المنايا ، ورأيت الموتَ عياناً ، ولوشاء لقتلك ، ولكن أبى ابنُ أبي طالب في قتالك إلا تكرُّماً ، فقال عمرو : أما والله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحولّتْ عيناك وبدا سَحْرك (١) وبدا منك ماأكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو دَعْ .

بين معاوية وعمرو بن العاص ووردان : وذكر الواقدي (٢) قال : دخل عمرو بن العاص يوماً على معاويه بعدما كَبُرَ ودقّ ومعه مولاه وردان ، فأخذا في الحديث ، وليس عندهما غير وردان ، فقال عمرو : ياأمير المؤمنين ،

---

(١) السحر : بفتح السين وضمها وسكون الحاء : الرئة . وبدا سحره : أي جبن كأن الخوف ملأ جوفه فانتفخ سحره .

(٢) الواقدي : محمد بن عمر ، من أقدم المؤرخين في الإسلام ولد في المدينة وأقام ببغداد حيث ولي قضاءها . اتصل بالبرامكة . من مؤلفاته : « المغازي » و « فتح إفريقية » و « فتوح الشام » مات ببغداد سنة ٢٠٧ هـ .

مابقي مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أرَبَ لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لَيِّنها وجَيِّدها حتى وَهَى بها جلدي فما أدري أيُّها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لَيِّنه وطيِّبه حتى ماأدري أيُّها ألذّ وأطيب ، وأما الطِّيبُ فقد دخل خياشيمي منه حتى ماأدري أيُّه أطيب . فما شيءٌ ألذُّ عندي من شراب بارد في يوم صائف ، ومن أن أنظر إلى بَنِيَّ وبَنِي بَنِيَّ يدورون حولي . فما بقي منك ياعمرو ؟ قال : مالٌ أغرسه فأُصيبُ من ثمرته ومن غَلَّته ، فالتفت معاويةُ إلى ورْدَانَ فقال : مابقي منك ياوردان ؟ قال : صنيعةٌ كريمةٌ سَنِيَّة أعلِّقها في أعناق قوم ذوي فَضْل وأخطار لايكافئونني بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعَقِبي في أعقابهم بعدي ، فقال معاوية : تَبّاً لمجلسنا سائرَ هذا اليوم ، إن هذا العَبْدَ غلبني وغلبك .

وفاة عمرو بن العاص : وفي سنة ثلاث وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن سعيد بن سعد بمصر ، وله تسعون سنة ، وكانت ولايته مصر عشرَ سنين وأربعة أشهر ، ولما حضرته الوفاة قال : اللهم لا براءةَ لي فأعتذر ، ولا قوةَ لي فأنتصر ، أمرتَنا فعصينا ، ونهيتنا فركبنا ،

اللّهمّ هذه يدي إلى ذقني ، ثم قال : خُذُوا لي في الأرض خَدّاً ، وسُنُّوا عليّ التراب سَنّاً(١) ، ثم وضع أصبعه في فيه حتى مات ، وصلى عليه ابنه عبد الله يوم الفطر ؛ فبدأ بالصلاة عليه قبل صلاة العيد ، ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد ، وكان أبوه من المستهزئين ، وفيه نزلت «(إنّ شانئَكَ هُوَ الأبْتَر)» .

وولى معاوية ابنه عبدالله بن عمرو ما كان لأبيه .

وخلف عمرو من العَيْنِ(٢) ثلاث مئة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الوَرِق(٣) ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بمصر بالوهط(٤) قيمتها عشرة آلاف ألف درهم .

---

(١) سن التراب أو الماء سناً : صبه برفق .

(٢) العين : المال الخالص وليس المتاع .

(٣) الورق : الدراهم المضروبة.

(٤) الوهط : قال ياقوت ، الوهط قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج كانت لعمرو بن العاص .

ذكر جمل من أخلاقه وسياسته وطرائف من عيون أخباره

قد ذكرنا فيما تقدم جُمَلاً من أخبار معاوية وسيرَه ، فلنذكُرِ الآنَ في هذا الباب جُمَلاً من أخلاقه وسياساته وأخباره ، وغير ذلك مما لحق هذا المعنى إلى وفاته .

من أخلاق معاوية وعاداته : كان من أخلاق معاوية أنه كان يَأذَنُ في اليوم والليلة خمسَ مراتٍ : كان إذا صلّى الفجرْ جلس للقاص حتّى يفرغَ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمُصحفه فيقرأ جزْأَهُ . ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلي أربعَ ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصّة الخاصّة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلّمونه فيما يريدون من يومهم إلى العَشيّ ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر — وهو فَضْلَةُ عشائه من جَدْيٍ باردٍ أو فَرْخ أو مايشبهه — ثم يتحدّث طويلاً ، ثم يدخل منزلَهُ لما أراد ثم يخرج فيقول : ياغلام أخرجِ الكرسي . فيُخرَجُ إلى المسجد فيُوضَعُ فيسند ظهرَه إلى المقصورة ويَجلسُ على الكرسي ، ويقومُ

الأحرَاس فيتقدم إليه الضعيفُ والأعرابي والصبي والمرأة ومن لاأحَدَ له ، فيقول : ظُلمت ، فيقول : أعزُوه (١)، ويقول : عُدِيَ عليَّ ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صُنعَ بي ، فيقول : انظروا في أمره ، حتى إذا لم يبقَ أحَدٌ دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولايشغلني أحد عن رد السلام ، فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله ، فإذا استَووْا جلوساً ، قال : ياهؤلاء ، إنما سُمِّيتم أشرافاً لأنكم شَرفتم مَنْ دونَكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائجَ من لايصلُ إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : استُشهِد فلانٌ ، فيقول : افرضوا لولَدِه ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تَعَاهدوهم ، اعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم ، ثم يُؤتى بالغداء ، ويُحضَرُ الكاتبُ فيقوم عند رأسه ويُقَدَّمُ الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يَدَه فيأكل لُقمتين أو ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابَه فيأمرُ فيه بأمره فيقال : ياعبدالله أَعقِب ، فيقوم ويتقدَّمُ آخرُ ، حتى يأتيَ

---

(١) أعزوه : ارفعوا من شأنه وقووه برفع ظلامته عنه .

على أصحاب الحوائج كلّهم ، وربما قَدِم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدرِ الغداء ، ثم يُرفَعُ الغداءُ ويقال للناس : أجيزوا (١) ، فينصرفون فيدخل منزله ، فلا يطمعُ فيه طامع ، حتى يُنادى بالظهر ، فيخرجُ فيصلي ثم يدخل فيصلي أربعَ ركعات ، ثم يجلس فيأذَنُ لخاصةِ الخاصة ، فإن كان الوقتُ وقتَ شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأَخبِصة اليابسة (٢) والخشكنانج (٣) والأقراص المعجونة باللبن والسكر ودقيق السميذ والكعك المسمن والفواكه اليابسة والفالوذج ، وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة . ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقيةَ يومهم ، ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصرَ ، ثم يدخل إلى منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذَنُ للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء

---

(١) أجيزوا : أعطونا فرصة .

(٢) نوع من الحلوى المجففة .

(٣) الخشكنانج كما يقول دوزي : نوع من الخبز المصنوع بالزبد والسكر والجوز والفستق ويكون على هيئة الهلال .

فيفرغ منه مقدار مايُنادى بالمغرب ، ولايُنادى له أصحابُ الحوائج ، ثم يرفع العشاء ويُنادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلّي بعدَها أربعَ ركعات يقرأُ في كل ركعة خمسين آيةً يجهر تارة ويخافتُ أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاءِ الآخرة فيخرجُ فيصلّي ، ثم يُؤذَنُ للخاصَّة وخاصَّة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامرهُ الوزراء فيما أرادوا صَدْراً من ليلتهم ، ويستمر إلى ثُلُثِ الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطُرَفُ الغريبةُ من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينامُ ثُلُثَ الليل ، ثم يقومُ فيقعدُ فيُحضِرُ الدفاترَ فيها سيرُ الملوك وأخبارُها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وُكّلوا بحفظها وقراءتها ، فتمرُّ بسمعه كلَّ ليلة جُمَلٌ من الأخبار والسِّير والآثار وأنواعِ السياسات ، ثم يخرجُ فيصلي الصُّبحَ ، ثم يعودُ فيفعل ماوصفنا في كل يوم .

وقد كان همَّ بأخلاقه جماعةٌ بعدَه مثلُ عبدِ الملك

ابن مروان وغيره فلم يدركوا حِلْمَه ، ولا إتقانَه للسياسة ، ولا التأنِّيَ للأمور ، ولا مداراتَه للناس على منازلهم ، ورِفْقَه بهم على طَبَقاتهم .

من دهاء معاوية : وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوبَ خواصِّه وعوامِّه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل بعير له إلى دمشق في حال مُنْصَرفِهم عن صِفِّين فتعلَّق به رجلٌ من دمشق فقال : هذه ناقتي ، أُخِذَتْ مني بصفين ، فارتفع أمرُهما إلى معاوية ، وأقام الدِّمشقي خمسينَ رجلاً بَيِّنَة يشهدون أنها ناقتُهُ ، فقضى معاويةُ على الكوفي ، وأمرَه بتسليم البعيرِ إليه ، فقال الكوفي : أصلحك اللهُ ! إنه جَمَلٌ وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حُكْمٌ قد مضى ، ودسَّ إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمنِ بعيره ، فدفع إليه ضِعفَه ، وبَرَّهُ ، وأحسن إليه . وقال له : أَبلغْ عَلِيّاً أني أقاتله بمائة ألف مافيهم من يُفرِّقُ بين الناقةِ والجمل ، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلَّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعةَ في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسَهم عند القتال وحملوه بها ، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص :

إن علياً هو الذي قتل عمّارَ بنَ ياسر حين أخرجه لنُصرته ، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لَعْنَ علي سُنَّة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير .

من غفلة أهل الشام والعراق : قال المسعودي : وذكر بعض الإخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم : مَنْ أبوتراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر ! ؟قال : أراه لصاً من لصوص الفتن .

وحكى الجاحظ قال : سمعت رجلاً من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول : إذا أتيته مَنْ يكلمني منه ؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم : ماتقول في محمد هذا ؟ أربنا هو ؟

وذكر ثُمامةُ بنُ أشرس (١) قال : كنت ماراً في السوق ببغداد ، فإذا أنا برجل عليه الناس مجتمعون ،

---

(١) ثمامة بن أشرس : (ت ٢١٣ هـ) من شيوخ المعتزلة في عهد المأمون والمعتصم والواثق تنسب إليه الفرقة الثمامية .

فنزلت عن بغلتي وقلت : لشيء ما هذا الاجتماع ، ودخلت بين الناس ، وإذا برجل يصف كحلاً معه أنه يُنجح من كل داء يُصيب العين ، فنظرت إليــه فإذا عينه الواحدة بَرْشاء والأخرى مأسوكة (١) ، فقلت له : ياهذا ، لوكان كحالك كما تقول نفع عينيك ! ! فقال لي : ياجاهل أهاهنا اشتكت عيناي ! إنما اشتكتا بمصر ، فقال كلهم : صدق ، وذكر أنه ماانفلت من نعالهم إلا بعد كدّ .

معاوية عند موته : وذكر لــوطُ بن يحيى وابن دأب والهيثم بن عدي (٢) وغيرهم من نقلة الأخبار أن معاوية لما احتُضِر تمثّل :

هو الموتُ ، لامنجى من الموت ، والذي
تُحاذِرُ بعدَ الموتِ أدهى وأفظَعُ

---

(١) العين البرشاء : التي فيها نقطة بيضاء . والمأسوكة : التي أخطأت خافضها فأصابت غير موضع الخفض .

(٢) لوط بن يحيى : سبقت ترجمته . أما ابن دأب : فهو عيسى ابن يزيد الليثي الكناني : خطيب ، شاعر ، عالم بالأنساب ، من أهل المدينة مات بعد ٢١٤ هـ . والهيثم بن عدي : من طيء ، كان يرى رأي الخوارج . وهو عالم بالأنساب والأخبار مات سنة ٢٠٩ هـ .

ثم قال : اللّهمّ أقِلِ العَثْرةَ ، واعفُ عن الزّلّة ، وجُدْ بحِلْملك على جَهْلِ من لم يرجُ غيرَك ، ولم يثق إلاّ بك ، فإنك واسعُ المغفرة ، وليس لذي خطيئة مَهْربٌ ، فبلغ ذلك سعيدَ بنَ المسيّب (١) ، فقال : لقد رغب إلى من لامرغوبَ إليه مِثلهُ ، وإني لأرجو أنْ لايعذّبهُ الله .

وذكر محمد بن إسحاق (٢) وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمام في بَدءِ عِلّته التي كانت وفاتهُ فيها ، فرأى نحولَ جسمه ، فبكى لفنائه وما قد أشرفَ عليه من الدثورِ الواقع بالخليقة ، وقال متمثلاً :

أرى الليالي أسرعت في نقضي
أخذنَ بعضي وتركن بعضي

---

(١) سعيد بن المسيب : قرشي مخزومي أحد فقهاء المدينة السبعة ولقب بسيد التابعين توفي سنة ٩٤ هـ .

(٢) محمد بن إسحق : محدث ومؤرخ من أصحاب السير والمغازي نشأ في المدينة وتوفي ببغداد سنة ١٥١ هـ . من تصانيفه : السيرة النبوية ومنها قبس ابن هشام .

حَنَيْنَ طولي وحَنَيْنَ عَرْضي

أقعدني من بعدِ طُولِ نهضي

ولما أزِف أمرهُ (١) ، وحان فراقهُ ، واشتدت عِلّتهُ ، وأيسَ من بُرئِهِ ، أنشأ يقول :

فياليتني لم أُعْنَ في المُلْك ساعةً

ولم أكُ في اللّذات أعشى النواظرِ

وكنتُ كذي طِمرين عاش ببُلْغَةٍ

من الدهر حتى زار أهلَ المقابر (٢)

قال المسعودي : ولمعاويةَ أخبارٌ كثيرة مع علي وغيره ، وقد أتينا على الغُرر من أخباره ، وما كان في أيامه في كتابينا ، « أخبار الزمان » والأوسط ، وغيرهما من كتبنا ، مما أُفرد للآثار ، وهذا بابٌ كبير ، والكلام فيه وفي غيره مما تقدم وتأخر في هذا الكتاب كثير ، ومَنْ ضَمِنَ الاختصار لم يَجُزْ له الإكثار .

---

(١) دنا أجله .

(٢) الطمر : الثوب الخلق . والبلغة : مايتبلغ به من العيش .

وإنما نذكر في كل باب من هذا الكتاب طُرَفاً من كل نوع من العلوم والأخبار ، وما انتخبناه من طرائف الآثار ؛ ليستدلَّ الناظرُ فيه بما ذكرنا على المراد ، مما تركنا ذكرَه ، وقد تقدمَ وَصفهُ وبَسْطُهُ ، فيما سلف من كتبنا .

ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

موجز : وبُويعَ يزيدُ بنُ معاويةَ ، فكانت أيامهُ ثلاثَ سنين وثمانيةَ أشهر إلا ثماني ليالٍ ، وأخذَ يَزيدُ لابنه معاويةَ بن يزيد البَيْعة على الناس قبلَ موته ، ففي ذلك يقول عبدالله بن هَمّام السَّلولي (١) :

تَلَقَّفَهـا يزيدٌ عن أبيـــه
فخذها يامُعَــاويَ عن يزيـدا

لقد عَلِقَتْ بكـم فتلقَّفُوهـا
ولا ترمُوا بها الغرضَ البعيـدا

---

(١) عبد الله بن همام السلولي : شاعر إسلامي أدرك معاوية وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك، وكان يقال له العطار لحسن شعره . مات نحو ١٠٠ هـ .

وهلك يزيد بحُوَّارينَ (١) من أرض دمشق لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة أربع وستين ، وهو ابنُ ثلاث وثلاثين سنة ، وفي ذلك يقول رجل من عَنَزَة :

يا أيُّهـــا القبر بحُوَّارينا

ضَمَمْتَ شَرَّ الناس أجمعينا

وقد رثاه الأخطل النَّصراني (٢) ، فقال من قصيدة :

لعمري لقد دَلَّى إلى اللحد خالـــدٌ

جنازةَ لانِكْس الفؤاد ولا غُمْرِ(٣)

---

(١) حوارين : هي القريتين . قال ياقوت : وهي من تدمر على مرحلتين ، وبها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ .

(٢) الأخطل : هو غياث التغلبي . أحد الثلاثة البارزين من شعراء العصر الأموي . هو والفرزدق وجرير . ولد بالحيرة واتصل بالأمويين فغدا شاعرهم الخاص فأفاض بمدحهم وهجاء خصومهم . مات سنة ٩٢ هـ .

(٣) خالد : هو خالد بن يزيد . والنكس : الضعيف . والغمر : الذي لم يجرب الأمور .

مقيمٌ بُحـوّارِينَ ليس يَرِيمُهـا
سقته الغوادي من ثَوِيٍّ ومن قبر

في أبيات .

ذكر مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ومن قتل معه من أهل بيته وشيعته

أهل الكوفة يدعون الحسين : ولما مات معاويةُ أرسل أهلُ الكوفة إلى الحسين بن علي : إنا قد حبسنا أنفسَنا على بَيْعتك ، ونحن نموت دونَك ، ولسنا نحضُرُ جمعةً ولا جماعةً بسببك .

وطولبَ الحسينُ بالبَيْعةِ ليزيدَ بالمدينة فسامَ التأخير (١) ، وخرج يتهادى بين مواليه ويقول :

لا ذَعرْتُ السوام في فَلَق الصبـ
ـح مُغيراً ولا دعيت يزيدا (٢)

---

(١) سام التأخير : أراده .

(٢) ذعر : بمعنى : أفزع . والسوام : المال الراعي كالابل والماشية ونحوها .

يوم أعطَى مخافــةَ الموت ضيمـــا

والمنايا تـَرصُدْنَنِي أن أحـــيدا

مسلم بن عقيل يتقدم الحسين إلى الكوفة :

ولحق بمكةَ ، فأرسل بابن عمهِّ مسلم بنِ عقيل (١) إلى الكوفة ، وقال له : سرْ إلى أهل الكوفة فإن كان حقّاً ماكتبوا به عَرِّفني حتى ألحقَ بك ، فخرج مسلمُ من مكة في النصف من شهر رمضان ، حتى قَدِمَ الكوفة لخمسٍ خلَوْن من شوال ، والأمير عليها النُّعمان بن بشير الأنصاري (٢) ، فنزل على رجل يقال له عَوْسَجة مستتراً ، فلما ذاع خبرُ قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشرَ ألف رجل ، وقيل : ثمانية عشر ألفاً ، فكتب بالخبر إلى الحسين ، وسأله القدومَ إليه .

---

(١) هو مسلم بن عقيل بن أبي طالب : رسول الحسين إلى الكوفة . قتله عبيد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ .

(٢) النعمان بن بشير : خطيب ، شاعر ، من أجلاء الصحابة . من أنصار معاوية . انتفض على الأمويين في خلافة مروان بن الحكم مشايعاً ابن الزبير . قتل بحمص سنة ٦٥ هـ . له ديوان شعر .

ابن عباس ينصح الحسين : فلمـــا همَّ الحسين بالخروج إلى العراق أتاه ابن العباس (١) ، فقال له : يا بنَ عم ، قد بلغني أنك تريد العراق ، وإنهم أهلُ غَدر ، وإنما يدعونك للحرب ، فلا تَعْجَل ، وإن أبَيْتَ إلا محاربةَ هذا الجبار وكرهتَ المقامَ بمكة فاشخَص إلى اليمَن ، فإنها في عُزْلة ، ولك فيها أنصارٌ وإخوان ، فأقم بها وبُثَّ دعاتك ، واكتب إلى أهلِ الكوفة وأنصارِك بالعراق فيُخرجوا أميرَهم ، فإن قَووا على ذلك ونَفَوه عنها ، ولم يكن بها أحدٌ يُعاديك أتيتَهم ، وما أنا لغدرهم بآمن ، وإن لم يفعلوا أقمتَ بمكانك إلى أن يأتيَ اللهُ بأمره فإن فيها حُصوناً وشِعاباً ، فقال الحسين : يا بنَ عَمّ ، إني لأَعلَمُ أنك لي ناصحٌ وعليَّ شفيق ، ولكنَّ مُسلِمَ ابنَ عقيل كتب إلي باجتماع أهل المِصْر على بَيْعتي ونُصرْتي ، وقد أجمعتُ على المسير إليهم ، قال : إنهم من خَبَرتَ وجرَّبت ، وهم أصحابُ أبيك وأخيك وقَتَلَتُكَ غداً مع أميرهِم ، إنك لو قد خَرجتَ فبلغَ

---

(١) هو عبد الله بن عباس : ابن عم النبي (ص) لقب حبر الأمة . حضر صفين مع علي . كان سديد الرأي . مات كفيفاً سنة ٦٨ هـ .

ابنَ زياد (١) خروجَك استنفرهم إليك، وكان الذين كتبوا إليك أشدَّ من عدوك ، فإن عصيتني وأبيتَ إلا الخروجَ إلى الكوفة فلا تُخرِجَنَّ نساءَك وولدَك معك ، فوالله إني لخائفٌ أن تُقتلَ كما قُتِلَ عثمانُ ونساؤه وولدُه ينظرون إليه ، فكان الذي رد عليه : لأن أُقتلَ والله بمكانِ كذا أحبَّ إلي من أن أستحِلَّ بمكةَ ، فيئس ابنُ عباس منه ، وخرج من عِنْدِه ، فمر بعبدالله بن الزبير فقال : قرت عينك يا بن الزبير ، وأنشد :

يالكِ من قُبَّرَةٍ بِمَعْمَرِ خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري
ونَقِّري ماشِئْتِ أن تُنَقِّري

هذا حسينٌ يَخرجُ إلى العراق ويُخَلِّيكَ والحجاز .

وكان ظهور مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليال

---

(١) هو عبيد الله بن زياد : عامل الأمويين في العراق . اصطدم بجيشه مع أنصار الحسين بن علي في كربلاء . وقتل في معركة الخازر في شمال العراق التي جرت بينه وبين ابراهيم بن مالك الأشتر قائد جيش المختار الثقفي . وذلك سنة ٦٧ هـ .

مضين من ذي الحجة سنة ستين ، وهو اليوم الذي ارتحل فيهِ الحسين من مكة إلى الكوفة ، وقيل : يوم الأربعاء يوم عرفة لتسع مَضَيْنَ من ذي الحجة سنة ستين .

ثم امر ابن زياد بجثة مُسْلم فصُلِبت ، وحمل رأسهُ إلى دمشق ، وهذا أوّلُ قتيلٍ صُلِبَتْ جُثّتهُ من بني هاشم ، وأوّلُ رأسٍ حُمِل من رؤوسهم إلى دمشق .

الحسين يقاتل جيش ابن زياد : فلما بلــغ الحسينُ القادسيَّة (١) لقيه الحر بن يزيد التميمي (٢) فقال له : اين تريد يا بن رسول الله ؟ قال : أريد هذا المصر ، فعرّفه بقتل مسلم وما كان من خبره ، ثم قال : ارجع فإني لم أدَعْ خلفي خيراً أرجوه لك ، فهَمَّ بالرجوع فقال له إخوةُ مُسلم : والله لا نَرجِــعُ حتى نُصيب بثأرنا أو نُقتَلَ كلُّنا ، فقال الحسين : لاخيرَ في الحياة بعدكم ، ثم سار حتى لقيَ خيلَ عبيد الله بن زياد عليها عُمر

(١) القادسية : موقع في العراق غربي النجف .

(٢) الحر بن يزيد التميمي : قائد من أشراف تميم أرسله الحصين ابن نمير لاعتراض الحسين في قصده الكوفة ، ولكنه انصرف إلى الحسين فقاتل بين يديه حتى قتل ، وذلك سنة ٦١ هـ .

ابن سعد بن أبي وقاص (١) ، فعدل إلى كربلاء – وهو في مقدارِ خمسمائة فارسٍ من أهل بيته وأصحابه ونحْوَ مائة راجل – فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لامحيصَ له فقال : اللهم احكم بيننا وبين قوم دَعَونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا ، فلم يزل يقاتل حتى قُتِل رضوانُ الله عليه ، وكان الذي تولى قتالَه رجلٌ من مَذْحِج واحتزَّ رأسَه (٢) ، وانطلق به إلى ابنِ زيادٍ وهو يرتجز :

أوْقِرْ ركابي فِضَّةً وذهبا
أنا قتلتُ الملكَ المحجَّبا
قتلتُ خيرَ الناس أُماً وأباً
وخيرَهم إذ يُنْسبون نسبا

فبعث به ابنُ زياد إلى يزيدَ بنِ معاويةَ ومعه الرأس ،

---

(١) هو قائد جيش يزيد بن معاوية . ولاه ابن زياد قتال الحسين فاستعفاه ، فهدده فأطاع وتوجه إلى لقائه بالقرب من كربلاء . قتل عمر ابن سعد في الكوفة سنة ٦٦ هـ .

(٢) قال ابن قتيبة : قتله سنان بن أبي أنس النخعي / المعارف / ٢١٣ .

فدخل إلى يزيد وعنده أبو برزة الأسلمي (١) فوضع الرأس بين يديه ، فأقبل ينكتُ القضيبَ في فيه ، ويقول :

نُفَلِّقُ هاماً من رجال أحبة
علينا ، وهم كانوا أعقَّ وأظلما

فقال له أبوبرزةَ : ارفع قضيبَك فطالَ والله مارأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يضعُ فمَهُ على فَمِه يلثُمُهُ ، وكان جميعُ من حضر مقتلَ الحسين من العساكر وحاربه وتولى قتالَهُ من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرْهُم شامي ، وكان جميعُ من قُتِلَ مع الحسين في يوم عاشوراء بكربلاء سبعةً وثمانين ، منهم ابنهُ عليُّ بنُ الحسين الأكبر ، وكان يرتجز ويقول :

أنا عليُّ بنُ الحسين بنْ علي   نحن وبيت الله أولى بالنبي
تالله لايحكم فينا ابنُ الدَّعي

وقُتِلَ من وَلَدِ أخيه الحسنِ بنِ علي : عبدُ الله

---

(١) هو نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمي : صحابي غلبت عليه كنيته . كان من سكان المدينة ثم البصرة . شهد النهروان مع علي ، ثم شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة . مات بخراسان سنة ٦٥ هـ .

ابن الحسن ، والقاسمُ بنُ الحسن ، وأبوبكر بنُ الحسن ، ومن إخوته العباسُ بنُ علي ، وعبدُ الله بنُ علي ، وجعفرُ ابن علي ، وعثمانُ بن علي ، ومحمدُ بن علي ؛ ومن ولد جعفر بن أبي طالب : محمدُ بنُ عبدالله بن جعفر ، وعونُ ابن عبدِ الله بن جعفر ؛ ومن وَلَدِ عَقيلِ بنِ أبي طالب : عبدُ الله بنُ عَقيل ، وعبدُ الله بن مسلم بن عَقيل ، وذلك لعشرٍ خلَوْنَ من المحرم سنة إحدى وستين .

وقُتِلَ الحسين وهو ابنُ خمسٍ وخمسين سنةً ، وقيل : ابنُ تسعٍ وخمسين سنة، وقيلَ غيرُ ذلك .

ووُجِدَ بالحسين يوم قُتِلَ ثلاثٌ وثلاثون طَعْنَةً ؛ وأربعٌ وثلاثون ضربةً ، ضَرَبَ زرعة بن شريك التميمي كفَه اليسرى ، وطعنه سِنانُ بنُ أنَس النخْعي ، ثم نَزَلَ فاحتز رأسه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وأيُّ رَزِيّة عدَلَت حُسَيناً
غداة تُبِينهُ كفّا سِنان (١) !؟

---

(١) أبان رأسه من جسده : أي فصله .

ذكر لمع من أخبار يزيد ، وسيره ونوادر من بعض أفعاله

خروج يزيد لوفود العرب : ولما أفضى الأمرُ إلى يزيدَ بنِ معاوية دخل منزلَه ، فلم يظهر للناس ثلاثاً ، فاجتمع ببابه أشرافُ العربِ ووفودُ البلدان وأمراء الأجناد(١) لتعزيته بأبيه وتهنئته بالأمر ، فلما كان في اليوم الرابعِ خرج أشْعَثَ أغْبَرَ فصَعِدَ المنبرَ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن معاويةَ كان حَبْلاً من حبال الله مَدَّه الله ماشاءَ أن يَمُدَّه ، ثم قَطَعَهُ حين شاء أن يَقطَعَهُ ، وكان دُوْنَ من كان قبلَه ، وخيرَ مَنْ بَعْدَه ، إن يغفر اللهُ له فهو أهلُهُ ، وإن يُعذِّبْه فبذنبه ، وقد وُلِّيتُ الأمرَ بعده ، ولستُ أعتذرُ من جهل ، ولا أشتغلُ بطَلَبِ علم ، فعلى رِسْلِكم فإن اللهَ لو أراد شيئاً كان ، اذكروا الله واستغفروه ، ثم نَزَلَ ، وَدَخَلَ منزلَه ، ثم أَذِنَ للناس .

---

(١) الجند : ج أجناد : العسكر . والجند : البلد : وأجناد الشام : دمشق ، وحمص ، وقنسرين ، والأردن ، وفلسطين ، في كل جند منها مدن متعددة ولها قصبة معلومة .

ثم قام الناسُ يعزّونه ويهنئونه بالخلافة ، فلما ارتفعَ عن مجلسه أمر لكلِ واحدٍ منهم بمال على مقداره في نفسه ، ومحاله في قومه ، وزاد في عَطائهم ، ورفعَ مراتبَهُم ، وقد أتينا في كتابنا « أخبارِ الزمان » على ما كان من خَبَرِ يزيدَ وغيبته في حالِ وفاةِ أبيه معاويةَ ومسيره من ناحية حمص حين بلغه ما بأبيه من العلّةِ ، ووروده على ثَنيّة العقاب (١) من أرض دمشق ، فأغنى ذلك عن إعادة هذا الخبر في هذا الكتاب .

بين يزيد وعبد الملك : وذكر عِدّةٌ من الأخباريين وأهلِ السِّير أن عبدَ الملكِ بنَ مروان دَخلَ على يزيدَ ، فقال : أُرَيْضَةٌ لك إلى جانب أرضٍ لي ، ولي فيها سَعَةٌ ، فأقطعْنيها ، فقال : ياعبدَالملكِ ، إنه لايتعاظمُني كبيرٌ (٢) ، ولا أجزَعُ من صغير ، فأخبرني عنها وإلا سألتُ غيرَك ، فقال : مابالحجاز أعظمُ منها قدراً ، قال: قد أقطعتُكَ ، فشكره عبدُ الملك ودعَا له ، فلما ولّى

---

(١) ثنية العقاب : وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق ، يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص . ياقوت ٢ / ٨٥ .

(٢) أي : لا يعظم عندي كبير .

قال يزيد : إن الناسَ يزعمون أن هذا يَصيرُ خليفةً ، فإن صَدّقوا فقد صانعناه . وإن كذّبوا فقد وصلناه .

فسوق يزيد وعماله : وكان يزيدُ صاحبَ طَرَبٍ وجَوارحَ (١) وكلابٍ وقرود وفهودٍ ومنادمةٍ على الشراب ، وجلس ذاتَ يومٍ على شرابه ، وعن يمينه ابنُ زياد ، وذلك بعد قتلِ الحسين ، فأقبل على ساقيه فقال :

اسْقِني شَرْبَةً تُرَوِّي مُشَـاشي

ثُم مِلْ فاسق مِثْلَها ابنَ زيادٍ (٢)

صاحبَ السـرِّ والأمـانةِ عِنـدي

ولتسـديدِ مغنمـي وجهادي

ثُم أمر المغنين فغنَّوا به .

وغَلَبَ على أصحاب يزيدَ وعماله ما كان يفعلهُ

(١) الجوارح من السباع والطير : ذوات الصيد .

(٢) المشاش : ج مشاشة : رأس العظم اللين ، والمقصود : اسقني شربة تروي عظامي . وابن زياد : هو عبيد الله ، وقد سبقت ترجمته .

من الفُسوقِ ، وفي أيامه ظهر الغناءُ بمكةَ والمدينةِ ، واستُعمِلَتِ الملاهي ، وأظهرَ الناسُ شربَ الشراب ، وكان له قِردٌ يُكنَّى بأبي قَيْس يُحضِرُهُ مجلسَ مُنادَمتهِ ، ويَطرحُ له مُتَّكَأً ، وكانَ قِرْداً خبيثاً وكان يحمِلهُ على أَتانٍ وحشيَّةٍ قد رِيضت وذُلِّلَتْ لذلك بسرجٍ ولجام ويسابقُ بها الخيلَ يومَ الحلبة ، فجاءَ بعض الأيام سابقاً ، فتناول القصبةَ ودخلَ الحجرةَ قبلَ الخيلِ ، وعلى أبي قَيس قَباءٌ من الحرير الأحمرِ والأصفرِ مشمّر ، وعلى رأسِه قَلَنْسُوةٌ من الحرير ذاتُ ألوانٍ بشقائقَ ، وعلى الأتان سرجٌ من الحرير الأحمرِ مَنقُوشٌ مُلَمَّعٌ بأنواع من الألوان ، فقال في ذلك بعضُ شعراء الشَّام في ذلك اليوم :

تَمسَّكْ أبا قيس بِفَضْلِ عِنانِها
فليس عليها إنْ سَقَطْتَ ضَمانُ
ألا مَنْ رأى القردَ الذي سبقتْ به
جيادَ أميرِ المؤمنينَ أتانُ

وفي يزيد وتملّكه وتجبرُه وانقياد الناس إلى ملكه يقول الأحوص (١) :

مَلِكٌ تَدِينُ له الملوكُ مُبَاركٌ
كادتْ لهيبتهِ الجبالُ تزُولُ
تُجْبى له بَلْخٌ ودِجْلةُ كُلُّها
وله الفراتُ وما سَقَى والنيلُ

وقيل : إن الأحْوَص قال هذا في معاوية بعد وفاته يرثيه .

ماقيل في مقتل الحسين : ولما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء وحمل رأسه ابن زياد إلى يزيد خرجت بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قومها حواسر حائرات ، لما قد ورد عليهن من قتل السادات ، وهي تقول :

ماذا تقولون إنْ قال النبيُّ لكم :
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟

---

(١) هو عبد الله بن محمد الأنصاري ، شاعر هجاء ، صافي الديباجة . كان معاصراً لجرير والفرزدق . مات بدمشق سنة ١٠٥ هـ .

بِعِتْرَتي وبأهلي بعـــد مُفْتَقَدي

نِصْفٌ أسارى ونِصْفٌ ضُرِّجوا بدم

ماكان هذا جزائي إذ نصَحْتُ لكم

أن تخلفوني بشرٍّ في ذوي رَحِمي

وفي فعل ابن زياد بالحسين يقول أبوالأسود الدؤلي من قصيدة :

أقولُ وذاك من جَزَعٍ وَوَجْـــدِ

أزالَ الله مُلْـــكَ بني زيادِ

وأبْعَدَهُمْ ، بما غَـــدَرُوا وخــانوا

كما بَعُدَتْ ثَمودُ وقومُ عاد

أهلُ المدينة وعُمَّال يزيد : ولما شَمِلَ جَوْرُ يزيد وعمالهِ ، وعمَّهم ظُلْمُهُ ، وما ظهر من فِسْقه : من قَتْلِهِ ابنَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، وما أظهر من شُرْبِ الخمور وسَيْرِه سِيْرةَ فِرعَوْنَ ، بل كان فرعونُ أعدلَ منه في رعيته ، وأنصفَ منه لخاصَّتِهِ وعامَّتِهِ ، أخرج أهْلُ المدينة

عاملَهُ عليهم – وهو عثمانُ بنُ محمد بن أبي سفيان(١) – ومروانَ بنَ الحكم، وسائرَ بني أمية، وذلك عند تنسُّكِ ابنِ الزبير وتألُّهه (٢)، وإظهارِ الدعوة لنفسه، وذلك في سنة ثلاث وستين، وكان إخراجُهم لما ذكرنا من بني أمية وعامل يزيد عن إذن ابن الزبير، فاغتنمها مروانُ منهم، إذ لم يقبضوا عليهم ويحماوهم إلى ابن الزبير، فحثُّوا السير نحو الشام، ونَمى فعلُ أهل المدينة ببني أمية وعاملِ يزيدَ إلى يزيد، فسيَّرَ إليهم بالجيوش .. من أهل الشام عليهم مُسْلِمُ بن عُقْبَةَ المُرِّي (٣) الذي أخاف المدينة ونهبها، وقتل أهلها، وبايعه أهلُها على أنهم عبيد ليزيد، وسماها نَتْنَةَ، وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة، وقال: « مَنْ أخافَ المدينةَ أخافَهُ الله » فسُمِّيَ مسلمُ هذا – لعنهُ اللهُ – بمجرم ومُسرِف،

(١) عثمان بن محمد بن أبي سفيان: « كان عاملا بالمدينة ليزيد ابن معاوية فنحس به أهلها ففي سببه كانت وقعة الحرة » المعارف / ٣٤٥.

(٢) التأله: التعبد والتنسك.

(٣) مسلم بن عقبة المري: قائد أموي، شهد صفين مع معاوية ثم قاد جيش يزيد للانتقام من أهل المدينة. توفي سنة ٦٣ هـ.

لما كان من فعْاه ، ويقال : إنّ يزيدَ حين جرَّدَ هذا الجيش وعُرِضَ عايه أنشأ يقول :

أبْلغْ أبا بكر إذا الأمْرُ انــــبرى
وأشْرَفَ القومُ على وادي القُرى
أجمعَ السكرانُ من قوم ترَى

يريد بهذا القول عبدَ الله بنَ الزبير ، وكان عبدُالله يُكنى بأبي بكر ، وكان يُسَمّى يَزيدُ السكرانَ الخِمّيرَ (١) ، وكَتَبَ إلى ابن الزبير :

أدعــو إلهاك في السمـــاء فــإنني
أدعو عايك رجالَ عكٍّ وأشْعرِ (٢)
كيف النجاةُ أبا خُبيْبٍ منهـــــمُ
فاحتلْ لنفسك قبل أتْيِ العسكر

وقعة الحَرَّة : ولما انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع

---

(١) الخمير : الدائم الشرب للخمر .

(٢) علك وأشعر : قبيلتان عربيتان كانتا في طليعة أهل الردة ، وناصرتا معاوية في صفين .

المعروف بالحرّة (١) وعليهم مُسرف خرج إلى حربه أهلها عليهم عبدالله بن مطيع العدوي (٢) وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري (٣) ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس ؛ فمن قُتِلَ من آل أبي طالب اثنان عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب ، وجعفرُ ابنُ محمد بن علي بن أبي طالب ؛ ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب الفضلُ بنُ العباس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وحمزةُ بنُ عبد الله بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ، والعباسُ بن عتبة بن أبي لهب بن عبدالمطلب ، وبضعٌ وتسعون رجلاً من سائر قريش ، ومثلهم من الأنصار ، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء ، دون من لم يعرف .

---

(١) هي حرة واقم إحدى حرتي المدينة وهي الشرقية .

(٢) عبدالله بن مطيع العدوي : من رجال قريش المعدودين ، استعمله ابن الزبير على الكوفة وقتل معه في حصار مكة سنة ٧٣ هـ .

(٣) عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر بن صيفي : من وجوه المدينة . وسمي أبوه حنظلة الغسيل ، لقول الرسول (ص) فيه عند استشهاده يوم أحد : « إن صاحبكم لتغسله الملائكة » .

وبايع الناسُ على أنهم عبيدٌ ليزيد ، ومَنْ أبى ذلك أمرَّه مُشْرِف على السيف غير علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب السَّجَّاد (١)، وعلي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب (٢) ، وفي وقعةِ الحرة يقول محمد ابن أسلم (٣) :

فإن تَقتُلُونا يَوْمَ حرَّةِ واقمٍ
فنحنُ على الإسلام أوَّلُ من قَتَلْ
ونحن تركناكمْ ببدْرٍ أذلةً
وأُبْنَا بأسيافٍ لنا منكم نَفَل

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : (٣٨ — ٩٤ ﻫ) هو رابع الأئمة عند الشيعة . ولد وتوفي بالمدينة . دعا إلى تحرير العبيد، كما تميز بأدب الدعاء . وجمعت أدعياته في الصحيفة السجادية .

(٢) علي بن عبد الله بن العباس : أبو محمد، جد الخلفاء العباسيين . من أعيان التابعين . كان من أجمل الناس وأوسمهم ، عظيم الهيبة . كثير العبادة . اعتقله هشام بن عبد الملك في البلقاء فمات معتقلا سنة ١١٨ ﻫ .

(٣) محمد بن أسلم : جاء في الأعلام أنه : من حفاظ الحديث اشتهر بالصلاح ، نعته الذهبي بشيخ المشرق له « المسند » و« الرد على الجهمية » ت ٢٤٢ ﻫ . وقد نسب ياقوت البيتين إلى محمد بن بجرة الساعدي .

ونظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعو ، فأُتيَ به إلى مُسْرِف وهو مغتاظٌ عليه ، فتبرأ منه ومن آبائه ، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد ، وقامَ له ، وأقعده إلى جانبه ، وقال له : سَلْنِي حوائجَك ، فلم يسأله في أحد ممن قُدِّم إلى السيف إلا شفَّعه فيه ، ثم انصرف عنه ، فقيل لعلي : رأيناك تُحرِّكُ شفتيك ، فما الذي قلت ؟ قال : قلت : اللهم ربَّ السمواتِ السبعِ وما أظْلَلْنَ ، والأرَضينَ السبع وما أقْلَلْنَ ، ربَّ العرشِ العظيم ، ربَّ محمدٍ وآله الطاهرين ، أعوذُ بك من شرِّه ، وأدرأُ بك في نحْرِه ، أسألك أن تُؤتيَني خيرَه ، وتَكْفيَني شرَّه ، وقيلَ لمسلمٍ : رأيناك تسبُّ هذا الغلامَ وسلَفه ، فلما أُتيَ به إليك رَفَعْتَ منزلتَهُ ، فقال : ما كان ذلك لرأيٍ مني ، لقد ملِئَ قلبي منه رُعباً .

وأما عليُّ بن عبد الله بن العباس فإن أخوالَهُ من كندة منعوه منه ، وأناسٌ من ربيعة كانوا في جيشه ، فقال علي في ذلك :

أبِي العباسُ قَرْمُ بني لــــؤي
وأخوَالي المــــلوكُ بَنُو وَليعه

هُم منعوا ذِمـاري يوم جاءت

كتائبُ مُسْرِفٍ وبني اللَّكيعة (١)

أرادَنيَ التي لاعـزَّ فيهـا

فحالـت دونه أيدي رَبيعـه (٢)

ولما نَزَلَ بأهل المدينة ماوصفنا من القتل والنهب والرِّق والسبي وغير ذلك مما عنه أعرضنا من مُسْرِفٍ خرج عنها يُريد مَكَّةَ في جيوشه من أهل الشام ليُوقِعَ بابن الزبير وأهلِ مكةَ، بأمر يزيد، وذلك في سنة أربع وستين .

فلما انتهى إلى الموضع المعروف بقُدَيْد (٣) مات مُسْرِفٌ لعنه الله ! واستخلف على الجيش الحصينُ بن نمير (٤) ، فسار الحصينُ حتى أتى مكة وأحاط بها ،

(١) اللكيع : اللئيم . يقصد بني الشام .

(٢) أراد أن أموت ميتة لا عز فيها .

(٣) قديد : موضع قرب مكة .

(٤) الحصين بن نمير : قائد يزيد في الحملة على مكة قتل مع عبيد الله ابن زياد في معركة الخازر ضد إبراهيم بن الأشتر سنة ٦٧ هـ .

وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام ، وكان قد سمى نفسه العائذَ بالبيتِ ، وشُهِر بهذا حتى ذكرته الشعراءُ في أشعارها ، من ذلك ماقدمنا من قول سليمان بن قتة (١) :

فإن تُتْبِعوُه عائذَ البيتِ تُصْبِحوُا
كعادٍ تعَمَّتْ عن هُداها فَضَلَّتِ

رمي الكعبة بالمجانيق : ونصب الحصينُ فيمن معه من أهل الشام المجانيقَ والعَرَّادات (٢) على مكةَ والمسجد من الجبال والفِجاج ، وابنُ الزبير في المسجد ، ومعه المختارُ بن أبي عبيد الثقفي (٣) داخلاً في جملته ، منضافاً إلى بَيْعته ، منقاداً إلى إمامته ، على شرائطَ شَرَطَها عليه لايُخالفُ له رأياً ولايَعصي له أمراً ،

---

(١) سليمان بن قتة : لم أجد له ذكراً فيما بين يدي من مراجع .

(٢) المجانيق والعرادات: آلات حربية لرمي الحجارة . وعرد الحجر : رماه بعيداً .

(٣) المختار بن أبي عبيد : من زعماء الثائرين على بني أمية . اشترك في ثورة مسلم بن عقيل فسجنه عبيد الله بن زياد ونفاه . انتصر على الجيش الأموي في معركة الخازر . قتل في حصار الكوفة من قبل مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ .

فتواردت أحجارُ المَجانيق والعرّادات على البيت ، ورَمى مع الأحجار بالنار والنِّفط ومُشاقَات الكتان (١) وغير ذلك من المحروقات ، وانهدمت الكعبةُ ، واحترقت البَنيَّة ، ووقعت صاعقةٌ فأحرقت من أصحاب المجانيق أحَدَ عَشَرَ رجلاً ، وقيلَ أكثرُ منْ ذلك؛وذلك يومَ السبت لثلاثِ خلَوْنَ من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، قبلَ وفاةِ يزيدَ بأحدَ عَشَرَ يوماً ، واشتد الأمرُ على أهلِ مكَّةَ وابن الزبير ، واتّصل الأذى بالأحجار والنار والسيف : ففي ذلك يقول أبو وَجْزَة المدني (٢) :

ابنُ نُمَيْرٍ بئسَ ما تولّى
قد أحْرَق المقامَ والمُصلّى

وليزيدَ وغيره أخبارٌ عجيبةٌ ، ومثالبُ كثيرةٌ من شُرْب الخمر ، وقَتْلِ ابنِ بنت الرسول ، ولعْنِ

---

(١) مشاقات الكتان : ج مشاقة : ماسقط من الكتان بعد مشقه .

(٢) أبووجزة : هو يزيد بن عبيد . شاعر محدث من التابعين أصله من بني سليم ، سكن المدينة وانقطع إلى آل الزبير . توفي بالمدينة سنة ١٣٠ هـ .

الوصيّ ، وهَدْمِ البيت وإحراقه ، وسفك الدماء ، والفِسْقِ والفجور ، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيدُ باليأس من غُفرانه ، كوروده فيمن جَحَدَ توحيدَه وخالفَ رُسُلَهُ ، وقد أتينا على الغُرَرِ من ذلك فيما تقدّم وسلف من كتبنا . والله ولي التوفيق .

ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ، ومروان ابن الحكم والمختار بن أبي عبيد ، وعبد الله بن الزبير ، ولمع من أخبارهم وسيرهم ، وبعض ما كان في أيامهم

موجز عن معاوية بن يزيد : قال المسعودي : وملَكَ معاويةُ بنُ يزيدَ بن معاوية بعد أبيه ، فكانت أيامُه أربعين يوماً إلى أن مات ، وقيل شهرين ، وقيلَ غيرُ ذلك ، وكان يُكَنّى بأبي يزيد ، وكُنِّي حين وليَ الخلافةَ بأبي ليلى ، وكانت هذه الكُنيةُ للمستضعَفِ من العرب ، وفيه يقول الشاعر :

إني أرى فِتْنَةً هاجَتْ مَرَاجِلُها

والمُلْكُ بعدَ أبي ليلى لمن غَلَبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له : اعْهَدْ إلى من رأيتَ من أهْلِ بيتك ، فقال : والله ماذُقتُ حلاوةَ خلافتكم فكيف أتقلد وِزْرَها ؟ وتتعجلون أنتم حلاوتَها ، وأتعجَّل مرارتَها ، اللَّهُمَّ إني بريءٌ منها ، مُتخلٍّ عنها ، اللهم إني لاأجد نفراً كأهل الشُّورى فأجعلها إليهم ينصبونَ لها من يَرَوْنَه أهلاً لها ، فقالت له أمُّه : ليتَ أني خِرقَةُ حيْضَةٍ ولم أسمع منك هذا الكلام ، فقال لها : وليتني ياأماه خِرقَةُ حَيْضٍ ولم أتقلَّد هذا الأمرَ ، أتفوزُ بنو أُمية بحلاوتها وأبوءُ بوِزْرها ومَنْعِها أهْلَها ؟ كلا ! إني لبريء منها .

وقد تُنوزِعَ في سبب وفاته ، فمنهم من رأى أنه سُقِيَ شَرْبَةً ، ومنهم من رأى أنه مات حَتْفَ أنفه ، ومنهم من رأى أنه طُعِنَ ، وقُبِضَ وهو ابنُ اثنتين وعشرين سنة ، ودُفِنَ بدمشقَ ، وصلى عليه الوليدُ ابن عتبة بن أبي سفيان (١) ، وليكونَ الأمرُ له من بعده ،

(١) الوليد بن عتبة : من رجالات بني أمية فصاحة وحلماً وكرماً ولي المدينة في أيام معاوية ثم عزله يزيد سنة ٦٠ هـ وكان من رجال مشورته بدمشق مات بالطاعون سنة ٦٤ هـ .

فلما كَبَّرَ الثانيةَ طُعِنَ فَسَقَطَ مَيْتاً قبلَ تمامِ الصلاة ، فقدم عثمانُ بنُ عُتْبةَ بن أبي سفيان ، فقالوا : نبايعك ؟ قال : على أن لاأحارب ولاأباشر قتالاً ، فأبوا ذلك عليه ، فصار إلى مكةَ ، ودخل في جملة ابن الزبير .

وزال الأمر عن آل حرب فلم يكن فيهم من يرومها ، ولا يتَشوَّفُ نَحْوَها ، ولا يُرتجي أحدٌ منهم لها .

بين ابن الزبير والحُصين بن نمير : ولما هَلَكَ يزيدُ ابنُ معاويةَ وَوَليها معاويةُ بن يزيد نُمِيَ ذلك إلى الحصين ابن نمير ومَنْ معه في الجيش من أهل الشام ، وهو على حرب ابن الزبير . فهادنوا ابنَ الزبير ، ونَزَلوا مكةَ ، فلقي الحصينُ عبدَ الله في المسجد ، فقال له : هل لك يا بن الزبير أن أحمِلَكَ إلى الشام وأُبايعَ لك بالخِلافة ؟ فقال لهُ عبدُ الله رافعاً صوتَه : أَبَعْدَ قتلِ أهلِ الحَرَّة ، لاوالله حتى أقتُلَ بكلِّ رجلٍ خمسةً من أهل الشام ، فقال الحصين : مَنْ زَعَمَ يا بنَ الزبير أنك داهيةٌ فهو أحمق ، أُكَلِّمكَ سِراً وتكلِّمني علانيةً ،

أدعوك إلى أن أستخلفك فترفع الحربَ وتزعم أنك تقاتلنا ، فستعلم أيّنا المقتولَ ، وانصرفَ أهلُ الشام إلى بلادِهم مع الحصين ، فلما صاروا إلى المدينة جعَلَ أهلُها يهتفون بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنةَ وهَيْجَها صَعِدَ رَوحُ بن زِنباع الجُذاميّ (١) على مِنبَرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان في ذلك الجيش ، فقال : ياأهْلَ المدينة ، ماهذا الإيعادُ الذي تُوعدونَنا ؟ إنا والله مادعوناكم إلى كَلْبٍ لمبايعةِ رجلٍ منهم ، ولا إلى رَجُلٍ من بَلْقَين ، ولا إلى رجلٍ من لَخْمٍ أو جُذَام ، ولاغيرهم من العرب والموالي ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحي من قريش ، يعني بني أمية ، ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيانا تُوعِدون ؟ أما إنا والله لأبناء الطعنِ والطاعون ، وفضلاتُ الموتِ والمنون ، فما شئتم ، ومضى القومُ إلى الشام .

---

(١) روح بن زنباع : أبوزرعة : أمير فلسطين وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها . قيل : له صحبة . توفي سنة ٨٤ هـ .

ابن الزبير يبني الكعبة على قواعد إبراهيم : وحَمِل إلى ابن الزبير من صنعاءَ الفسيفساءُ التي كان بناها أبرهة الحبشي (١) في كنيسته التي اتخذها هنالك، ومعها ثلاث أساطينَ (٢) من رخام فيها وَشْيٌ منقوش قد حُشي النقشُ السِنْدَروس (٣) وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً ، وشرعَ ابنُ الزبير في بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنتِ الكعبةَ عجزت نفقتُهم فنَقَصُوا من سَعَة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذي أسّسه هو وإسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابنُ الزبير وزاد فيه الأذرعَ المذكورةَ ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطينَ ، وجعل له بابين : باباً يُدخَلُ منه ، وباباً يُخرَجُ منه ، فلم يزل البيتُ على ذلك حتى قَتَلَ الحجاجُ عبدَ الله بنَ الزبير ،

---

(١) أبرهة الحبشي : هو أبرهة الأشرم الذي أراد هدم الكعبة فسار إليها ومعه الفيل ووقعت في جسده الأكلة فحمل إلى اليمن فهلك بها وذلك في السنة التي ولد بها النبي (ص) .

(٢) الأساطين : ج أسطوانة : الأعمدة .

(٣) السندروس : كلمة يونانية تعني الصمغ أو معدن شفاف شبيه بالكهرباء يميل لونه إلى الصفرة .

وكتب إلى عبدِ الملك بن مروان يُعلمه بما زادَه ابن الزبير في البيت ، فأمره عبدُ الملك بهدمه ، وَردَّه إلى ما كان عليه آنفاً من بناء قريش وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنْ يجعلَ له باباً واحداً ، ففعل الحجَّاجُ ذلك .

واستوثق الأمرُ لابن الزبير ، وأُخِذت له البَيْعةُ بالشام ، وخُطِبَ له على سائرِ منابرِ الإسلام إلاّ مِنبرَ طبريةَ من بلادِ الأُردُنّ ، فإن حسانَ بنَ مالك بن بحدل (١) أبى أن يبايعَ لابن الزبير ، وأرادها لخالد بن يزيد بن معاوية ، وكان القيِّمَ بأمر بَيْعةِ ابن الزبير بمكة عبدُ الله بن مُطيع العدوي ؛ ففي ذلك يقول قضاعةُ الأسدي (٢) ، وكان بايع لابن الزبير ثم نكث :

دعا ابنُ مطيع للبياع فجئتُه
إلى بَيْعةٍ قلبي لها غيرُ آلفِ

---

(١) حسان بن مالك بن بحدل : أمير بادية الشام . من قواد معاوية يوم صفين . وحفيد بحدل بن أنيف . حكم فلسطين والأردن في عهد معاوية ويزيد . توفي سنة ٦٥ هـ .

(٢) قضاعة الأسدي : لم أعثر على ترجمة فيما بين يدي من مراجع .

فناولــني خَشْنَــاءَ لمــا لمستها

بكفي ليست من أكُفٍّ الخلائف (١)

تدبير مروان بن الحكم : ونظر مروانُ بنُ الحكم في إطباق الناس على مبايعةِ ابن الزبير ، وإجابتهم له ، فأرادَ أن يَلحقَ به وينضافَ إلى جملته ، فمنعهُ من ذلك عبيدُ الله بنُ زياد عند لحاقه بالشَّام ، وقال له : إنك شيخُ بني عبدِ مَناف فلا تعجل ، فصار مروانُ إلى الجابية (٢) ، من أرض الجولان ، بين دمشقَ والأُردُنّ ، واستمال الضحَّاكُ بنُ قيسٍ الفهريّ (٣) الناسَ ، ورأسَهم ، وانحازَ عن مروان ، وأراد دمشقَ ، فسبقه إليها الأشدقُ : عمرو بنُ سعيد بن

---

(١) خشناء : أراد كفاً خشنة .

(٢) الجابية : قال ياقوت : وهي قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له .

(٣) الضحاك بن قيس الفهري : زعيم قبائل قيس عيلان . من أنصار معاوية المخلصين . رفض تأييد مروان بن الحكم في الخلافة . قتل في معركة مرج راهط سنة ٦٥ هـ .

العاص (١) فدخلها وصار الضحّاك إلى حَوران َ والبَثْنة ِ (٢) وأظهر الدعوة لابن الزبير ، والتقى الأشدقُ ومروانُ ، فقال الأشدقُ لمروان : هل لك فيما أقولهُ لك فهو خيرٌ لي ولك ؟ قال مروان : وما هو ؟ : قال أدعو الناسَ إليك وآخذُها لك على أن تكونَ لي من بعدك ، فقال مروانُ : لا ، بل بعدَ خالدِ بنِ يزيد بن معاوية ، فرضيَ الأَشدقُ بذلك ، ودعا الناسَ إلى بَيْعةِ مروانَ فأجابوا ، ومضى الأَشدقُ إلى حسانِ بن مالكٍ بالأردن ، فأرغبه في بيعة مروان فجنح لها .

البيعة لمروان : وبُويع مروانُ بنُ الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويُكَنّى أبا عبد الملك ، وأُمُّه آمنةُ بنتُ علقمة بن صفوان ،

---

(١) عمرو بن سعيد بن العاص : أبوأمية : أمير من البلغاء الخطباء . كان والي مكة والمدينة في خلافة معاوية وابنه يزيد . طمع في الخلافة بعد أن آلت إلى البيت المرواني . قتله عبد الملك بن مروان سنة ٧٠ هـ . ولقب بالأشدق لفصاحته .

(٢) البثنة : قال ياقوت : اسم ناحية من نواحي دمشق وهي البثنية . وقيل هي قرية بين دمشق وأذرعات .

وذلك بالأُردن ، وكان أوّلَ من بايعه أهلُها ، وتمت بيْعتهُ .

وكان مروانُ أوّلَ من أخذها بالسيف كَرْهاً على ماقيل بغير رضا من عُصْبةٍ من الناس ، بل كلٌّ خوّفَهُ إلا عدداً يسيراً حَماهُوه على وثُوبِهِ عليها ، وقد كان غيرهُ ممن سلف أخذها بعددٍ وأعوان ، إلا مروان ، فإنه أخذها على ماوصفنا .

وبايع مروانُ بعدَه لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد الأَشدق بعدَ خالد ، وكان مروان يُلقّبُ بخيط باطل (١) ، وفي ذلك يقول عبدُ الرحمن بن الحكم أخوه :

لحا الله قوماً أمّرُوا خَيْطَ باطلٍ
على الناس يُعطي من يَشاءُ ويَمنَعُ

ترجمةُ مروان : وهَلَكَ مروان وهو ابنُ ثلاثٍ

---

(١) خيط باطل : هو لعاب الشمس . وجاء في القاموس المحيط : خيط باطل : الهواء أو ضوء يدخل من الكوة . ولعل هذا اللقب مأخوذ من صفة مروان . فقد ذكر المسعودي أنه كان طوالاً أصهب أزرق ، بعيد الغور يركب الأمور بغير رهبة .

وستين سنةً ، وقد ذُكر غيرُ ذلك في سِنِّه ، وكان قصيراً أحمرَ ، ومولدُه لسنتين خلتا من الهجرة ، وهلكَ بعد أخذِ البَيْعَةِ لولده بثلاثةِ أشهرٍ ، وقد ذكر ابنُ أبي خيثمة (١) في كتابه في التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم تُوفي ومروان ابن ثمان سنين ، وكان لمروانَ عشرون أخاً وثماني أخوات ، وله من الولد أحدَ عشرَ ذكراً وثلاث بنات ، وهم : عبد الملك ، وعبدُ العزيز ، وعبدُ الله ، وأبان ، وداود ، وعمر ، وأم عمر ، وعبد الرحمن ، وأم عثمان ، وعمرو ، وأم عمرو ، وبشر ، ومحمد ، ومعاوية ، وقد ذكرنا هؤلاء ومَن أعقب منهم ومن لم يُعْقِبْ .

ذكر أيام عبد الملك بن مروان

موجز : وبُويع عبدُ الملك بنُ مروانَ ليلةَ الأحد غُرّة شهر رمضان من سنة خمس وستين ، ثم

---

(١) هو أحمد بن زهير : مؤرخ من حفاظ الحديث . راوية للأدب بصير بأيام الناس . له : « التاريخ الكبير » مولده ووفاته ببغداد . (١٨٥ – ٢٧٩) هـ .

بَعَثَ الحجاجَ بنَ يوسف إلى عبد الله بن الزبير ومن معه من الناس بمكة ، فَقَتَلَ عبدَ الله يوم الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وكانت ولايةُ ابن الزبير تسعَ سنين وعشرَ ليال ، وسنذكر مُدَّةَ ابنِ الزبير بعد هذا الموضع من هذا الكتاب عند ذكرنا الجامعِ مُدّةَ مُلْكِ بني أمية ، ثم هاجت فتنةُ ابنِ الأشعث (١) في شعبان من سنة اثنتين وثمانين ، ثم توفي عبدُ الملك ابن مروان بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين ، وكانت ولايتهُ منذ بويع إلى أن تُوفي إحدى وعشرين سنةً وشهراً ونصفاً ، وبقي بعدَ عبدِ الله ابن الزبير واجتماع من اجتمع عليه من الناس ثلاث عشرة سنةً وأربعةَ أشهرٍ إلا سبعَ ليالٍ ، وسنذكر مافعله من وقت استقامة من استقامَ له من الناس ، وقُبِضَ وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة ، وقيل أكثرُ من ذلك ، وكان يُحِبُّ الشعرَ والفَخْرَ والتقريظ (٢) والمدح ، وكان

---

(١) ابن الأشعث : عبد الرحمن بن محمد : قائد من بني كندة ، انقلب على الحجاج واحتل البصرة ثم أبى الخضوع لأوامر الخليفة عبد الملك ، فغلب في دير الجماجم . مات منتحراً سنة ٨٥ هـ .

(٢) التقريظ : المدح بحق أو باطل .

الغالبَ عليه البخلُ ، وكان له إقدامٌ على الدماء ، وكان عُمّالهُ على مثل مذهبه ، كالحجّاج بالعراق ، والمهلّب(١) بخراسان ، وهشام بن إسماعيل بالمدينة (٢) ، وغيرهم بغيرها ، وكان الحجاج من أظلمهم وأسفكهم للدماء ، وسنذكر في هذا الكتاب جوامعَ من ذكره فيما يلي هذا الباب .

ذكر جمل من أفعاله ، وسيره
ولمع مما كان في أيامه ، ونوادر من أخباره

منادمة الشعبي لعبد الملك : ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تاقت نفسُهُ إلى محادثة الرجال والإشراف على أخبار الناس ، فلم يجد مَن يصلُحُ لمنادمته

---

(١) هو المهلب بن أبي صفرة : أمير من القادة ، ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير ، حارب الأزارقة حوالي عشرين سنة حتى هزمهم ثم ولي خراسان لعبد الملك بن مروان ومات بها سنة ٨٣ هـ .

(٢) هشام بن اسماعيل : مخزومي من أعيان المدينة . كانت بنته زوجة الخليفة عبد الملك . ولاه المدينة إلى أن عزله الوليد بن عبد الملك . توفي بعد سنة ٨٧ هـ .

غيرَ الشَعْبي (١) ، فلما حُمِل إليه ونادمه وحَظِيَ عنده قال له : ياشعْبيُّ لاتساعدْني على ماقَبُحَ ، ولاتردَّ عليَّ الخطأَ في مَجلسي ، ولا تُكافئني جوابَ التَشْميت(٢) والتهنئة ، ولاجوابَ السؤالِ والتعزية ، ودعْ عنك كيف أصبحَ الأميرُ وكيف أمسى ، وكلِّمْني بقدْرِ مااستطْعمتُك واجعلْ بَدَلَ المدحِ لي صوابَ الاستماع مني ، واعلم أنَّ صَوابَ الاستماعِ أكثرُ من صوابِ القول ، وإذا سمعتَني أتحدَثُ فلا يفوتنَّك منه شيءٌ ، وأرِني فَهمك في طَرْفِك وسَمْعِك ، ولاتُجهِدْ نفسَكَ في تَطْرية جوابي ، ولاتَستَدْعِ بذلك الزيادة في كلامي ؛ فإن أسوأ الناس حالاً من استكَدَّ الملوكَ بالباطل (٣) ، وإن أسوأ حالاً منهم من استخفَّ بحقهم ، واعلَمْ ياشَعْبيّ أن أقلَّ من هذا يَذهبُ بسالف الإحسان ، ويُسقِطُ

(١) الشعبي : هو عامر بن شراحيل ينسب إلى شعب : بطن من همدان . تابعي محدث راوية يضرب المثل بحفظه . كان نديم عبد الملك وسميره ورسوله إلى ملك الروم ، كما كان فقيهاً شاعراً . مات فجأة بالكوفة سنة ١٠٣ هـ .

(٢) تشميت العاطس : الدعاء له .

(٣) أي أتعبهم .

حقَّ الحُرْمةِ ؛ فإنَّ الصمتَ في موضعه ربما كان أبلغَ من المنطق في موضعه ، وعندَ إصابته فرصةً .

مهب الرياح : وقال عبدُ الملك للشَّعبي يوماً : من أين تَهُبُّ الريح ؟ قال : لاعِلمَ لي ياأميرَ المؤمنين. قال عبدُ الملك : أما مَهبُّ الشَّمال فمن مطالع بناتِ نَعْش إلى مطالع الشمس ، وأمَّا مَهبُّ الصَّبا فمن مَطالِعِ الشمسِ إلى مَطالِعِ سُهَيْل ، وأمَّا الجنوبُ فمن مطالعِ سهيلٍ إلى مَغربِ الشَّمس، وأما الدَّبور فمن مغرب الشمس إلى مطالع بناتِ نَعْش .

وفاة عبد الله بن العباس : وفي سَلْطنةِ عبد الملك مات أبوالعباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب في سنة ثمان وستين ، وقيل: في سنة تسعٍ وستين ، بالطائف ، وأُمُّه لُبَابةَ (١) بنتُ الحارث بن حَزْن ، من وَلَدِ عامرِ بن صعصعة ، وله إحدى وسبعون سنة ، وقيل : إنَّه وُلِدَ قبلَ الهجرة بثلاث سنين ، وقد ذكر عن سعيد

---

(١) لبابة بنت الحارث أم بني العباس وأختها ميمونة بنت الحارث زوج النبي (ص) .

ابن جبير (١) عن ابن عباس أنه قال : قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنُ عشر سنين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وكان قد ذهب بصره لبكائه على عليّ والحسن والحسين ، وكانت له وَفْرَة طويلة (٢) يخضب شَيْبه بالحناء ، وهو الذي يقول :

إن يأخذِ اللهُ من عَيْنَيَّ نورهما
فغي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ ، وعقلي غيرُ مُدَّخل
وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثورُ (٣)

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا له حين وَضَعَ له الماءَ للطَّهور في بيت خالته ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « اللهم فَقِّهْهُ في الدينِ ، وعَلِّمْهُ التأويلَ » .

---

(١) سعيد بن جبير : أسدي بالولاء ، كوفي تابعي حبشي الأصل . أخذ العلم عن عبد الله بن العباس قتله الحجاج بواسط سنة ٩٥ هـ .

(٢) الوفرة : الشعر الغزير المجتمع على الرأس أو ماسال على الأذنين منه .

(٣) مدخل : من الدخل : هو العيب . والمأثور : السيف الذي يقال : إنه من عمل الجن .

وقيل لابن عباس رضي الله عنه : مامَنَعَ علياً رضي الله عنه أن يبعثَك مكانَ أبي موسى في يوم الحكَمَيْن ؟ فقال : منعه من ذلك حائلُ القَدَرِ ، وقِصَرُ المُدَّةِ ، ومِحْنةُ الابتلاء ، أمَا والله لو بعثني مكانه لاعترضْتُ مدارجَ نَفسه (١) ، ناقضاً لما أبرمَ ومُبرِماً لما نقض ، أسِفُّ إذا طار ، وأطيرُ إذا أسَفَّ ، ولكن مضى قَدَرٌ ، وبقيَ أسَفٌ ، ومع اليوم غَدٌ ، وللآخرةُ خيرٌ للمتقين .

وكان لابن عباس من الوَلَدِ : عليٌّ ، وهو أبو الخلفاء من بني العباس ، والعباسُ ، ومحمدٌ ، والفضل ، وعبدُ الرحمن ، وعبيد الله ، ولبابة ، وأُمُّهم زُرْعَةُ بنتُ مِشْرَح الكِنْدِيَّة ، فأما عُبَيدُ الله ومحمدٌ والفضلُ فلا أعقابَ لهم .

مقتل عمرو بن سعيد الأشدق : وفي سنة سبعين قتَلَ عبدُ الملك بنُ مروان عمرَو بنَ سعيدِ بنِ العاص الأشدق ؛ وهو عمرو بنُ سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان ذا شهامة وفصاحة

---

(١) مدارج النفس : ج مدرجة : المسالك .

وبلاغة وإقدام ، وقد كان بينه وبين عبد الملك محادثات ومكاتبات وخطب طويل طلباً للملك ، وكان فيما كتب إليه عبدُ الملك : إنك لتُطمِعُ نفسك بالخلافة ، ولستَ لها بأهل ، فكتب إليه عمرو : استدراجُ النِّعم إياكَ أفادك البغيَ ، ورائحةُ الغدرِ أورثتك الغفلة ، زُجِرتُ عما وافقتَ عليه ، ونُدِبْتُ إلى ما تركت سبيلَه ، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطالب ماانتقل سلطان ولا ذل عزيز ، وعن قريبٍ يتبيَّنُ مَنْ صريعُ بغي وأسيرُ غفلة .

وقد كان عبدُ الملك سار إلى زُفَرَ بن الحارث الكلابي (١) وهو بقَرقيسياء وبلادِ الرَّحبة وخلَّفَ عمرَو بنَ سعيد بدمشق فبلغه أن عمراً قد دعا الناس إلى بَيْعته بدمشق ، فكَرَّ راجعاً إليها ، فامتنع عمرو فيها ، فناشده عبدُ الملك الرَّحِمَ ، وقال له : لاتُفسِد أمرَ أهْلِ بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة ، وفيما

---

(١) زفر بن الحارث الكلابي : أمير من التابعين ، من أهل الجزيرة ، زعيم قيس في زمانه ، شهد صفين مع معاوية . وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري . ثم هرب إلى قرقيسياء عند مصب نهر الخابور في الفرات وتحصن فيها حتى مات نحو ٧٥ هـ .

صنعتَ قُوَّةُ لابن الزبير ، ارجعْ إلى بيتك فإني سأجعل لك العهدَ ، فرضيَ وصالح ، ودخلَ عبدُ الملك وعمرو متحيِّز منه في نحوِ خمسمائةِ فارسٍ يزولون معه حيثُ زال.

عبدُ الله بنُ الزبير ينعَى أخاه مصعباً : ولما اتّصل قتلُ مُصْعَب بأخيه عبدِ الله أضربَ عن ذِكره حتى تَحدَّث بذلك العبيدُ والإماءُ في سِكَكِ المدينة ومكّة ، فصعِد المنبرَ وجبينه يَرشحُ عرقاً ، فقال : الحمدُ لله مالكِ الدنيا والآخرة ، يؤتي المُلْكَ مَنْ يشاءُ ، وينزعُ الملكَ ممن يشاء ، ويُعِزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قديرٌ ، ألاَ إنه لن يُذِلَّ اللهُ من كان الحقُ معه ، ولن يُعِزَّ من كان أولياءُ الشيطان حزبَه ، إنه أتانا خبرٌ من العراق أحزَنَنا وأفرحَنا ، وهو قَتْلُ مُصعَبِ ، فأمّا الذي أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميمِ لَوْعةٌ يَجدُها حَميمُهُ عندَ المصيبةِ ، ثم يَرْعَوي من بعد ذلك إلى كريمِ الصّبرِ وجميل العزاء ، وأما الذي أفرحنا فإن القتلَ له شهادةٌ ، ويجعلُ الله لنا وله في ذلك الخيرَة ، أمَا والله إنا لا نموتُ حَتْفاً كميتةِ آلِ أبي العاص وإنما نموتُ

قَعْصاً بالرماح (١) ، وقَتْلاً تحتَ ظِلال السيوف ، ألا وإنّ الدنيا عاريةٌ من الملك القَهارِ الذي لايزول سلطانهُ ولايتبدّل ، فإن تُقْبِلِ الدنيا عليّ لآخذُها أخْذَ الأشِرِ البَطِرِ ، وإن تُدبِرْ عَنّي لأبكي عليها بُكاءَ الحزين المهين .

الحَجاج في مكة : فأتى الحجاجُ الطائفَ ، فأقامَ بها شهوراً ، ثم زَحَفَ إلى مكةَ ، فحاصرَ ابنَ الزبير بها ، وكتب إلى عبد الملك إني قد ظفرتُ بأبي قُبَيس (٢) ، فلما ورد كتابهُ على عبد الملك بحصار ابن الزبير بمكة والظفر بأبي قُبَيس كبَّر عبدُ الملك فكَبَّر من معه في داره ، واتصل التكبيرُ بمَنْ في جامعِ دمشقَ فكبروا ، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكَبروا ثم سألوا عن الخبر ، فقيلَ لهم : إن الحجَّاجَ حاصر ابنَ الزبير بمكةَ وظَفِرَ بأبي قُبَيس ، فقالوا : لانرضى

---

(١) مات حتفاً ومات حتف أنفه : أي مات من غير قتل ولا ضرب . ومات قعصاً بالرماح : ضرباً بها .

(٢) أبوقبيس : اسم الجبل المشرف على مكة من الشرق . (ياقوت: ١ / ٨٠) .

حتى يَحمِلَه إلينا مُكَبَّلاً على رأسه بُرنُسُ (١) على جمل يمر بنا في الأسواق الترابي (٢) الملعون ، وكان حصارُ الحجاج لابن الزبير بمكة هلالَ ذي القَعْدة سنة اثنتين وسبعين ، وفيها قُتِلَ مصعبُ وما ذكرنا من قول أهل دمشق في ابن الزبير فذكره عُمُر بنُ شَبَّةَ النميري (٣) عن ابن عاصم ، ومنع ابنُ الزبيرِ الحجاجَ أن يطوفَ بالبيت ، ووقف الحجَّاجُ بالناس بعرفة مُحرِماً في دِرْعٍ ومِغْفَر ، وهو من أبناء إحدى وثلاثين سنة ، ونَحَرَ ابنُ الزبير بمكَّةَ ، ولم يَخرج إلى عَرَفَةَ بسبب الحجَّاج ، فكانت مدَّةُ حصارِ الحجاج لابن الزُّبير بمكة خمسين ليلةً .

ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر : ودخـــل ابن الزبير على أمه أَسْماء بنت أبي بكر الصديق رضي

---

(١) البرنس : قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها في صدر الإسلام .

(٢) الترابي نسبة إلى أبي تراب وهو علي بن أبي طالب (رض) والمعروف أن ابن الزبير لم يكن مشايعاً لعلي ولعلهم نسبوه إليه من قبيل الجهل بما يجري من الأمور .

(٣) عمر بن شبة : شاعر راوية محدث من أهل البصرة له تصانيف عدة منها : « النسب » و « كتاب الكتاب » توفي بسامراء سنة ٢٦٢ هـ .

الله عنه وقد بلغت من السِّنِّ مائةَ سنة لم تَقَعْ لها سنٌّ ، ولا أبيضَّ لها شَعْر ، ولم يُنْكَرْ لها عَقْلٌ ، على حسب ماقدمنا من خبرها في هذا الكتاب ، فقال : ياأُمَّه ، كيف تَجدينَك ؟ قالت : إني لَشَاكيةٌ يابني ، فقال لها : إنَّ في الموت راحةً ، قالت : لَعَلَّك تمناه لي ، وما أُحِب أن أموتَ حتى يأتيَ عليَّ أَحَدُ طرفيك : إمَّا قُتِلْتَ فأحتسبك (١)، وإمَّا ظَفِرتَ فقَرَّت عيني بك ، وأوصى عبدُ الله بما يحتاجُ من أمرِهِ وأَمْرِ نسائِهِ إذا سَمِعْنَ الواعية (٢) عليه أن يَضْمُمْنَ أُمَّهُ أسماءَ إليهن ، وكان عروةُ بنُ الزبير (٣) على رأي عَمِّه عبد الملك بن مروان . وكانت كُتُبُ عبدِ الملك بن مروان إلى الحجاج مُتَّصلةً يأمُرُه بتَعاهُدِ عروةَ وأن لايسوءَه في نفسِهِ وماله ، فخرج عروةُ إلى الحجَّاج ، ورجعَ

---

(١) أحتسبك : ألقى بموتك أجراً عند الله .

(٢) الواعية : الصراخ على الميت .

(٣) عروة بن الزبير : أخو عبد الله بن الزبير : وأحد فقهاء المدينة السبعة . تابعي روى عن أمه أسماء وعن خالته عائشة زوج النبي (ص) لم يدخل في شيء من الفتن مات سنة ٩٣ هـ .

إلى أخيه فقال له : هذا خالدُ بن عبد الله بن خالد بن أسَيْد وعمرو بن عثمان بنِ عفان يعطيانك أمانَ عبد الملك على ما أحْدَثْتَ أنت ومن معك ، وأنْ تنزل أيَّ البلاد شئتَ ، لك بذلك عهدُ الله وميثاقهُ ، وغيرُ ذلك من الكلام ، فأبى عبدُ الله قبولَ ذلك ، وقالت له أمُّهُ أسماءُ : أيْ بنيّ ، لاتقبلْ خطّةً(١) تخافُ على نفسك منها مخافةَ القتل ، مت كريماً ، وإياك أن تؤسَرَ ، أو تُعطي بيديك ، فقال: يا أمّه ، إني أخاف أن يُمثَّلَ بي بعد القتل، فقالت: يابني ، وهل تتألم الشاةُ من ألم السَّلْخ بعد الذبح ؟ ودخلوا على ابن الزبير في المسجد وقتَ الصلاة ، وقد التجأ إلى البيت وهم ينادون : يا بنَ ذاتِ النطاقين ، فقال ابن الزبير متمثلاً :

وعيّرهـــا الواشـــون أني أحبُّهـــا

وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُهـــا

ونظر إلى طائفةٍ منهم قد أقبلوا نحوَهُ بالسيوف ، فقال لأصحابه : من هؤلاء ؟ قالوا : أهلُ مصر ، قال :

(١) الخطة : الأمر .

قَتَلَةَ عثمان أميرِ المؤمنين وَرَبَّ الكعبة ، فَحَمَلَ عليهم ، فضربَ رجلاً منهم به أُدْمَة فقدَّه (١) ، وقال : صبراً يا بنَ حام ، وتكاثر عليه الرِّجالُ من أهل الشامِ ومصر ، فلم يَزَلْ يضرب فيهم حتى أخرجَهم عن المسجد ، ورجع إلى البيت وهو يقول :

ولستُ بمبتاعِ الحياة بِسُبَّة
ولا أبتغي من رَهْبَةِ الموتِ سُلَّما

فاستلم الحجر ، ثم تكاثروا عليه ، فَحَمَلَ عليهم ، وهو يقول :

قد سَنَّ أصحابُك ضَرْبَ الأعناق
وقامت الحربُ بنا على ساق

فأتاه حجرٌ فصَكَّ جبينه فأدماه وأَوْضَحَهُ (٢) ، فقال :

---

(١) الأدمة : السمرة . وقده : قطعه .

(٢) صك : ضرب . وأوضحه : أظهر وضح عظامه .

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومُنا
ولكنْ على أقـدامنا تقْطرُ الدّما

فكشفَهم عن المسجد ، ورجع على من بقي من أصحابه عند البيت ، فقال لهم : ألقوا أغمادَ السيوف ، ولْيَصُن كل رجل منكم سيفَه كما يصونُ وجْهَهُ ، لاينكسرْ سيفُ أحدكم فيقعد كالمرأة ، ولايسأل رجلٌ منكم : أين عبدُ الله . مَنْ يسأل عني فإنني في الرعيل الأول ، ثم أنشأ يقول :

ياربِّ إن جنودَ الشام قد كـثُروا
وهتّكوا من حجـابِ البيت أستارا
ياربِّ إني ضعيفُ الرُّكن مضطهـدٌ
فابعث إليَّ جنوداً منك أنصارا

وتكاثر أهلُ الشام عليه ألوفاً من كلِّ باب ، فحمل عليهم ، فَشُدِخ (١) بالحجارة ، فانصرع ، وأكبَّ عليه موليَان له ، وأحدهما يقول :

العبـدُ يحمي ربَّه ويحتمي

(١) الشدخ : كسر الشيء الأجوف . وشدخ بالحجارة : كسر رأسه بها .

حتى قُتِلوا جميعاً ، وتفرَّق من كان معه من أصحابه ، وأمر به الحجاج فَصُلِب بمكةَ ، وكان مقتلُهُ يومَ الثلاثاء ، لأربعَ عشرةَ ليلةً خلت من جُمادى الأولى ، سنة ثلاث وسبعين .

وكلَّمت أسماءُ أمُّه الحجاجَ في دفنه ، فأبى عليها ، فقالت للحجاج : أشْهدُ إني لسمعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثَقيفٍ كَذَّاب ومُبير (١) » فأما الكذَّاب فهو المختار (٢) ، وأما المبير فما أظنُّك إلا هو .

وسنذكر لُمَعاً من أخبار الحجاج فيما يَرِدُ من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على مبسوطها فيما تقدم من كتبنا .

ولاية الحجاج الحجاز : وأقام الحجاجُ والياً على مكةَ والمدينةِ والحجاز واليمن واليمامة ثلاثَ سنين ، ثم

(١) المبير : المهلك والمبيد .

(٢) هو المختار الثقفي : وقد سبقت ترجمته .

جُمِعَ له العراقُ بعد موت بشر بن مروان (١) بالبصرة .

جابر بن عبد الله : ومات جابرُ بنُ عبدِ الله الأنصاري (٢) في أيام عبد الملك بالمدينة ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ، وقد ذهب بصره ، وهو ابن نَيِّف وتسعين سنة .

وقد كان قدم إلى معاوية بدمشقِ ، فلم يأذن له أياماً ، فلما أذِن له قال : يامعاوية ، أما سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حجب ذا فاقةٍ وحاجةٍ حجبه اللهُ يومَ القيامة ، يومَ فاقتِهِ وحاجته » فغضب معاوية ، وقال له: لقد سمعتهُ يقول : « إنكم ستَلْقَوْنَ بعدي أَثَرَةً ، فاصبروا حتى تَرِدُوا على الحَوضِ » أفلا صبرت ؟ قال : ذكَّرتَني مانسيت ، وخرج فاستوى على راحلته ومضى ، فوجه إليه معاويةُ بستمائة دينار ، فردَّها وكتب إليه :

---

(١) بشر بن مروان بن الحكم : أمير أموي حاكم الكوفة والبصرة كان محباً للشعر والفن ، واشتهر بشرب الخمرة . توفي بالبصرة سنة ٧٥ هـ .

(٢) جابر بن عبد الله الأنصاري : صحابي من رواة الحديث ، روى عنه جماعة من الصحابة .

وإني لأختارُ القنوعَ على الغنى
إذا اجتمعا والماءَ بالبارد المحض(١)

وأقضي على نفسي إذا الأمر نابني
وفي الناس من يُقضَى عليه ولا يَقضِي

وألبسُ أثوابَ الحياءِ ، وقد أرى
مكانَ الغنى أن لاأهينَ به عِرْضي

وقال لرسوله : قلْ له واللهِ يا بنَ آكلةِ الأكباد (٢) لا وَجَدْتَ في صحيفتك حَسَنةً أنا سبَبُها أبداً .

ملك الروم والشّعبي : وذكر الشّعْبي قال : أنفذني عبدُ الملك إلى مَلِكِ الروم ، فلما وصلتُ إليه جعل لايسألني عن شيء إلا أجبتهُ ، وكانت الرسلُ

---

(١) العيش البارد : هو العيش الناعم . والمحض : الصافي الذي لا تنغيص فيه ولا كدر .

(٢) هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : صحابية قرشية عالية الشهرة ، وهي أم معاوية بن أبي سفيان وكانت فصيحة جريئة ، مثلت بقتلى المسلمين في وقعة أحد . ثم أسلمت يوم فتح مكة وشهدت اليرموك توفيت سنة ١٤ هـ .

لاتُطيلُ الإقامةَ عنده ، فحبَسني أياماً كثيرة ، حتى استحببتُ خروجي فاما أردتُ الانصرافَ قال لي : مِنْ أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكني رجلٌ من العرب في الجملة ، فهمس بشيء ، فدُفِعتْ إليَّ رُقْعةٌ ، وقيلَ لي : إذا أدَّيتَ الرسائلَ عند وصولك إلى صاحباك أوْصِل إليه هذه الرُّقعةَ ، قال : فأدَّيتُ الرسائلَ عند وصولي إلى عبد الملك ، ونَسيتُ الرقعة فلما صِرتُ في بعض الدار إذ بدأتُ بالخروج تذكرتُها فرجعت فأوصلتها إليه فاما قرأها قال لي : أقال لك شيئاً قبل أن يدفعَها إليك ؟ قلت : نعم ، قال لي من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت: لا ولكني رجلٌ من العرب في الجملة . ثم خرجت من عنده ، فاما بلغتُ البابَ رُدِدْتُ ، فلما مَثَلْتُ بين يديه قال لي : أتدري مافي الرقعة ؟ قلت : لا ، قال : اقرأها ، فاما قرأتها فإذا فيها : عجبتُ من قوم فيهم مثلُ هذا كيف ملّكوا غيْرَه ، فقلت له : والله لوعلمتُ مافيها ماحملتُها ، وإنما قال هذا لأنه لم يرَك ، قال : أفتدري لِمَ كتبها ؟ قلت : لا ، قال : حَسَدَني عليك وأراد أن يُغْرِيَني بقتلك ، قال :

فتأدَّى (١) ذلك إلى ملك الروم ، فقال : ماأرَدْتُ إلا ماقال .

وصف معاوية عبد الملك : وَذُكِرَ عندَ معاويةَ عبدُ الملك فقال : هو آخذٌ بثلاث ، وتاركٌ لثلاث ؛ آخذٌ بقلوبِ الناس إذا حَدَّثَ ، وبحُسْنِ الاستماعِ إذا حُدِّثَ ، وبأيسر الأمرين إذا خُولِفَ ، تاركٌ للمُمارَاة(٢) ، تاركٌ للغيبة ، تارك لما يُعتَذَرُ منه .

وقال لعبد الملك بعضُ جلسائه يوماً : أريد الخَلْوَةَ بك ، فلما خلا به قال له عبدُ الملك : بشَرْطِ ثلاثِ خصال : لا تُطْرِ نفسي عندَك فأنا أعلمُ بها منك ، ولاتَغْتَبْ عندي أحداً فلستُ أسمع منك ، ولاتَكذِبْني فلا رأي لمكذَّب(٣) ، قال : أتأذنُ لي في الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

---

(١) وصل ذلك إليه .

(٢) المماراة : المجادلة .

(٣) جاء في أساس البلاغة : ليس لمكذوب رأي . ولعله قصد بـ«المكذّب» الذي يقال له : كذبت .

ذكر طُرَفٍ من أخبار الحجاج ، وخُطَبِه
وما كان منه في بعض أفعاله

سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء : كانت أم الحجاج عند الحارث بن كَلَدة (١) ، فدخل عليها في السَّحَرِ فوجدها تَتَخلَّل ، فبعث إليها بطلاقها ، فقالت : لم بَعثْتَ إلي بطلاقي ؟ ألشيء رابَكَ مِنّي ؟ قال : نعم ، دخلتُ عليك عند السَّحر وأنت تتخللين (٢) ، فإن كنتِ بادرْتِ الغَداءَ فأنتِ شَرِهة ، وإن كنتِ بتِّ والطعامُ بين أسنانك فأنت قَذِرة ، فقالت : كلٌّ ذلك لم يكن ، لكني تخلَّلتُ مِن شظايا السِّواك ، فتزوجَها بعدَه يوسفُ بنُ أبي عَقيل الثقفي أبوالحجاج ، فولَدَتْ له الحجَّاجَ بنَ يوسف

---

(١) الحارث بن كلدة : ثقفي من الطائف أدرك الجاهلية وعاصر النبي (ص) . رحل إلى بلاد فارس فأخذ الطب عن أهلها . كانت الحمية عنده أنجع دواء . دعاه النبي (ص) لمعالجة سعد بن أبي وقاص .. توفي نحو ٥٠ هـ .

(٢) تخللت المرأة : نظفت مابين أسنانها بالخلال وهو العود الذي يتخلل به .

مشوهاً لادُبْرَ له ، فَثُقِبَ عن دُبْره ، وأبى أن يَقْبَل ثديَ أمه أو غيرها ، فأعياهم أمرهُ ، فيقال : إن الشيطانَ تصور لهم في صورة الحارثِ بن كَلَدَةَ ، فقال : ماخبرُكم؟ فقالوا : ابنٌ وُلِدَ ليوسُفَ من الفارعة ، وكان اسمَها ، وقد أبى أن يَقْبل ثديَ أمه أو غيرها ، فقال : اذبحوا جَدْياً أسودَ وأولِغوه دمَهُ ، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك ، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تَيْساً أسودَ وأولِغُوه دَمَهُ ، ثم اذبحوا له أسودَ سالخاً (١) فأولغوه دَمَه واطلُوا به وَجْهَهُ ، فإنه يَقْبلُ الثديَ في اليوم الرابع ، قال : ففعلوا به ذلك ، فكان بعدُ لايَصبِرُ عن سَفْكِ الدماء لما كان منه في بَدء أمره ، هذا وكان الحجاج يُخبِرُ عن نفسه أن أكثر لذّاته سفكُ الدماء ، وارتكابُ أمورٍ لايُقدِمُ عليها غَيْرُه ، ولاسَبَقَ إليها سواه .

وقائع دير الجماجم وقتل ابن الاشعث : فالتقى

---

(١) الأسود : العظيم من الحيات . والسالخ : الذي سلخ قشره .

الحجاجُ وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم(١) ، فكانت بينهم وقائعُ: نَيِّفٌ وثمانون وَقْعَةً تَفَانَى فيها خَلائقُ ، وذلك في سنة اثنتين وثمانين ، وكانت على ابن الأشعث فمضى حتى انتهى إلى مُلوكِ الهند ، ولم يزلْ الحجاجُ يحتالُ في قتْلِهِ حتى قُتِلَ ، وأُتيَ برأسه ، فعلا الحجاج منبرَ الكوفة ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ياأهلَ العراق ، إنَّ الشيطانَ استبطنكم فخالط اللحمَ منكم والعظمَ والأطرافَ والأعضاءَ ، وجرى منكم مجرى الدم ، وأفْضَى إلى الأضلاع والأمخاخ ، فحشا ماهناك شِقاقاً واختلافاً ونِفاقاً ، ثم أربَع (٢) فيه فعشَّشَ ، وباضَ فيه ففرَّخَ ، واتخذتموه دَليلاً تتابعونه ، وقائداً تطاوعونه ومُؤمَّراً تستأمرونه ، ألستم أصحابي بالأهوازِ حين

---

(١) دير الجماجم : قال ياقوت : دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة . وقال أبوعبيدة : الجمجمة : القدح من الخشب وبذلك سمي دير الجماجم لأنه كان يعمل به الأقداح من الخشب . وقيل غير ذلك . وابن الأشعث سبقت ترجمته .

(٢) أربع فيه : بمعنى أقام .

سعيتم بالغادر بي فاستجمعتم عليَّ ؟ وحيثُ ظننتم أن الله سيخذلُ دينَه وخلافتَه ، وأُقسم بالله إني لأراكم بطرفي وأنتم تتسللون لِوَاذاً (١) منهزمين ، سِراعاً مفترقين ، كلُّ امرىء منكم على عنقه السيفُ رُعْباً وجبناً ، ثم يوم الزاوية (٢) وما يوم الزاوية ؟ بها كان فشَلكُم وتخاذلُكم ، وبراءةُ الله منكم ، وتوليكم على أكتافكم السيوف هاربين ، ونكوص وليكم عنكم ، إذ ولَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها لايسأل الرجل عن بنيه ، ولا ياوي امرؤٌ على أخيه ، حتى عَضَّتْكم السلاح ، وقَصفَتْكم الرماح ، ويوم دير الجماجم ، بها كانت الملاحم ، والمعارك العظائم :

ضرباً يُزيلَ الهامَ عن مَقيلـــــه
ويُذهِـــلُ الخليلَ عن خليلـــه

فما الذي أرجوه منكم ياأهلَ العراق ؟ أم ما الذي

---

(١) تتسللون لواذاً : يلوذ بعضكم ببعض .

(٢) الزاوية : موضع قرب البصرة كانت به الوقعة المشهورة بين الحجاج وابن الأشعث سنة ٨٢ هـ . ياقوت ٣ / ١٢٨ .

أتوقّعه ؟ ولماذا أستبقيكم ؟ ولأي شيء أدّخركم ؟ ألِلمُفَجَرات(١) بعد العداوات؟ أم للنزوة بعد النزوات(٢) ؟ وما الذي أراقبُ بكم ؟ وما الذي أنتظر فيكم ؟ إن بُعِثْتُم إلى ثغوركم جَبُنتُم ، وإن أَمِنتُم أو خفتم نافقتم ، لاتُجزُونَ بِحَسَنَةٍ ولا تَشكرون نعمةً .

ياأهل العراق ، هل استنبحكم نابحٌ ، أو استشلاكم(٣) غاوٍ ، أو استخفّكُم ناكثٌ أو استنفركم عاصٍ إلا تابعتموه ، وآويتموه وكفيتموه ؟ ياأهلَ العراق ، هل شَغَبَ شاغِبٌ أو نعب ناعب أو دبى (٤) كاذبٌ إلا كنتم أنصارَه وأشياعَه ؟

ياأهلَ العراق ، لم تنفعْكُمُ التجاربُ، وتحفظْكم المواعظُ، وتعظْكُمُ الوقائع ، هل يقعُ في صدوركم ماأوقعَ الله بكم عند مصادرِ الأمور ومواردِها ؟

---

(١) الفجرات : ج فجرة : العصيان .

(٢) النزوة : الوثبة . والنزاء إلى الشر : المسارعة إليه .

(٣) استشلا كم غاو : أغواكم وأغراكم . والغاوي : الضال .

(٤) دبى كاذب : الدبى : المشي الرويد . ولعله أراد : سعى كاذب .

يا أهلَ الشام ، أنا لكم كالظَّليم (١) الرامحِ عن فِراخه ، ينفي عنهنَّ القذى ، ويكنفُهُنَّ من المطر ، ويحفظهُنَّ من الذئاب ، ويحميهنَّ من سائر الدواب ، لايخلص إليهنَّ معه قذى ، ولا يُفْضِي إليهن ردًى ، ولا يَمَسُّهُنَّ أذى .

من عبد الملك إلى الحجاج : ولما أسرفَ الحجاج في قتْلِ أسارى دَير الجماجم وإعطائِهِ الأموالَ بلغ ذلك عبدَ الملك ، فكتب إليه : أمَّا بعدُ ، فقد بلغَ أميرَ المؤمنين سَرَفُكَ في الدِّماء ، وتبذيرُك في الأموال ، ولايحتملُ أميرُ المؤمنين هاتين الخَصْلتين لأحدٍ من الناس ، وقد حكم عليك أميرُ المؤمنين في الدماءِ : في الخطأ الدِّيَةُ ، وفي العَمْدِ القَوَدُ (٢) ، وفي الأموال ردُّها إلى مواضعِها ، ثم العملُ فيها برأيه ، فإنما أميرُ المؤمنين أمينُ الله ، وسيّانِ عندَهُ منعُ حقٍّ وإعطاءُ باطل ، فإن كنت أردتَ الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك

(١) الظليم : ذكر النعام .

(٢) القود : القصاص .

فما أغناكَ عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لينٌ وشدَّةٌ ، فلا يؤنسنَّك إلا الطاعةُ ، ولا يوحشنَّك إلا المعصيةُ ، وظُنَّ بأمير المؤمنين كلَّ شيءٍ إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلَنَّ جانحاً ولا أسيراً ، وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنت لم تتركْ أموراً كرهتُها
وتَطْلبْ رضائي بالذي أنا طالبهُ

وتخشى الذي يخشاه مِثلُك هارباً
إلى الله منه ضَيّعَ الدَّرَّ حالبهُ (١)

فإن ترَ مني غفلةً قُرَشيةً
فيا ربما قد غَصَّ بالما شاربهُ

وإن ترَ مني وَثبةً أمويَّةً
فهذا وهذا كلٌّ ذا أنا صاحبهُ

فلا ، لاتلُمْني والحوادثُ جَمَّةٌ
فإنكَ مَجْزِيٌّ بما أنتَ كاسِبهُ

---

(١) الدر : اللبن .

ولا تَعِدْ ماليأتيك منّي وإن تَعِدْ
يَقومُ بها يوماً عليك نَوادِبُه
ولاتَنقُصَنْ للنـاس حقاً علِمتَهُ
ولا تُعطين مـاليس لله جانبـه

وهي أبيات من جيد مااخترناه من قول عبد الملك .

جواب الحجاج : فلمـا قرأ الحجَّاجُ كتـابَهَ كتب : أمَّا بعدُ فقد أتاني كتابُ أميرِ المؤمنين يذكُرُ فيه سَرَفي في الدماء ، وتبذيري في الأموال ، ولعَمْري مابلَغتُ في عقوبة أهلِ المعصية ماهُم أهلُهُ ، وما قَضَيتُ حَقَّ أهلِ الطاعة بما استحقُّوه ، فإن كان قتلي أولئك العصاة سرفاً ، وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً فَلْيُسَوِّغْني أميرُ المؤمنين ماسلف ؛ وليحدَّ لي فيه حَدّاً أنتهي إليه إن شاءَ اللهُ تعالى ، ولا قُوَّةَ إلا بالله ، وَوالله ماعليَّ من عَقْلٍ (١) ولا قَوَد : ماأصبتُ القوم خطأ فأدِيَهُمْ ، ولا ظلمتهُمْ فأُقاد بهم ، ولا أعطيتُهم

---

(١) العقل : الدية .

إلا لك ، ولا قتلتُ إلا فيك ، وأما ماأنا مُنتَظِرُه من أمريك فألينُهما عِدَة (١) ، وأعظمهما مِحنة ، فقد عبأت للعِدَة الجلاد (٢) ، وللمحنة الصبر ، وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنا لم أتبعْ رِضاك وأتَّقي
أذاك فيومي لاتزول كواكبه
وما لامرئ بعد الخليفة جُنَّةٌ
تقيه من الأمر الذي هو كاسبه
أسالم من سالمتَ من ذي قرابة
ومَن لم تسالمْه فإني مُحاربُه
إذا قارفَ الحجَّاجُ منك خطيئةً
فقامت عليه في الصباح نوادبه
إذا أنا لم أُدنِ الشفيقَ لنُصْحِه
وأُقصي الذي تَسري إلي عقاربُه (٣)

(١) العدة : الوعد .
(٢) الجلاد : لعله قصد : الاحتمال والصبر .
(٣) العقارب : النمائم .

فمن ذا الذي يرجو نوالي ويتّقي
مُصاولتي ، والدهرُ جمّ نوائبه ؟
فقف بي على حدٍّ الرضا لاأجوزه
مدى الدهر حتى يُرجعَ الدرَّ حالبهُ
وإلا فدعني والأمورَ فإنني
شفيقٌ رفيقٌ أحكمتني تجاربهُ

وهي أبيات من جيد مااخترناه من شعر الحجاج .

فلما انتهى كتابهُ إلى عبد الملك قال : خافَ أبو محمد صولتي ، ولن أعودَ لشيء يكرهه .

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك

موجز : وبُويعَ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ بدمشق في اليوم الذي تُوفي فيه عبدُ الملك ، وتُوفي الوليدُ بدمشق للنصف من جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين ؛ فكانت ولايتهُ تسعَ سنين وثمانية أشهر وليلتين ، وهلكَ وهو ابنُ ثلاث وأربعين سنة ، وكان يُكنّى بأبي العباس .

ذكر لمع من أخباره ، وسيره
وما كان من الحجاج في أيامه

خُلُقُ الوليد وولده : كان الوليد جَبَّاراً عنيداً ، ظَلوماً غَشُوماً ، وخَلَّفَ من الولد أربعةَ عَشَرَ ذَكَراً منهم يَزْيدُ ، وعمرو ، وبِشْرُ العالم ، والعباس ، وكان يدعى فارس بني مروان لشهامته ، فَعَدَلَ الوليدُ بالأمر عن وَلَدِه بعدَهُ اتّباعاً لوصية عبد الملك على حسب مارتبها ، وكان نقشُ خاتمه « ياوليد إنك ميت » فكان كلما هَمَّ أن يجعلَ الأمرَ لولده قَلَبَ الفَصَّ وقرأ « إنك مَيْتٌ » فيقول : لاها الله (١) ، لاخالفتُ ماأمرَني به أبي ، إني لميت .

بناء مسجدي دمشق والمدينة : وفي سنةِ سبعٍ وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق ، وبناءِ مسجدِ الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فأنفق عليهما الأموال الجليلةَ ، وكان المتولِّي للنَّفقة على ذلك عُمَرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

---

(١) لا ها الله : جل وعلا .

وحكى عثمانُ بنُ مرةَ الخولاني قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وَجَدَ في حائط المسجد لوحاً من حجارةٍ فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهلِ الكِتاب ، فلم يَقدِروا على قراءته ، فوجَّه به إلى وهب بن مُنَبِّه(١) ، فقال : هذا مكتوبٌ في أيامِ سُلَيمانَ بنِ داود عليهما السلام ، فقرأه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابنَ آدم ، لو عَايَنت مابقي من يَسير أَجلِك ، لزهدتَ فيما بقي من طُول أملك ، وقَصَّرتَ عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمَك ، إذا زَلَّتْ بك قدمُك وأسلمك أهلُك وحشمُك وانصرف عنك الحبيبُ ، وَوَدَّعك القريب ، ثم صِرتَ تُدعى فلا تُجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائدٌ ، ولا في عَملك زائد فاغتنم الحياةَ قبلَ الموت ، والقوَّةَ قبلَ الفَوْتِ ، وقبلَ أن يؤخذَ منك بالكَظْم (٢) ، ويحال بينك وبين العمل ؛

(١) وهب بن منبه : مؤرخ من التابعين اشتهر بمعرفته أخبار الأقدمين . وهو فارسي الأصل . ولد ومات بصنعاء له : « التيجان في ملوك حمير » . مات سنة ١١٤ هـ .

(٢) الكظم : الغم والكرب .

وَكُتِبَ زَمَنَ سليمان بن داود ؛ فأمر الوليدُ أن يُكتَبَ بالذهب على اللازورد (١) في حائط المسجد : رَبُّنا الله ، لانَعْبدُ إلا الله ، أَمَرَ ببناء هذا المسجد ، وهَدْمِ الكنيسة التي كانت فيه عبدُ الله الوليدُ أميرُ المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ، وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة .

بين الوليد والحجاج : ووفد الحجاجُ بنُ يوسف على الوليد ، فوجده في بعض نُزَهِهِ ، فاستقبله ، فلما رآه ترجَّلَ له ، وقبَّلَ يَدَه ، وجعل يمشي وعليه دِرعٌ وكِنانة وقوسٌ عربية ، فقال له الوليد : اركب ياأبا محمد ، فقال : دعني ياأمير المؤمنين أستكثرُ من الجهاد ؛ فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك ، فعزَم عليه الوليدُ حتى ركب ، ودخل

---

(١) اللازورد : (كلمة فارسية) وهو حجر كريم أجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة . ويتخذ للحلي .

الوليدُ دارَه ، وتفضّل في غِلالةٍ (١) ، ثم أذِنَ للحجّاج فدخل عليه في حاله تلك، وأطالَ الجلوسَ عنده ، فبينما هو يحادثهُ إذ جاءت جارية فسارّتِ الوليدَ ومضت ، ثم عادت فسارّتْه ثم انصرفت ، فقال الوليد للحجاج : أتدري ماقالت هذه ياأبامحمد ؟ قال : لاوالله ، قال : بعثتْهَا إليّ ابنةُ عمّي أمُّ البنين بنتُ عبد العزيز تقول : مامجالستُك لهذا الأعرابي المتسلّحِ في السلاح وأنتَ في غِلالة ؟ فأرسلت إليها إنه الحجّاجُ ، فراعَها ذلك ، وقالت : والله ماأُحبُّ أن يخلوَ بك وقد قتَلَ الخلقَ : فقال الحجاج : ياأميرَ المؤمنين ، دَعْ عنك مفاكَهةَ النساء بزُخْرُفِ القول ، فإنما المرأةُ رَيحانةٌ وليست بقَهرَمَانة (٢) ، فلا تُطلعهنّ على سرك ، ولا مُكايَدةِ عَدوِّك ، ولا تُطعهُنّ في غيرِ أنفسهن ، ولا تَشْغلْهُنّ بأكثرَ

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع . وتفضل : ارتدى ثياب النوم .

(٢) القهرمانة : أمينة الدخل والخرج .

من زينتهن، وإياك ومشاورتهن في الأمور فإنّ رأيهن إلى أفْنٍ (١) ، وعزمهُنّ إلى وهْنٍ ، واكفف عليهنّ من أبصارهنّ بحُجبك ، ولا تملك الواحدةُ منهن من الأمور ما يجاوزُ نفْسَها ، ولا تُطمعها أن تشفعَ عندك لغيرها ، ولا تُطلِ الجلوس معهن والخلْوةَ بهن ، فإنّ ذلك أوفرُ لعقلك وأبيَنُ لفضلك ، ثم نهض الحجاجُ فخرج .

بين الحجاج وأم البنين : ودخل الوليدُ على أمّ البنين فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : ياأمير المؤمنين أُحبُّ أن تأمره غداً بالتسليم عليّ ، فقال : أفعَلُ ، فلما غدا الحجّاجُ على الوليد قال له : ياأبامحمد ، سِرْ إلى أمّ البنين فسلّم عليها ، فقال : أعفِني من ذلك ياأميرَ المؤمنين ، فقال : لابدّ من ذلك ، فمضى الحجّاجُ إليها ، فحجبتْهُ طويلاً ، ثم أذِنت له فأقرّته قائماً ، ولم تأذَنْ له في الجلوس ، ثم قالت : إيهٍ ياحجاج ، أنتَ الممتَنُّ على أمير المؤمنينِ بقتْلِ ابن الزبير وابن

---

(١) الأفن : الفساد وقلة العقل .

الأشعث ؟ أما والله لولا أنَّ اللهَ جعلَك أهونَ خلقه ماابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتلِ ابنِ ذاتِ النِّطاقين ، وأوّلِ مولودٍ وُلِدَ في الإسلام ، وأمّا ابنُ الاشعث فقدْ واللهِ والى علياكَ الهزائمَ ، حتى لُذْتَ بأميرِ المؤمنين عبد الملك فأغاثَك بأهلِ الشام وأنتَ في أضيق من القرن ، فأظلَّتْك رماحهم ، وأنجاك كفاحُهم وطالما نفضَ نساءُ أمير المؤمنين المِسْكَ من غدائرهن وبعنَهُ في الأسواق في أرْزاق البعوث إليك ، ولولا ذلك لكنتَ أذلَّ من النَّقَدِ(١)،وأما ماأشرتَ به على أمير المؤمنين من ترك لَذّاتهِ والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كنَّ ينفرجنَ عن مثلِ ماانفرجتْ به عنكَ أمُّك فما أحقَّه بالأخذ عنك والقَبول منك ، وإن كنَّ ينفرجنَ عن مِثلِ أميرِ المؤمنين فإنه غيرُ قابلٍ منك ولا مُصغٍ إلى نصيحتك ، قاتل اللهُ الشاعرَ وقد نظرَ إليك وسِنانُ غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

(١) النقد : صغار الغنم ، والنقد من الصبيان : القميء الذي لا يكاد يشب .

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامـــــة
فزعاء تفزع من صفير الصافر (١)
هلاّ برَزْتَ إلى غزالة في الـــــوغى
بل كان قلبُك في جناحي طائر

ثم قالت لجواريها أخرجنَهُ عني ، فدخل إلى الوليد من فَوْرِه ، فقال له : ياأبامحمد ماكنت فيه ؟ فقال : والله ياأمير المؤمنين ماسكتتْ حتى كان بطنُ الأرضِ أحبَّ إلي من ظاهرها ، فضَحِكَ الوليدُ حتى فَحَصَ برجله ، ثم قال : ياأبا محمد ، إنها بنتُ عبدِ العزيز .

---

(١) البيتان لعمران بن حطان السدوسي : وهو شاعر خارجي معروف من أهل البصرة اشتهر بطلب العلم والحديث أدرك بعض الصحابة وروى عنهم وروي عنه توفي سنة ٨٤ هـ .

وغزالة الحرورية : امرأة شبيب بن يزيد الحروري ، من شهيرات النساء في الشجاعة والفروسية . ولدت في الموصل وخرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ وهي التي أجبرت الحجاج على الفرار حين دخلت الكوفة . قتلها خالد بن عتاب الرياحي في معركة على أبواب الكوفة سنة ٧٧ هـ .

ولأم البنين هذه أخبارٌ كثيرة في الجود وغيره ، وقد أتينا على ذكرها في غير هذا الكتاب .

موت علي بن الحسين السَّجَّاد : وفي سنة خمسٍ وتسعين قُبِضَ عليٌّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب في ملك الوليد ، ودفن بالمدينة في بَقيع الغَرْقَدِ مع عمه الحسن بن علي ، وهو ابنُ سبعٍ وخمسين سنة ، ويقال : إنه قبض سنة أربع وتسعين ، وكلُّ عقب الحسين من علي بن الحسين هذا ، وهو السَّجَّاد على ما ذكرنا ، وذو الثَّفنات وزين العابدين .

موت عبد الملك بن مروان : وذكر المدائني (١) قال : دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته ، فجعل يبكي عليه وقال : كيف أصبح أمير المؤمنين ؟ فقال عبدُ الملك :

---

(١) المدائني : هو علي بن محمد المدائني ، راوية مؤرخ كثير التصانيف من أهل البصرة سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد وتوفي بها سنة ٢٢٥ هـ .

ومشتغلٍ عنـــا يُريدُ بنا الردى
ومُستَعْبِراتٍ والعيـــونُ سَواجِم(١)

أشار بالمصراع الأول إلى الوليد ، ثم حوّل وجهه عنه ، وأشار بالمصراع الثاني إلى نسائه ، وهن المستعبرات.

وذكر العُتْبي (٢) وغيره من الأخباريين أن عبدالملك لما سأله الوليد عن خبره وهو يجود بنفسه أنشأ يقول :

كم عائدٍ رجـــلاً وليسَ يَعودُه
إلا لينظرَ هـــل يَراه يموتُ

وقيل : إن عبد الملك نظرَ إلى الوليد وهو يَبكي عليه عند رأسه فقال : ياهذا ، أحنينَ الحمامة ؟ إذا أنا متُّ فشمِّر واتّزرْ ، والبسْ جِلْدَ نَمِر ، وضعْ سيفَكَ على عاتِقِكَ ، فَمَنْ أبدى ذاتَ نَفْسِهِ لك فاضرِب عُنُقَه ، ومن سكت مات بدائهِ ثم أقبل عبدُ الملك

(١) المستعبرات : الباكيات . وسجم الدمع : سال .

(٢) العتبي : هو محمد بن عبيد الله من ولد عتبة بن أبي سفيان . أديب كثير الأخبار حسن الشعر من أهل البصرة له تصانيف منها : « أشعار الأعاريب » و « الخيل » مات بالبصرة سنة ٢٢٨ هـ .

يَذُمُّ الدنيا فقال : إن طويلَكِ لقصير ، وإن كثيرَكِ لقليل ، وإنْ كنّا منك لَفي غُرور ، ثم أقبل على جميع وَلَدِه فقال : أوصيكم بتقوى الله فإنها عِصمةٌ باقيةٌ ، وجُنّةٌ واقية ، فالتقوى خيرُ زاد ، وأفضلُ في المعاد ، وهي أحصنُ كهف ، ولْيَعطفِ الكبيرُ منكم على الصغير ، وليعرفِ الصغيرُ حقَّ الكبيرِ مع سَلامَةِ الصدُّورِ ، والأخْذِ بجميلِ الأمور ، وإياكم والبَغْيَ والتَحاسُدَ ، فبهما هَلَكَ الملوكُ الماضون ، وذوو العزِّ المكين ، يابَنيَّ أخوكم مَسْلَمةُ (١) نابكُم الذي تَفْتَرُّون عنه ، ومِجنُّكُم الذي تَستجنُّون به ، اصدرُوا عن رأيه ، وأكرِموا الحجّاجَ فإنه الذي وَطّأَ لكم هذا الأمرَ ، وكونوا أولاداً أبراراً ، وفي الحروبِ أحراراً ، وللمعروف مَناراً ، وعليكم السلام .

وسأله بعضُ شيوخ بني أمية — وقد فَرَغَ من وصيةِ أولاده هذه — قال : كيف تجدُك ياأميرَ المؤمنين : قال :

---

(١) مسلمة : هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان : أمير قائد من أبطال عصره . له فتوحات مشهورة ، غزا القسطنطينية ثم غزا الترك والسند ومات بالشام سنة ١٢٠ هـ . قال الذهبي : كان أولى بالخلافة من سائر إخوته .

كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ : ((ولقد جِئْتمُونا فُرَادى كما خلَقْناكُم أوَّلَ مَرَّةٍ ، وتَركتُم ماخوَّلناكم ورَاءَ ظهوركم)) إلى قوله ((وما كنتم تزْعُمون)) فكان هذا آخرَ كلامٍ سُمِعَ منه .

فلما قضى سجَّاه (١) الوليدُ ، ثم صَعِدَ المنبرَ فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : لم أرَ مثلَها مُصيبةً ، ولا مِثلَها نِعْمَةً ، فَقَدْتُ الخليفةَ ، وتقلَّدتُ الخلافةَ ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة ، والحمدُ لله ربِّ العالمين على النِّعمة ، ثم دعا الناسَ إلى بَيْعتِه فبايعوا ، ولم يَختلِفْ عليه أحدٌ .

مقتلُ سعيدِ بنِ جُبَير : وفي سنة أربع وتسعين قَتَلَ الحجاج سعيد بن جبير ، فذكر عونُ بن أبي راشد العبدي قال : لما ظَفِرَ الحجَاجُ بسعيد بن جُبَيرٍ وأُوْصلِ إليه قال له : ماسمُك ؟ قال : اسمي سعيدُ بنُ جُبير ، قال : بل شَقِيٍ بنُ كَسِير ، قال : أبي كان أعلمَ باسمي منك ، قال : لقد شَقِيتَ وشقيَ أبوك ، قال له :

(١) سجاه : مد عليه ثوباً .

الغَيْبُ إنما يعلَمه غيرُك ، قال : لأُبَدّلَنَّك بالدنيا ناراً تَلَظّى ، قال : لوعلمتُ أن ذلك بيدك مااتخذتُ إلهاً غيرك ، قال : فما قولُك في الخلفاء ؟ قال : لستَ عليهم بوكيل ، قال : فاخترْ أيَّ قِتْلة تُريدُ أن أقتلَكَ ، قال : بل اخترْ ياشقِيُّ لنفسك ، فوالله ماتَقْتلُني اليومَ بقِتْلة إلا قتلتُك في الآخرة بمثلها ، فأمر به الحجّاجُ ، فأُخرجَ ليُقتَلَ ، فلما ولّى ضحك ، فأمر الحجاجُ بردّه ، وسألَه عن ضحكه ، فقال : عَجِبْتُ من جَراءتِك على الله وحِلْم الله عنك ، فأمرَ به فذُبح ، فلما كُبَّ لوجهه قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهَ وحدَه لاشريكَ له ، وأن محمداً عبدهُ ورسولُه ، وأنَّ الحجّاجَ غيرُ مؤمن بالله ثم قال : اللهمَّ لاتُسلِّط الحجّاجَ على أحدٍ يقتُلُهُ من بعدي ، فذُبِحَ واحتُزَّ رأسُهُ .

ولم يعشِ الحجاجُ بعدَهُ إلا خمسَ عشرةَ ليلةً حتى وقعتْ في جَوْفِه الأَكِلَةُ(١) فمات من ذلك، ويُروى أنه كان يقول بعدَ قَتْلِ سعيد: ياقوم مالي ولسعيدِ ابنِ جُبَيْر ؟ كلما عزمتُ على النوم أخذَ بحلقي .

---

(١) الأكلة : داء في العضو يأتكل منه .

موت الحجّاج : ومات الحجـاجُ في سنة خمسٍ وتسعين ، وهو ابنُ أربعٍ وخمسينَ سنةً بواسط العراق ، وكان تأمّرُه على الناس عشرينَ سنةً ، وأُحصِيَ مَنْ قتله صبراً سوى من قُتِل في عساكره وحروبه فوُجِدَ مائةً وعشرين ألفاً ، ومات وفي حبسه خمسون ألفَ رجُلٍ ، وثلاثون ألف امرأة ، منهنّ ستّةَ عشر ألفاً مُجرّدة ، وكان يَحبسُ النساءَ والرجالَ في موضعٍ واحد ، ولم يكن للحبس سِترٌ يَستُرُ الناسَ من الشمسِ في الصَّيف ولا من المطر والبرْدِ في الشّتاء ، وكان له غيرُ ذلك من العذابِ ماأتينا على وصفه في الكتابِ الأوسط .

. . . .

قال المسعودي : والوليد بن عبدِ الملكِ أخبارٌ حِسَان لما كانَ في أيّامه من الكوائنِ والحروبِ ، وكذلك الحجّاجُ ، وقد أتينا على كثيرٍ من مبسوطها في كتابينا « أخبارِ الزّمان » والأوسط ، وإنما نذكُرُ في هذا الكتاب مالم نُورِدْه في ذَينِكَ الكتابين ، كما أنّ ماذكرناه في الكتابِ الأوسط ، هو مالم نُورِدْه في كتاب « أخبار الزمان » والله أعلم .

ذكر أيام سليمان بن عبد الملك

موجز : وبُويعَ سُليمانُ بنُ عبد الملك بدمشقَ في اليوم الذي كانت فيه وفاةُ الوليد ، وذلك يومَ السبت للنصف من جمادى الآخرة سنةَ ستٍّ وتسعين من الهجرة ، وتُوفي سليمانُ بمرْج دَابِقٍ (١) من أعمالِ جُنْدِ قِنَّسْرين (٢) يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ؛ فكانت ولايتهُ سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال ، وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وعَهِدَ إلى عُمَرَ بن عبد العزيز ، وقيلَ : إن وفاةَ سليمان كانت يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسعٍ وتسعين ، وإن ولايَتهُ سنتان وتسعةُ أشهر وثمانيةَ عَشَرَ يوماً ، على حسب ماوجدناه من تباين مافي كتبِ التواريخ والسير ، وسنذكر جُمَلَ أيامهم في باب نُفْرِده فيما يَردُ من هذا الكتاب .

---

(١) دابق : قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان . ياقوت ج/٢/٤١٦/.

(٢) جند قنسرين : كورة بالشام منها حلب . وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، وما زالت عامرة آهلة إلى سنة ٣٥١ هـ .

وقد تُنوزِعَ في مقدار سِنّ سليمان : فذكر بعضهم أنه قبض وهو ابن خمسٍ وأربعين سنةً ، ومنهم من زَعَمَ أنه كان ابنَ ثلاث وخمسين ، وقد قدمنا قولَ من قال : إنه قُبِضَ وهو ابن تسعٍ وثلاثين سنة ، ووجدْتُ أكثرَ شيوخِ بني مروانَ من وَلَدِهِ وَوَلَدِ غيره بدمشق وغيرِها يذهبون إلى أنه كانَ ابْنَ تسعٍ وثلاثين ، والله أعلم.

ذكر لمع من أخباره ، وسيره

خطبته أوَّلَ ماولِيَ الخلافة : ولما أفْضَى الأمرُ إلى سليمان صَعِدَ المنبرَ ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلّى على رسوله ، ثم قال : الحمدُ لله الذي ماشاء صنع ، وماشاء أعطى ، وماشاءَ مَنَعَ ، وماشاء رفعَ ، وماشاء وضعَ ، أيها الناس ، إن الدنيا دارُ غرور وباطل وزينة وتقلُّب بأهلها ، تُضْحِك باكيهَا ، وتُبكي ضاحكَها ، وتُخيفُ آمنهَا ، وتُؤمِنُ خائفَها ، وتُثْري فقيرَها ، وتُفقِرُ مُثْرِيَها ميَّالة بأهلها . عبادَ الله ، اتخذوا كتابَ اللهِ إماماً ، وارْضَوا به حَكَماً ، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً ، فإنه ناسخٌ ماقبله ، ولا يَنْسَخهُ مابَعده ،

واعلموا يا عبادَ الله أنه يَنفي عنكم كَيْدَ الشيطان ومطامعَهُ، كما يجلو ضوءُ الشمسِ الصبحَ إذا أسفر، وإدبار الليل إذا عسعس، ثم نزل وأذنَ للناسِ بالدخول عليه، وأقرَّ عمالَ مَنْ كان قَبْلَهُ على أعمالهم، وأقَرَّ خالدَ بنَ عبدِ الله القَسْرِي (١) على مكة.

كان سليمانُ أكولاً : وكان سليمانُ صاحبَ أكْلٍ كثير يَجوزُ المقدارَ، وكان يلبس الثيابَ الرّقاق وثيابَ الوَشْي (٢)، وفي أيامه عُمِلَ الوشي الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية، ولبس الناس جميعاً الوشي جِباباً وأرْدِيَةً وسراويلَ وعمائم وقلانس، وكان لايدخُل عليه رجل من أهلِ بيته إلا في الوشْي، وكذلك عُمالهُ وأصحابه ومَنْ في داره، وكان لباسَهُ في ركوبه وجلوسهِ على المنبر، وكان لايَدخُلُ عليه أحدٌ من خُدّامه إلا في الوشي، حتى الطباخ؛ فإنه

(١) خالد بن عبد الله القسري : أمير من قبيلة بجيلة ولي مكة في عهد الوليد ثم في عهد سليمان. وفي خلافة هشام بن عبد الملك، ولاه العراق. اشتهر بحزمه وميله إلى الإصلاح. قتل سنة ١٢٦ هـ.

(١) ثياب الوشي : الثياب المحسنة بالألوان والنمنمة والنقش.

كان يدخلُ إليه في صدره وَشْي وعلى رأسه طَويلةُ وشي ، وأمر أن يُكَفَّنَ في الوشي المثقلة، وكان شِبْعُهُ في كل يومٍ من الطعام مائةَ رِطْلٍ بالعراقي (١) وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد (٢) التي فيها الدجاج المشوية وعليه جُبّة الوشي المثقلة فلنهمه وحرصه على الأكل يُدخل يدَه في كُمه حتى يَقبِضَ على الدَّجاجة وهيَ حارَّةٌ فَيَفْصِلَها .

وذكر الأصمعيُّ (٣) قال : ذَكَرْتُ للرشيد نَهَمَ سليمانَ وتَنَاوُلَهُ الفراريجَ بكُمِّهِ من السَّفافيد ، فقال : قاتَلَكَ اللهُ فما أعلَمَكَ بأخبارهم ، إنه عُرِضَتْ عليّ جِبابُ بني أمية ، فنظرتُ إلى جِبابِ سُليمانَ وإذا كلُّ جُبَّةٍ منها في كُمِّها أثرٌ كأنه أثَرُ دُهْنٍ ، فلم أدْرِ ماذلك حتى حدثتَني بالحديث ، ثم قال : علي

---

(١) الرطل العراقي : حوالي ٣١٢ غ .

(٢) السفافيد : ج سفود : الحديدة التي يشوى بها اللحم .

(٣) الأصمعي : عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي : أبوسعيد راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان . له تصانيف كثيرة . ولد ومات بالبصرة .(١٢٢ - ٢١٦ هـ) .

بجباب سليمان ، فأتي بها ، فنظرنا فإذا تلك الآثارُ فيها ظاهرةٌ ، فكساني منها جُبَّةً فكان الأصمعيُّ رُبَّما يخرجُ أحياناً فيها فيقول : هذه جُبَّةُ سليمان التي كسانيها الرشيد .

وذكر أن سليمان خرجَ من الحمَّام ذاتَ يوم وقد اشتدَّ جوعهُ ، فاستعجل الطعامَ ، ولم يكنْ فُرِغَ منه ، فأمر أن يُقَدَّمَ عليه مالحق من الشِّواء ، فقُدِّمَ إليه عشرون خروفاً ، فأكَلَ أجوافَها كُلَّها مع أربعين رُقاقة ، ثم قُرِّبَ بعدَ ذلك الطعامُ فأكَلَ مع نُدَمائه كأنَّه لم يأكُلْ شيئاً .

وحُكِيَ أنَّه كان يتَّخذُ سِلالَ الحلوى ويجعلُ ذلك حولَ مَرْقده ، فكان إذا قام من نَوْمه يمدُّ يَدَه فلا تقع إلاّ على سَلَّةٍ يأكل منها .

بين سليمان وكاتب الحجّاج : وأُدخِلَ عليه يَزيدُ بنُ أبي مسلم (١) كاتبُ الحجاج والمستولي عليه ،

---

(١) يزيد بن أبي مسلم : هو يزيد بن دينار الثقفي ، أبو العلاء : وال من الدهاة في العصر الأموي كان من موالي ثقيف . ولي شؤون الخراج في العراق في خلافة الوليد ثم عزله سليمان وفي سنة ١٠١ هـ ولي إمارة إفريقية وقتل بها سنة ١٠٢ هـ .

وهو مُكَبَّلٌ بالحديد ، فلما رآه ازدراه ، فقال : ماريتُ كاليوم قطُّ ، لعنَ اللهُ رَجُلاً أجرَّكَ رَسَنَهُ ، وحَكَّمك في أمره ، فقال له يزيد : لاتفعلْ ياأمير المؤمنين ، فإنك رأيتَني والأمرُ عني مُدبِر ، وعليك مُقبل، ولو رأيتني والأمر مُقْبِلٌ علي لاستعظمتَ مني مااستصغرت ، ولاستجللت مني مااستحقرت ، قال : صَدقت فاجلس لا أمَّ لك ، فلما استقرَّ به المجلسُ قال له سليمان : عَزمتُ عليك لتخبرني عن الحجاج ماظنُّك به أتُراهُ يَهوي بعدُ في جهنم أم قد استقرَّ فيها ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، لا تَقُلْ هذا في الحجاج فقد بذلَ لكم نُصْحه ، وأحقَنَ دونَكم دمَه ، وأمَّنَ وَليَّكم ، وأخاف عدوَّكم ، وإنه يومَ القيامة لَعَنْ يمينِ أبيك عبدِ الملك ، ويَسارِ أخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت ، فصاح سليمان : اخرج عني . . إلى لعنةِ الله ، ثم التفتَ إلى جُلسائهِ فقال : قَبَّحه الله ! ماكان أحسنَ ترتيبَه لنفسِه وصاحبه ، ولقد أحْسَنَ المكافأةَ ، أطلِقوا سبيلَهُ .

بين سليمان وأعرابي : وذكر إسحاقُ بن إبراهيم

المَوْصلي (١) قال : حدثني الأصمعي ، عن شيخ من المهالبة ، قال : دخل أعرابي على سليمان فقال له : ياأمير المؤمنين ، إني أُريد أن أُكلِّمَك بكلام فافهمه ، فقال له سليمان : إنَّا نجود بسَعَة الاحتمال على من لانرجو نُصْحَه ، ولا نأمنُ غِشَّهُ ، وأرجو أن تكونَ الناصحَ جَيْباً(٢) ، المأمونَ غَيْباً ، فهات ، قال : ياأمير المؤمنين ، أمّا إذْ أَمِنتُ بادرةَ غضبك فسأطلقُ لساني بما خَرِسَت به الأَلسُنُ من عِظَتِك تأديةً لحق الله وحقٌ أمانتِك ، ياأميرَ المؤمنين ، إنه قد تَكَنَّفَكَ رجالٌ أساءوا الاختيارَ لأَنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاكَ بسُخْط ربِّهم ، خافوك في الله ولم يخافوا اللهَ فيك ، حَرْبٌ للآخرة وسَلْمٌ للدنيا ، فلا تأمنْهم على مايأمَنُك اللهُ عليه ، فإنهم لم يأتوا إلا ما فيه تضييعٌ وللأمة خَسْفٌ وعسف ، وأنت مسؤول عما اجترموا ،

---

(١) إسحاق الموصلي: من مغني العصر العباسي الأول . ولد بالري وتوفي ببغداد . كان منقطعاً إلى الرشيد والبرامكة . لم يسبقه أحد في صنعة الغناء والضرب على العود . له تصانيف منها : « الندماء » (١٥٥ — ٢٣٥ هـ) .

(٢) الناصح الجيب : الحسن الطوية ، المخلص في نصحه .

وليسوا مسؤولين عما اجترمتَ، فلا تُصلحْ دنياهم بفسادِ آخرتك ، فإن أعظمَ الناس غَبْناً (١) بائعُ آخرتهِ بدنيا غيرهِ ، فقال له سليمان : أمَّا أنتَ ياأعرابي فقد سللتَ علينا لسانَك ، وهو أقطعُ من سيفك ، فقال : أجلْ يا أمير المؤمنين، لكَ لاعليك ، فقال سليمان : أما وأبيك ياأعرابي لاتزالُ العربُ بسلطاننا لأكنافِ العزِّ مُتَبوِّئةً ، ولاتزال أيامُ دولتنا بكل خير مُقْبلة ، ولئن ساسَكم ولاةٌ غيرُنا ليُحْمَدَنَّ منَّا ماأصبحتم تَذمُّون . فقال الأعرابي : أما إذا رَجَع الأمرُ إلى ولد العبّاسِ عَمِّ الرسول صلى الله عليه وسلم وصنوِ أبيه ووارثِ ماجعله اللهُ له أهلاً فلا ، فتغافلَ سليمان كأن لم يسمع شيئاً ، وخرج الأعرابي فكان آخر العهد به . هذا الخبر أخبرني به بعض شيوخ ولد العباس بمدينة السلام مدينة ابي جعفر المنصور ، وهو ابن ديهة المنصوري ، عن أبيه ، عن علي ابن جعفر النوفلي ، عن أبيه ، وذلك في سنة ثلاث مئة .

. . . .

---

(١) الغبن : الخدعة .

قال المسعودي : ولسليمانَ أخبارٌ حِسَانٌ لِما كان في مُدَّة مُلْكه من الكوائنِ ، وقد أتينا على مَبْسوط ذلك في كتابَيْنا « أخبارِ الزمان » و « الأوسطِ » ، وإنما نذكرُ في هذا الكتابِ لُمَعاً طَلَباً للإيجازِ ومَيْلاً إلى الاختصار وبالله التوفيق .

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

موجز : واستُخلِفَ عمرُ بنُ عبد العزيز يومَ الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ، وهو اليوم الذي مات فيه سليمان ، وتُوفيَ بدَير سمعان(١) من أعمالِ حمص مما يلي بلاد قِنَّسرين يومَ الجمعة لخمسٍ بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، فكانت خلافتهُ سنتين وخمسةَ أشهر وخمسةَ أيام ، وقُبِضَ وهو ابن تسعٍ وثلاثين سنة ، وقبرهُ مشهورٌ في هذا الموضع إلى هذه الغاية ،

---

(١) قال ياقوت : دير سمعان : هو دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به . . وعنده قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . . . ودير سمعان أيضاً بنواحي حلب بين جبل بني عليم والجبل الأعلى . ياقوت ج٢ / ٢١٧ / . ولعل ماقصده المسعودي هو الثاني . وفي القولين اختلا ف !.

مُعَظَّمٌ يغشاه كثيرٌ من الناس من الحاضرةِ والبادية ، لم يُتَعرضْ لنبشه فيما سَلَفَ من الزمان كما تُعُرِّضَ لقبورِ غيرهِ من بني أمية .

وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه!

وقيل : إنه قُبِضَ وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : إحدى وأربعين سنة .

وقد تُنوزع أيضاً في مقدار مُدته في الخلافة ، وقد أتينا على المحصلِ من ذلك في باب مقدارِ المدةِ من الزمان وما تملَّكت فيه بنو أميةَ من الأعوام فيما يرِدُ من هذا الكتاب .

ذكر لمع من أخباره ، وسيره ، وزهده رضي الله عنه

كيف آلت الخلافة لعمر : لم تكن خلافةُ عُمَرَ في عَهدٍ تقدم ، وكان السببُ فيها أن سليمانَ لما حضرته الوفاةُ بمرج دابق دعا رجاء بن حَيْوَةَ (١) ومحمد بن

(١) رجاء بن حيوة : أبوالمقدام : شيخ أهل الشام في عصره . من الوعاظ الفصحاء العلماء . توفي سنة ١١٢ هـ .

شهاب الزهري (١) ومكحولاً (٢) وغيرهم من العلماء ممن كان في عسكره غازياً ونافراً ، فكتب وصيَّتَه ، وأشْهَدَهُم عليها ، وقال : إذا مت فأذّنوا بالصلاة جامعةً ، ثم اقرأوا هذا الكتابَ على الناس ، فلما فُرِغَ من دفنه نودي الصلاةُ جامعةٌ ، فاجتمع الناسُ وحضر بنو مروان فاشرَأبّوا للخلافة ، وتَشوفُوا نحوها ، فقام الزهري فقال : أيها الناس ، أَرَضيتُم مَن سَمَّاه أميرُ المؤمنين سليمان في وصيَّته ؟ فقالوا : نعم ، فقرأ الكتابَ فإذا اسمُ عمر بن عبد العزيز ومن بعده يَزيدُ بن عبد الملك ، فقام مكحول فقال : أين عمرُ بنُ عبد العزيز ؟ وكان عمرُ في أواخر الناس ، فاسترجع حين دُعيَ باسمه مرتين أو ثلاثاً ؛ فأتاه قومٌ فأخذوا بيده وعَضُدَيه ، فأقاموه ،

---

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري : قرشي من أكابر الحفاظ والفقهاء . وهو تابعي من أهل المدينة . مات بشغب بين الحجاز وفلسطين (٥٨ – ١٢٤ ﻫ) .

(٢) مكحول : هو مكحول بن أبي مسلم : هذلي بالولاء ، فارسي الأصل ومولده بكابل . كان فقيه الشام في عصره من حفاظ الحديث . رحل في طلب العلم واستقر بدمشق ومات بها سنة ١١٢ ﻫ .

وذهبوا به إلى المنبر فَصَعِدَ وجلس على المَرْقاةِ الثانية ، وللمنبر خمسُ مَرَاقٍ ، فكان أولَ من بايعه من الناس يَزيدُ بنُ عبدِ الملك ، وقام سعيدٌ وهشام (١) فانصرفا ولم يُبايعا ، وبايعَ الناسُ جميعاً ، ثم بايع سعيدٌ وهشامٌ بعد ذلك بيومين .

خُلُق عمر ودينه : وكان عمر في نهاية النُّسك والتواضع ، فصرف عُمَّالَ مَنْ كان قبلَه من بني أمية ، واستعمل أصلَحَ من قَدَرَ عليه ، فسلك عمَّالهُ طريقتَهُ ، وتَركَ لَعْنَ علي عليه السلام على المنابر ، وجعل مكانه «(ربَّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سَبقُونا بالإيمان ولاتَجعلْ في قلوبنا غِلاً لِلَّذينَ آمنوا ، ربنا إِنكَ غَفُورٌ رَحيم)» وقيل : بل جَعلَ مكان ذلك «(إِنه اللهَ يَأمرُ بالعَدْلِ والإِحسانِ وإِيتاءِ ذي القُربى ، ويَنْهى عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبغْي)» الآية ، وقيل : بل جعلَهما جميعاً ، فاستعمل الناسُ ذلك في الخطبة إلى هذه الغاية .

---

(١) سعيد وهشام : من أبناء عبد الملك بن مروان .

بين السدّي وعمر : ولما استُخلف عمرُ دخل عليه سالمُ السدي (١) ، وكان من خاصته ، فقال له عمر : أسركَ ماوُلّيتُ أم ساءك ؟ فقال : سرني للناس وساءني لك ، قال : إني أخاف أن أكونَ قد أوْبقتُ نفسي (٢) ، قال : ماأحسنَ حالَك ، إن كنت تخافُ ، إني أخافُ عليك أن لاتخافَ ، قال : عِظني ، قال : أبونا آدم أُخرِجَ من الجنّةِ بخطيئة واحدة .

من طاووس إلى عمر : وكتب طاووسُ إلى عمر : **(٣)** إن أردت أن يكون عملُك خيراً كله فاستعمل أهْلَ الخير ، فقال عمر : كفى بها موعظة .

---

(١) سالم السدي : لعله سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد فقهاء المدينة السبعة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم – توفي في المدينة سنة ١٠٦ هـ .

(٢) أوبقت نفسي : أهلكتها .

(٣) طاووس : هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء ، أبوعبد الرحمن : من أكابر التابعين. كان راوية للحديث جريئاً على وعظ الخلفاء والملوك . وهو من أصل فارسي . مات حاجاً في خلافة هشام بن عبد الملك (٣٣ – ١٠٦ هـ) .

أول خطبة لعمر : ولمــا أفْضى إليــه الأمرُ كان أولُ خطبة خطب الناسَ بها أن قال : أيها الناس ، إنما نحن من أُصول قد مضت وبقيت فروعُها ، فما بقاء فَرْعٍ بعد أصله ؟ وإنما الناسُ في هذه الدنيا أغراضٌ تنتضل فيهم المنايا (١) ، وهم فيها نُصْبُ المصائب مع كل جَرعةٍ شَرَق ، وفي كل أَكلة غَصَص ، لاينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يُعمَّرُ معمَّر منكم يوماً من عُمُره إلا بهدم أخرَ من أجله .

زهده بعد الخلافة : وذكر المــدائني (٢) قال : كان يُشتَرى لعمر قبل خلافته الحُلَّةُ بألف دينار ، فإذا لبسَها استخشَنها ولم يَسْتحسنْها ، فاما أتته الخلافة كان يُشترى له قميصٌ بعشرةٍ دراهم فإذا لبسه استلانه .

وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة ؛ فقال لهم : قفوا حتى آتي قبورَ الأحبة فأسلِّمَ عليهم ، فلما توسطها وقف فسلم وتكلَّم وانصرف إلى أصحابه فقال :

---

(١) أي : هم أهداف تتبارى فيهم المنايا .

(٢) المدائني : سبقت ترجمته .

ألا تسألوني ماذا قلت لهم وما قِيل لي ؟ فقالوا : وماذا قلتَ ياأمير المؤمنين وما قيل لك ؟ قال : مررتُ بقبور الأحبة فسلمت عليهم فلم يردوا ، ودعوت فلم يُجيبوا ، فبينا أنا كذلك إذ نُوديتُ : ياعمر ، أما تعرفني ؟ أنا الذي غيَّرتُ محاسنَ وجوههم ، ومزَّقتُ الأكفانَ عن جلودهم ، وقطَّعْتُ أيديهم ، وأبَنْتُ (٢) أكفهم عن سواعدهم ، ثم بكى حتى كادت نفسهُ أن تُطفأ ، فوالله مامضى بعد ذلك إلا أيامٌ حتى لَحِق بهم .

بين عمر وعبدٍ له : وذكر بعضُ الأخباريين أنّ عمر في عنفوان حداثته جنى عليه عبدٌ له أسود جناية ، فبطحه وهمَّ ليضربَه ، فقال له العبد : يامولاي ، لم تضربُني ؟ قال : لأنك جنيتَ كذا وكذا ، قال : فهل جنيتَ أنت جنايةً قَطُّ غضب بها عليك مولاك ؟ قال عمر : نعم ، قال : فهل عجَّلَ عليك العقوبةَ ؟ قال : اللهم لا ، قال العبد : فلم تُعجِّل عليَّ ولم يُعَجّلْ عليك ؟ فقال له : قم فأنت حرٌّ لوجه الله ، وكان ذلك سببَ توبته .

---

(١) أبنت أكفهم : أي فصلتها .

الفرزدق يرثي عمر : وفي وفاة عمرَ رضي اللهُ تعالى عنه يقول الفرزدق(١) من أبياتٍ يَرْثيه بها :

أقول لمَّا نَعى الناعــون لي عُمَراً
لَقَدْ نعيْتُم قِوَامَ الحق والدينِ (٢)
قد غَيَّبَ الرامِسون اليومَ إذ رَمَسوا
بِدَيرِ سِمْعَان قِسْطاسَ الموازينِ (٣)
لم يُلْهِهِ عُمْرَهُ عَيْنٌ يُفَجِّرُهَا
ولا النخيلُ ولا ركْضُ البراذينِ

ولعمرَ رحمةُ الله عليه خُطَبٌ وأخبار حسان غير ماذكرنا في هذا الكتاب ، وفي الزهد وغيره ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الفرزدق : هو همام بن غالب التميمي الدارمي ، أبوفراس : شاعر من النبلاء ، من أهل البصرة . وهو من شعراء الطبقة الأولى في الإسلام . هاجى جريراً والأخطل . له ديوان . توفي سنة ١١٠ هـ .

(٢) قوام الشيء : عماده .

(٣) قسطاس الموازين : أكثرها عدلا .

ذكر أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان

موجز : وملَكَ يزيدُ بنُ عبد الملك في اليوم الذي تُوفي فيه عمرُ بن عبد العزيز ، وهو يومُ الجمعة لخمسٍ بقِين من رجب سنة إحدى ومائة ، ويُكنّى أبا خالد، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتوفي يزيد بن عبد الملك بأربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة ، وهو ابنُ سبعٍ وثلاثين سنة . فكانت ولايتُهُ أربعَ سنين وشهراً ويومين .

ذكر لمع من أخباره وسيره وجمل مما كان في أيامه

حبه سَلاّمَة القَسّ : كان الغـالبُ على يزيد ابن عبد الملك حُبَّ جارية يقال لها سَلاّمة القس(١) ، وكانت لسُهَيْل بن عبد الرحمن بن عوف الزُهري ،

---

(١) سلامة القس : مغنية شاعرة . حذقت الضرب على الأوتار . أخذت الغناء عن معبد وجميلة . توفيت نحو ١٣٠ هـ .

فاشتراها يزيدُ بثلاثة آلاف دينار ، فأُعجب بها ، وغلبتْ على أمره ، وفيها يقول عبدُ الله بن قيس الرقيَّات (١) :

لَقَدْ فتن الدنيا وسلاَّمَةُ القسَّا
فلم يتركا للقسِّ عقلاً ولا نَفْسَا

فاحتالت أم سعيد العثمانية جدَّتهُ بشراء جارية يقال لها حَبَّابة (٢) قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديماً منها شيء ، فغلبَتْ عليه ، ووهب سلامة لأم سعيد ، فعذَلَهُ مسلمة بن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور . باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو ، وقال له : إنما مات عمرُ أمسِ ، وقد كان من عدله ماقد علمت ، فينبغي أن تُظهِرَ للناس العدلَ ، وترفضَ هذا اللهوَ ، فقد اقتدى بك عُمَّالُك في سائر أفعالك وسيرتك ، فارتدع

---

(١) عبد الله بن قيس الرقيات : هو عبيد الله – هكذا تذكره كتب الأدب – من بني عامر بن لؤي : شاعر قريش في العصر الأموي . كان مقيماً بالمدينة . انقطع إلى الزبيريين ، ثم تقرب من عبد الملك بن مروان فأمنه . أكثر شعره في الغزل والمدح والفخر . مات بالشام نحو ٨٥ هـ .

(٢) حبابة : جارية مغنية ، يقال : إنها شرقت بحبة عنب أو رمان فماتت ، وبلغ من حزن يزيد عليها أن مات بعدها بأيام ! . ماتت سنة ١٠٥ هـ .

عما كان عليه ، فأظهر الإقلاعَ والندم ، وأقامَ على ذلك مدةً مديدة ، فغلظَ ذلك على حبّابة . فبعثت إلى الأحوص الشاعر (١) ومَعْبد المغني (٢) : انظرا ماأنتما صانعان ؛ فقال الأحوص في أبيات اه :

ألا لاتَلُمْهُ اليومَ أن يتبلـــدا
فقد غلب المحزون أن يتجلّــدا

إذا كنت لم تعشق ولم تدرِ ماالهوى
فكن حَجراً من يابس الصّلدِ جَلْمَدا

فما العيشُ إلا ماتلَذُّ وتشـتهي
وإن لام فيه ذو الشَّنان وفَنّدا(٣)

وغنّاه معبد ، وأخذته حبّابة ، فلما دخل عليها يزيد قالت : ياأمير المؤمنين اسمع مني صوتاً واحداً

---

(١) الأحوص : عبدالله بن محمد الأنصاري : شاعر حجازي . ولد في المدينة وتوفي بدمشق . كان يشبب بالنساء الشريفات . نفاه عمر ابن عبد العزيز وعفا عنه يزيد توفي سنة ١٠٥ هـ .

(٢) معبد : نابغة الغناء في العصر الأموي ، نشأ في المدينة ثم رحل إلى الشام فاتصل بأمرائها وارتفع شأنه توفي نحو ١٢٦ هـ .

(٣) الشنآن : البغض والعداوة ، والتفنيد : الكذب .

ثم افعل مابَدَا لك ، وغنته ، فلما فرغت منه جعل يردد قولهـا :

فما العيش إلا ماتلَـذُّ وتشـتهي
وإن لام فيه ذو الشَّنان وفَنَّدَا

وعاد بعد ذلك إلى لهوه وقَصْفه، ورَفضَ ما كان عليه.

موتُ حَبَّابة وجزعُ يزيد عليها : واعْتَلَّتْ حَبَّابةُ فأقام يزيدُ أياماً لايظهرُ للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياماً لايدفنُها جزَعاً عليها حتى جيفَتْ ، فقيل : إن الناس يتحدثون بجزعك ، وإن الخلافة تجِلُّ عن ذلك ، فدفنَهَا وأقام على قبرها فقال :

فإن تسلُ عنكِ النفسُ أو تَدَع الهوى
فباليأس تسلو النفسُ لابالتَّجَلُّدِ

ثم أقام بعدها أياماً قلائلَ ومات .

حدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، عن أبيه ، عن إسحاق الموصلي عن أبي الحويرث الثقفي قال : لما ماتت

حبّابة حزن عليها يزيدُ بنُ عبد الملك حزناً شديداً ، وضمَّ إليه جويريةً لها كانت تحدّثها فكانت تخدمه ، فتمثلت الجارية يوماً :

كفى حزناً للهائم الصبّ أن يرى
منازلَ من يهوى مُعطّلةً قفرا

فبكى حتى كاد أن يموتَ ، ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبّابةَ حتى مات .

وكان يزيد ذاتَ يوم في مجلسه وقد غنته حبابة وسلاّمة فطرب طرباً شديداً ثم قال : أُريد أن أطيرَ ، فقالت له حبّابة : يامولاي ، فعلى مَنْ تدَعُ الأُمّةَ وتدعُنا .

وكان أبوحمزة الخارجي (١) إذا ذكر بني مروانَ وعابهم ذكر يزيدَ بنَ عبد الملك فقال : أقعَدَ حبّابةَ عن يمينه وسلاّمةَ عن يساره ، ثم قال : أُريدُ أن أطيرَ ، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه .

---

(١) أبوحمزة الخارجي : هو المختار بن عوف الأزدي : ولد في البصرة . من قادة الخوارج وخطبائهم وفصحائهم. ثار على الأمويين . في خلافة مروان بن محمد ، قتله ابن عطية السعدي من قادة مروان وذلك سنة ١٣٠ هـ .

يزيدُ بن المهلب يخرج على يزيد بن عبد الملك :

قال المسعودي: وقدكان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة(١) هرب من سِجْن عمر بن عبد العزيز ، حين أُثقِل وذلك في سنة إحدى ومائة ، وصار إلى البصرة وعليها عدي بن أرْطاةَ الفزاري (٢) ، فأخذه يزيد بن المهلب ، فأوثقه ثم خرج يريد الكوفة مخالفاً على يزيد بن عبد الملك ، وحشدت له الأزد وأحلافها ، وانحاز إليه أهلهُ وخاصتهُ وعظُم أمرهُ ، واشتدت شوكتهُ ، فبعث إليه يزيدُ أخاه مَسْلمة بنَ عبد الملك وابنَ أخيه العبّاسَ بن الوليد ابن عبد الملك ، في جيش عظيم ، فلما شارفاه رأى يزيد ابن المهلب في عسكره اضطراباً فقال : ماهذا الاضطراب ؟ قيل : جاء مَسْلمة والعباس ، قال : فوالله مامَسْلمة إلا جرادة صفراء ، وما العباس إلا نسطوس بن نسطوس ،

---

(١) يزيد بن المهلب : قائد من الولاة . ولي خراسان بعد وفاة أبيه . غزا طبرستان . عزله عمر بن عبد العزيز وسجنه ، فر من السجن بعد وفاة عمر ورام الخلافة لنفسه فقتله مسلمة بن عبد الملك (٥٣ – ١٠٢ هـ .)

(٢) هو أبو واثلة : أمير من أهل دمشق . كان من العقلاء الشجعان . قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط سنة ١٠٢ هـ .

وما أهلُ الشام إلا طَغَامٌ (١) قد حُشِدوا مابين فلاّح وزرّاع ودبّاغ وسَفلَة ، فأعيروني أكُفّكم ساعةً واحدة تصفعون بها خرَاطيمَهم ، فما هي إلا غدوةٌ أو رَوْحَةٌ حتى يحكُمَ اللهُ بينَنا وبينَ القوم الظالمين ، عليّ بفرسي ، فأُتِيَ بفرس أبلق (٢) ، فركب غيرَ متسلّح ، فالتقى الجيشان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وولّى أصحابُ يزيد عنه ، فقُتِلَ يزيدُ في المعركة ، وصبروا إخوتهُ أنفسَهم ، فقُتِلوا جميعاً ، ففي ذلك يقولُ الشاعر :

كلُّ القبائلِ بايعوك على الذي
تدعو إليه طائعينَ وساروا

حتى إذا حَضَرَ الوغى وجعلتَهم
نُصْبَ الأَسنة أسلموك وطاروا

---

(١) الطغام : أوغاد الناس . أما نسطوس فلم أجد لها تفسيراً . وفي لسان العرب : النسطاس : ريش السهم . والعالم بالطب بالرومية .

(٢) الفرس الأبلق : الذي فيه سواد وبياض .

إن يقتلوك فإن قتْلك لم يكن
عاراً عليك وبعضُ قتلٍ عارُ

. . . . . .

وليزيد بن عبد الملك أخبارٌ حِسَانٌ ، ولما كان في أَيّامه من الكوائن والأحداث ، وقد أتينا على مبسوطِ ذلك في كتابَيْنا « أخبارِ الزّمان » « والأَوسط » .

ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان

موجز : وبُويع هشامُ بنُ عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه أخوه يزيد بن عبد الملك، وهو يوم الجمعة لخمس بَقِينَ من شوال سنة خمس ومائة ، وقُبِض يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وتوفي هشام بن عبد الملك بالرُّصافةِ (١) من أرضِ قِنَّسرين يوم الأربعاء لست خَلَوْنَ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . وهو ابن ثلاث وخمسين

---

(١) الرصافة : هي رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة ، بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية : بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف / ياقوت ٣ / ٤٧ .

سنة ، فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة .

ذِكْرُ لُمَعٍ من أخباره ، وسيره

أوصافه وأخلاقه : وكان هشامٌ أحْـولَ خَشِناً فَظّاً غليظاً ، يَجْمَعَ الأموالَ ويعمر الأرضَ ، ويستجيد الخيلَ ، وأقام الحلبَة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعةُ آلاف فرس ، ولم يُعرَفْ ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس ، وقد ذَكَرَتِ الشعراء مااجتمع له من الخيل ، واستجاد الكُسَى (١) والفُرُشَ ، وعُدَدَ الحرب ولأَمتها،واصطنع الرجالَ ، وقَوّى الثغورَ ، واتخذ القُنِيّ والبِرَك بطريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي في صدر الدولة العباسية .

وفي أيامه عُمِلَ الخزُّ والقُطُفُ الخز (٢)، فسلك

---

(١) الكسى : واحدتها كسوة ،

(٢) الخز : مانسج من صوف وحرير أومن حرير فقط . والقطف : ج قطيفة : دثار من المخمل .

الناس جميعاً في أيامه مذهبَه ، ومنعوا مافي أيديهم ، فقلَّ الإفضالُ ، وانقطع الرِّفْدُ ، ولم يُرَ زمانٌ أصعب من زمانه .

استشهاد زيد بن علي : وفي أيامه استُشهِد زيدُ بن علي بن الحسين بن علي (١) كرم الله وجهه ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل بل في سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقد كان زيد بن علي شَاوَرَ أخاه أباجعفر ابن علي بن الحسين بن علي فأشار عليه بأن لايَرْكَنَ إلى أهل الكوفة ؛ إذ كانوا أهلَ غدرٍ ومكر ، وقال له : بها قُتِلَ جدُّك علي ، وبها طُعِنَ عمك الحسن ، وبها قُتِلَ أبوك الحسين ، وفيها وفي أعمالها شُتِمْنَا أهْلَ البيت ، وأخبره بما كان عنده من العلم في مدة مُلْكِ ابن مروان ، وما يتعقَّبهُم من الدولة العباسية ، فأبى إلا ماعَزَمَ عليه من المطالبة بالحق ، فقال له : إني أخاف

(١) زيد بن علي : دعا إلى الثورة في أيام هشام وحدد منهاجاً لثورته، قوامه : جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين ورد المظالم . وإليه ينسب المذهب الزيدي الشيعي . (٨٠ — ١٢٢ هـ) .

عليك ياأخي أن تكون غداً المصلوبَ بكُناسة الكوفة ، وودعه أبوجعفر ، وأعلمه أنهما لايلتقيان .

وقد كان زيدٌ دخل على هشام بالرُّصافة ، فلما مَثَلَ بين يديه لم يرَ موضعاً يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به مجاسهُ ، وقال : ياأميرَ المؤمنين ، ليس أحدٌ يكبرُ عن تقوى الله ، ولايصغر دون تقوى الله ، فقال هشام : اسكت لاأُمَّ لك ، أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابنُ أَمَة ، قال : ياأميرَ المؤمنين ، إن لك جواباً إن أحببتَ أجبتُكَ به ، وإن أحببتَ أمسكتُ عنه ، فقال : بل أَجِبْ ، قال : إنَّ الأمهاتِ لايقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أمُّ إسماعيلَ أمَةً لأم إسحاق صلى الله عليهما وسلم ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه اللهُ نبياً ، وجَعَلَه للعرب أباً ، فأخرجَ من صُلْبه خيرَ البشر محمداً صلى الله عليه وسلم ، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي ، وقام وهو يقول :

شَرَّدَهُ الخوفُ وأزرى بـــــه
كذاك من يكره حرُّ الجـــــلاد

منخرقُ الكفين يشكو الجـوى

تنكثه أطراف مَرْوٍ حداد(۱)

قد كان في الموت له راحةٌ

والموت حتْمٌ في رقاب العباد

إن يُحْدِثِ اللهُ له دولةً

يترك آثارَ العدا كالرماد

فمضى عليها إلى الكوفة وخرج عنها ، ومعه القرّاء والأشراف ، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي (۲) ، فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد ، وبقي في جماعة يسيرة ، فقاتلهم أشدّ قتال ، وهو يقول متمثلاً :

أذُلّ الحياة وعزّ الممات

وكُلاً أراه طعاماً وبيلا

---

(۱) تنكثه : أي تضعف قوته . والمرو : حجارة بيض براقة صلبة . ويقال : هو مخروق الكف . ومنخرق الكف : كناية عن الجود .

(۲) يوسف بن عمر الثقفي : أمير من الولاة ، ولاه هشام بن عبد الملك اليمن والعراق وخراسان . أقام في الكوفة . قتل سلفه في الإمارة خالد بن عبد الله القسري . ثم قتله يزيد بن خالد بثأر أبيه سنة ۱۲۷ هـ .

فإن كان لابدَّ من واحد

فسيري إلى الموت سيراً جميلا

وحال المساءُ بين الفريقين ، فراح زيد مثخناً بالجراح ، وقد أصابه سهم في جبهته ، فطلبوا من ينزعُ النصلَ ، فأتي بحجَام من بعض القرى ، فاستكتموه أمرَه ، فاستخرج النصل ، فمات من ساعته ، فدفنوه في ساقية ماء ، وجعلوا على قبره الترابَ والحشيش ، وأجري الماءُ على ذلك ، وحضر الحجام مواراتَهُ فعرف الموضع ، فلما أصبح مضى إلى يوسف متنصِّحاً ، فدله على موضع قبره ، فاستخرجه يوسف ، وبعث برأسه إلى هشام ، فكتب إليه هشام : أن اصلبه عُرياناً ، فصلبه يوسف كذلك ، ففي ذلك يقول بعض شعراء بني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من أبيات :

صلبنا لكم زيداً على جِذْع نخلةٍ

ولم أر مهديّاً على الجِذْع يُصلبُ

وبنى تحت خشبته عموداً ، ثم كتب هشام إلى يوسف يأمره بإحراقه وذروه في الرياح .

صنيع العباسيين بقبور الأمويين : قال المسعودي : وحكى الهيثم بن عدي الطائي ، عن عمرو بن هانىء : خرجت مع عبدالله بن علي (١) لنبش قبور بني أمية في أيام أبي العباس السفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحاً مافقدنا منه إلا خَوْرَمَةَ (٢) أنفه ، فضربه عبدُ الله بن علي ثمانين سوطاً ، ثم أحرقه ، واستخرجنا سُليمانَ من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئاً إلا صُلْبهُ وأضلاعَه ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية ، وكانت قبورُهم بقِنَّسرين ، ثم انتهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليدَ بنَ عبد الملك ، فما وجدنا في قبره قليلاً ولاكثيراً ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون (٣) رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا فيه إلا عظماً واحداً، ووجدنا مع لحده

---

(١) عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس . أمير هاشمي وهو عم الخليفة أبي جعفر المنصور . هزم مروان بن محمد بالزاب ، ثم فتح دمشق ومهدها لدخول السفاح . خرج على المنصور طمعاً في الخلافة . مات في سجن المنصور (١٠٣ - ١٤٧ هـ) .

(٢) الخورمة : مقدمة الأنف أو مابين المنخرين .

(٣) شؤون الرأس : قبائله ، وهي قطعه المشعوب بعضها إلى بعض .

خطاً أسود كأنما خُطّ بالرماد في الطول في لحده ، ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ماوجدنا فيها منهم .

وإنما ذكرنا هذا الخبر في هذا الموضع لقتل هشام زيد ابن علي ، ومانال هشاماً من المُثلة بما فعل بسلَفه من الإحراق كفعله بزيد بن علي .

وقد ذكر أبوبكر بن عَيّاش(١) وجماعة من الأخباريين أن زيداً مكث مصلوباً خمسين شهراً عُرياناً ، فلم يَرَ له أحدٌ عَوْرَةً ، ستْراً من الله له ، وذلك بكُناسة بالكوفة فلما كان في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك وظهر ابنهُ يحيى بن زيد (٢) بخراسان كتب الوليد إلى عامله بالكوفة : أن احرق زيداً بخشبته ، ففعل ذلك به ، وأذرى رماده في الرياح على شاطىء الفرات .

. . . .

(١) أبوبكر بن عياش : هو مولى « واصل بن حيان الأحدب » كان إخبارياً محدثاً . توفي بالكوفة سنة ١٩٣ هـ .

(٢) يحيى بن زيد : أحد الأبطال الأشداء ثار مع أبيه على بني مروان وبعد مقتل أبيه انصرف إلى بلخ ودعا إلى نفسه سراً فطارده ولاة الأمويين حتى قتلوه سنة ١٢٥ هـ بالجوزجان وهي كورة من كور بلخ بخراسان .

أمثلة من بخل هشام : ودخل هشام بستاناً له ومعه ندماؤه ، فطافوا به ، وبه من كل الثمار ، فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين ، فقال : وكيف يبارك لي وأنتم تأكلونه ؟ ! ثم قال : ادعُ قَيِّمَهُ ، فدعا به، فقال : اقلع شَجَرَهُ ، واغرس فيه زيتوناً حتى لا يأكلَ منه أحد شيئاً .

. . . .

السُّواس من بني أميّة : وذكر الهيثم بن عديّ والمدائني وغيرهما أن السُّوَّاسَ من بني أميّة ثلاثةٌ : معاوية ، وعبد الملك ، وهشام . وخُتِمت به أبواب السياسةِ وحُسن السيرة ، وأن المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متّبعاً لهشام بن عبد الملك في أفعاله ، لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسِيَرِه .

ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

موجز : وبُويع الوليدُ بنُ يزيد في اليوم الذي تُوفِّي فيه هشام ، وهو يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، ثم قتل بالبخراء

يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً ، وقتل وهو ابنُ اربعين سنة ، والموضع الذي قتل فيه دُفِنَ فيه ، وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبخراء ، على ماذكرنا ، وقد أتينا على خبر مقتله في كتابنا الأوسط .

ذكر لمع من أخباره ، وسيره

ظهور يحيى بن زيد ومقتله : ظهر في أيام الوليد ابن يزيد : يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، بالجوزجان من بلاد خراسان ، منكراً للظلم وما عَمَّ الناسَ من الجور ، فَسَيَّر إليه نصرُ بنُ سيار سَلْمَ بنَ أَحْوزَ المازني (١) ، فقُتِلَ

---

(١) نصر بن سيار : أمير وقائد وشاعر . اشترك في فتوحات آسيا الوسطى مع قتيبة بن مسلم . عينه هشام حاكماً على خراسان . هزمه أبومسلم الخراساني . توفي سنة ١٣١ هـ .

وسلم بن أحوز المازني التميمي : هو صاحب شرطته وقد قتله أبومسلم الخراساني .

يحيى في المعركة بقرية يقال لها أرحونة (١) ، ودفنَ هنالك ، وقبرُهُ مشهورٌ مَزورٌ إلى هذه الغاية ، وليحيى وقائعُ كثيرة ، وقُتل في المعركة بسهم أصابه في صُدْغه ، فولّى أصحابهُ عنه يومئذٍ ، واحتُزَّ رأسه ، فحمل إلى الوليد ، وصُلب جَسَدهُ بالجُوزجان ، فلم يزل مصلوباً إلى أن خرجَ أبومسلم صاحبُ الدولة العباسية ، فقَتَلَ أبومسلم سَلْمَ بنَ أحوز ، وأنزل جُثَّةَ يحيى فصلّى عليها في جماعة أصحابه ودُفنت هناك ، وأظهر أهلُ خراسان النّيَاحةَ على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر أعمالها في حال أَمْنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية ، ولم يولد في تلك السنة بخُراسان مولودٌ إلا وسُمّيَ بيحيى أو بزيد ، لما داخلَ أهلَ خراسان من الجزع والحزن عليه .

---

(١) أرعونة : لم يذكرها ياقوت . وقد ضبطها صاحب الأعلام في سياق ترجمة يحيى بن زيد « أرغويه » .

وكان ظهورُ يحيى في آخر سنة خمس وعشرين ، وقيل : في أول سنة ست وعشرين ومائة ، وقد أتينا على أخباره وما كان من حروبه في الكتاب الأوسط وفي غيره مما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن إعادته .

وكان يحيى يوم قتل يكثر من التمثل بشعر الخنساء(١) :

نهينُ النفوس ، وهون النفو
س يومَ الكريهة أوفى لها

لهو الوليد وخلاعته : وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، وهو أول من حملَ المغنين من البلدان إليه ، وجالس المُلهين ، وأظهرَ الشرب والملاهيَ والعزفَ ، وفي أيامه كان ابنُ سريج المغني ، ومَعْبدٌ ، والغَريضُ ، وابنُ عائشة ، وابن مُحرِز ،

---

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الحارث من بني سليم : أشهر شواعر العرب ، من أهل نجد عاشت زمناً في الجاهلية وأدركت الاسلام فأسلمت . أجود شعرها في رثاء أخويها ماتت سنة ٢٤ هـ .

وطُوَيْس ، ودَحْمان (١) ، وغلبت عليه شهوةُ الغناء في أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القِيان ، وكان متهتّكاً ماجناً خليعاً ، وطرب الوليدُ لليليتين خلتا من ملكه وأرق فأنشأ يقول :

---

(١) ابن سريج : هو عبيد الله بن سريج . من أشهر المغنين في صدر الإسلام من أهل مكة . (٢٠ – ٩٨ هـ) .

– معبد : سبقت ترجمته .

– الغريض : هو عبد الملك مولى العبلات من مولدي البربر . من أشهر المغنين في صدر الإسلام وأحذقهم في صناعة الغناء . من سكان مكة . كان يضرب بالعود وينقر بالدف . توفي سنة ٩٥ هـ .

– ابن عائشة : هو محمد بن عائشة : أبوجعفر : من المقدمين في صناعة الغناء،وهو من أهل المدينة وينسب إلى أمه وكانت مولاة لأحد بني كندة . توفي نحو ١٠٠ هـ .

– ابن محرز : هو مسلم بن محرز : مولى بني عبد الدار فارسي الأصل . ومن المقدمين في صناعة الغناء والألحان . مزج بين ألحان الفرس والروم وصنع منها ألحانه وأغانيه . توفي نحو ١٤٠ هـ .

– طويس : هو عيسى بن عبد الله : كان ظريفاً عالماً بتاريخ المدينة ومن أشهر المغنين توفي سنة ٩٢ هـ .

– دحمان : هو عبد الرحمن بن عمرو : عالم بالغناء ، أخذ الغناء عن معبد ، اتصل بالمهدي العباسي توفي نحو ١٦٥ هـ .

طال ليلي وبتُّ أسقى السلافه

وأتاني نعيُ مَنْ بالرُّصافه

وأتاني ببُرْدةٍ وقضيبٍ

وأتاني بخاتمَ للخلافه

الوليد وشُرَاعَةُ بنُ زيد : وبلغ الوليد عن شُراعة بن زيد (١) ورود حسن عشرة وحلاوة مجالسة ، فبعث في إحضاره ، فلما أُدخل إليه قال : إني مابعثت إليك لأسألك عن كتاب ولا سُنة ، قال : ولست من أهلها ، قال : إنما اسألك عن القهوة ، قال : سل عن أي ذلك شئت ياأمير المؤمنين ، قال : ماتقول في الشراب ؟ قال : عن أيه تسأل ؟ قال : ماتقول في الماء ؟ قال : يشاركني فيه البغلُ والحمار ، قال : فنبيذُ الزبيب ؟ قال : خُمارٌ وأذى ، قال : فنبيذُ التمر ؟ قال : ضراطٌ كلُّه ، قال : فالخمر ؟ قال : شقيقةُ روحي ، وأليفةُ نفسي ، قال : فما تقول في السَّماع ؟ قال : يبعث مع التأني على ذِكْرِ الأشجان ، ويُجدِّد اللهوَ على مواقع الأحزان،

---

(١) شراعة بن زيد : لم أعرفه .

ويؤنس الخليَّ الوحيدَ ، ويسر العاشقَ الفريدَ ، ويُبرِّد غلايلَ القلوب، ويُثيرُ من خواطر الضمائر خَطْرةً ليست من الملاهي لغيره ، يسرع تَرقّيها في أجزاء الجسد ، فتُهيِّجُ النفسَ ، وتُقوِّي الحسَّ ، قال : فأَيُّ المجالسِ أحبُّ اليك ؟ قال : مارأيتُ فيه السماءَ من غير أن ينالَني فيه أذى ، قال : فما تقول في الطعام ؟ قال : ليس لصاحب الطّعام اختيارٌ، ماوجده أكلَه ، فاتخذه الوليدُ نديماً .

فعلُهُ بالمُصْحَفِ وقد استفتح به : وقرأ ذات يوم ((واستفتحُوا وخابَ كلُّ جبّارٍ عنيدٍ ، مِنْ وَرائه جَهَنّمُ ويُسقى من مَاءٍ صديد)) فدعا بالمُصحف فنصبه غَرَضاً للنُشّابِ ، وأقبل يَرميه وهو يقول :

أتوعِدُ كلَّ جبار عنيدٍ
فها أنا ذاك جبارٌ عنيدُ
إذا ماجئت رَبّك يومَ حَشْرٍ
فقل يارَبِّ خرّقني الوليدُ

شعرٌ له ألحد فيه : وذكر محمد بن يزيد المبرد

النحوي (١) أن الوليد ألحد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الوحي لم يأته عن ربه ، كَذَبَ أخزاه الله ! من ذلك الشعر ؛ :

تَلَعَّبَ بالخلافة هاشمي
بلا وَحْيٍ أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي ،
وقل لله يمنعني شرابي !

فلم يُمْهَلْ بعد قوله هذا إلا أياما حتى قُتِلَ .

ذكر أيام يزيد وإبراهيم ابني الوليد ابن عبد الملك بن مروان

موجز : وَلِيَ يَزِيدُ بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة ، فبايعه الناسُ بعد قتلِ الوليدِ بن يزيد ، وتُوفي يَزِيدُ بنُ الوليد

---

(١) المبرد : هو أبوالعباس محمد بن يزيد : نحوي عالم بالأدب ، تلميذ المازني والسجستاني . ممثل لمذهب البصرة في النحو وخصمه ثعلب ممثل المذهب الكوفي من أهم مؤلفاته : « الكامل في اللغة والأدب » توفي سنة ٢٨٦ هـ .

بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة ، فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد إلى أن مات خمسة أشهر وليلتين ، وقد كان إبراهيمُ بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده ، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر ، وقيل : شهرين ، ثم خُلِعَ ، وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرْجِ والاختلاط ، واختلافِ الكلمة ، وسقوط الهيبة ، وفيه يقول بعض أهل ذلك العصر :

نبايعُ إبراهيمَ في كل جُمْعَـــةٍ
ألا إنَّ أمراً أنت واليهِ ضائعُ

ودُفن يزيدُ بنُ الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير ، وهو ابنُ سبعٍ وثلاثين سنة ، ويقال : ابنُ ستٍّ وأربعين سنة على الخلاف في ذلك .

ذكر لمع مما كان في أيامهما

وصف يزيد الناقص : كان يزيدُ بنُ الوليـــد أحْوَلَ ، وكان يلقّب بيزيد الناقص ، ولم يكن ناقصاً في جسمه ولاعقله ، وإنما نقَصَ الجندَ من أرزاقهم ، فقالوا : يزيدُ الناقص ، وكان يذهبُ إلى قول المعتزلة

ومايذهبون إليه في الأصول الخمسة : من التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والأسماء، والأحكام ، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قول المعتزلة في التوحيد : وتفسير قولهم فيما ذهبوا إليه من الباب الأول — وهو باب التوحيد — وهو مااجتمعت عليه المعتزلة من البصريين والبغداديين وغيرهم ، وإن كانوا في غير ذلك من فروعهم متباينين ، من أن الله عز وجل لاكالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عَرَضٍ ولاعُنصرٍ ولا جزءٍ ولاجوهر، بل هو الخالقُ للجسم والعَرَض والعنصر والجزء والجوهر ، وأن شيئاً من الحواسّ لا يُدرِكهُ في الدنيا،ولا في الآخرة ، وأنه لايَحصُرُه المكانُ ، ولاتحويه الأَقطار، بل هو الذي لم يزل ولا له زمانٌ ولامكان ولا نهاية ولا حَدّ،وأنه الخالقُ للأشياء، المبدِع لها لامن شيء ، وأنه القديم ، وأن ماسواه مُحدَثٌ .

قولهم في العدل : وأما القول بالعدل — وهو الأصل الثاني — فهو أن الله لايُحِبُّ الفساد ، ولايَخلُقُ أفعالَ العباد ، بل يفعلون ماأُمِرُوا به ونُهُوا عنه بالقدرة

التي جعلها الله لهم وركّبها فيهم ، وأنه لم يأمرْ إلا بما أراده ، ولم ينْهَ إلا عما كَرِهَ ، وأنه وليُّ كلِّ حسنة أمرَ بها ، بريءٌ من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم مالا يُطيقونه ، ولا أرادَ منهم مالا يقدرون عليه ، وأن أحداً لايقدرُ على قبْضٍ ولا بَسْطٍ إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها ، وهو المالكُ لها دونَهم ، يُفْنيها إذا شاء ، ويُبقيها إذا شاء ، ولوشاء لجبرَ الخلقَ على طاعته ، ومَنَعَهُم اضطراريّاً عن معصيته، ولكان على ذلك قادراً ، غير أنه لايفعل ؛ إذ كان في ذلك رَفْعٌ للمحنة ، وإزالةُ البلوى .

قولهم في الوعيد : أما القولُ بالوعيد — وهو الأصل الثالث — فهو أن الله لايغفر لمرتكب الكبائرِ إلا بالتوبة ، وإنه لصادقٌ في وعده ووعيده ، لامُبدِّلَ لكلماته .

قولهم في المنزلة بين المنزلتين : وأمّا القولُ بالمنزلة بين المنزلتين — وهو الأصل الرابع — فهو أن الفاسق المرتكبَ للكبائر ليس بمؤمنٍ ولا كافر ، بل يُسمّى فاسقاً ، على حسب ماورد التوقيف بتسميته ، وأجمعَ أهلُ الصلاة على فُسوقه .

قال المسعودي : وبهذا الباب سُميت المعتزلةُ ، وهو الاعتزال ، وهو الموصوفُ بالأسماءِ والأحكام ، ماتقدَّم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار .

قولهم في الأمر بالمعروف : وأما القولُ بوجوب الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر — وهو الأصل الخامس — فهو أن ماذُكرَ على سائر المؤمنين واجبٌ ، على حسب استطاعتهم في ذلك ، بالسيف فما دونه ، وإن كان كالجهاد ، ولافرق بين مجاهدةِ الكافر والفاسق .

فهذا مااجتمعت عليه المعتزلة ، ومن اعتقد ماذكرنا من هذه الأصول الخمسة كان معتزلياً ، فإن اعتقدَ الأكثرَ أو الأقلَّ لا يَستحقُّ اسمَ الاعتزال ، فلا يستحقُّه إلا باعتقادِ هذه الأُصول الخمسةِ ، وقد تُنُوزِعَ فيما عدا ذلك من فُروعهم .

. . . .

ظهور مروان بن محمد : وفي سنة سبعٍ وعشرين ومائة أقبل مروان بن محمد بن مروان من الجزيرة فدخل

دمشق ، وخرج إبراهيم بن الوليد هارباً من دمشق ، ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه ، وقتل من مالأه ووالاه .

. . . .

سبب زوال ملك الأمويين : وذكر المنقري (١) قال : سُئِلَ بعضُ شيوخ بني أمية ومحصِّليها عُقَيْبَ زوالِ المُلْكِ عنهم إلى بني العباس : ما كان سببُ زوال ملككم ؟ قال : إنا شُغِلنا بلذّاتنا عن تفقُّدِ ماكان تفقُّده يلزمُنا ، فظلمنا رعيّتنا ؛ فيئسوا من إنصافنا ، وتمنَّوا الراحةَ منا ، وتُحومِل على أهل خَراجنا فتخلَّوْا عنا ، وخربتْ ضياعُنا ، فخلَتْ بيوتُ أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقَهم على منافعنا ، وأمضَوْا أموراً دوننا أخفَوْا علمَها عنا ، وتأخَّرَ عطاءُ جندنا ، فزالت طاعتُهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبَنا أعداؤُنا فعجزنا عنهم لقلّةِ أنصارنا ، وكان استتارُ الأخبارِ عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا .

---

(١) المنقري : سبقت ترجمته .

ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وهو الجعدي

موجز : وبُـويع مروانُ بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأربعَ عشرةَ ليلة خلَتْ من صفر سنة سبع وعشرين ومائة ، وقيل : إنما دعا إلى نفسه بمدينة حَرّان (١) من ديار مُضَر ، وبويع له بها ، وأمُّه أمْ وَلَد يقال لها رَيّا ، وقيل طروبة ، كانت لمُصْعَب بن الزبير فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه ، وكان مروانُ يُكنَّى أبا عبد الملك ، واجتمع أهلُ الشام على بَيْعته ، إلا سُليمانُ بنُ هشام بن عبد الملك (٢) وغيرهُ من بني أمية ، فكانت أيامهُ منذ بُويع بمدينة دمشق من أرض الشام إلى مقتله خمسَ سنين وعشرةَ أيام ، وقيل : خمس

---

(١) حران : من مدن الجزيرة الفراتية قريبة من تل أبيض ، وتقع على نهر بليخ داخل الأراضي التركية .

(٢) سليمان بن هشام : من الأمراء الأمويين ، نشأ في دمشق وغزا أرض الروم في خلافة أبيه . طمع في الخلافة في زمن مروان بن محمد . قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ .

سنين وثلاثة أشهر ، وكان مقتله في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ومنهم من رأى أن ذلك كان في المحرم ، ومنهم من رأى أنه كان في صفر ، وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أهل التواريخ والسِّيَرَ على حسب تنازعهم في مقدار مُلْكِهِ : فمنهم من ذهب إلى أن مدته خمس سنين وثلاثة أشهر ، ومنهم من قال : خمساً وشهرين وعشرة أيام ، ومنهم من قال : خمساً وعشرة أيام ، وكان مَقتَلُهُ ببُوصير قرية من قُرى الفَيُّوم بصعيد مصر ، وقد تُنوزع في مقدار سنه كتنازعهم في مقدار ملكه، فمنهم من زعم أنه قُتِل وهو ابن سبعين سنة ، ومنهم من قال : ابن تسع وستين ، ومنهم من قال : اثنتين وستين ، ومنهم من قال : ثمان وخمسين ، وإنما نذكر هذا الخلاف من قولهم لئلا يظن ظانٌ أنا قد أغفلنا ما ذكروه أو تركنا شيئاً مما وصفوه ، مما إليه قصدنا في كتابنا هذا ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ماقيل في ذلك ، في كتابينا أخبار الزمان والأوسط .

ذكر
الدولة العباسية ولمع من أخبار مروان ومقتله وجوامع من حروبه وسيره

قول الراوندية في الخلافة : قد قدمنا في الكتاب الأوسط ماذكرته الراوندية — وهم شيعةُ وَلَد العباس ابن عبد المطلب ، من أهْل خراسان وغيرهم — من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ ، وأن أحَقَّ الناس بالإمامة بعده العباسُ بن عبد المطلب ؛ لأنه عمه ووارثهُ وعُصْبته ، لقول الله عز وجل : «(وأُولو الأَرحام بَعْضُهم أَوْلى ببعضٍ في كتاب الله)» وأن النَّاسَ اغتصبوه حقَّه ، وظلموه أمْرَه ، إلى أن رَدّه اللهُ إليهم ، وتبرؤوا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأجازوا بَيْعةَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإجازته لها ، وذلك لقوله : يا بن أخي ، هلُمَّ إلى أنْ أُبايعَك فلا يختلفُ عليك اثنان ، ولقول داود بن عليّ (١) على منبر الكوفة يوم بُويع لأبي العباس : ياأهلَ الكوفة ،

(١) داود بن علي : هو عم السفاح العباسي : من كبار القائمين بالثورة على بني أمية . ولي الكوفة ثم المدينة ومات فيها سنة ١٣٣ هـ .

لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ عليُّ بنُ أبي طالب وهذا القائمُ فيكم. يَعني أباالعبّاس السفّاح.

. . .

بعض خِلال وأعمال مروان بن محمد : وأقام مروانُ أكثرَ أيامه لا يدنو من النساء إلى أن قُتِل ، وبرزت له جاريةٌ من جواريه ، فقال لها : والله لادنَوْتُ منكِ ، ولا حَلَلْتُ لكِ عُقْدةً ، وخراسانُ ترجفُ وتتضرَّمُ بنصر بن سيّار ، وأبومجرم قد أخذ منه بالمخنَق (١) .

وكان مع ماهو فيه يُديمُ قراءةَ سير الملوك ، وأخبارها في حروبها ، من الفرس ، وغيرها من ملوك الأمم .

وعذله بعضُ أوليائه ممن كان يأنسُ إليه في ترك النساء والطِّيب وغير ذلك من اللذات ، فقال له مروان : يمنعُني منهن مامنعَ أميرَ المؤمنين عبدَ الملك ،

---

(١) أبومجرم : هو أبومسلم الخراساني : صاحب الدعوة العباسية بخراسان وأحد أقطابها . قتله المنصور ١٣٧ هـ .

والمخنق : موضع حبل الخنق من العنق .

فقال له الرجل : وماذاك ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : حمَلَ صاحبُ إفريقية إليه جاريةً ذاتَ بهاء وكمال ، تامةَ المحاسن ، شَهيةً للمتأمل ، فلما وقفت بين يديه تأمل حُسْنَهَا وبيده كتابٌ وردَ من الحجاج وهو بدير الجماجم مواقعــاً لابن الأَشعث فرمى بالكتاب عن يــده ، وقال لها : أنت والله منية النفس ، فقالت الجارية : مايَمنعُكَ يا أميرَ المؤمنين إذ كنتُ بهذا الوصف ؟ قال : يمنعني والله منكِ بيتٌ قاله الأخطل :

قومٌ إذا حاربُوا شَدُّوا مــآزرهَم

دونَ النساءِ ولو باتتْ بأطهــار

أألتذ بالعيشِ وابنُ الأَشعثِ مُصَافٌ لأَبي محمد وقد هَلَكَتْ فيه زُعماءُ العرب ؟ لاها اللهَ إذاً ، ثم أمرَ بصيانتها ، فلما قُتِلَ ابنُ الأشعث كانت أولَ جاريةٍ خلا بها .

موتُ نصر بن سيار : وقَوِيَ أمرُ ابي مسلم ، وغَلَبَ على أكثرِ خراسان ، وضَعُفَ أمرُ نصرِ بن سيَّار من عدم النجدة ، فخرج من خراسان حتى أتى

الري ، وخرج عنها ، فنزل ساوة بين بلاد همذان والري ، فمات بها كمداً .

وقد كان نصر بن سيار — لما صار بين الري وخراسان — كتب كتاباً إلى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وأن هذا الأمر الذي أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن ذلك أبياتاً من الشعر ، وهي :

إنّا وما نكتم من أمرنا
كالثور إذ قُرِّب للناخع (١)
أو كالتي يحسبها أهلها
عذراء بكراً وهي في التاسع
كنّا نرفّيها فقد مُزِّقت
واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى
أعيى على ذي الحيلة الصانع

(١) الناخع : الذي جاوز منتهى الذبح إلى النخاع .

خديعة مروان للقبض على إبراهيم الإمام :
فلم يستتم مروانُ قراءةَ هذا الكتاب حتى مَثَلَ أصحابه بين يديه ممن كان قد وكّل بالطرق رسولاً من خراسان من أبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام (١) يخبره فيه خبره ، وما آل إليه أمرُه ، فلما تأمّل مروانُ كتاب أبي مسلم قال للرسول : لاتُرَعْ ، كم دفع لك صاحبُك ؟ قال : كذا وكذا ، قال : فهذه عشرةُ آلاف درهم لك ، وإنما دَفَعَ إليك شيئاً يسيراً ، وامضِ بهذا الكتاب إلى إبراهيم ، ولا تُعلِمْهُ بشيء مما جرى ، وَخُذْ جوابَه فائتني به ، ففعل الرسولُ ذلك ، فتأمل مروانُ جوابَ إبراهيم إلى أبي مسلم بخطه يأمرُه فيه بالجدّ والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونهيه ، فاحتبسَ مروانُ الرسولَ وكتب إلى الوليد بنِ معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمرُه أن يكتُبَ إلى عامل البلقاء فيَسيِّرَ إلى القرية المعروفة بالكرار والحُميْمَة ليأخذ إبراهيم

---

(١) ابراهيم بن محمد : هو أخو الخليفتين : السفاح والمنصور ورث عن أبيه حقوق الإمامة،وهو رأس الدعوة العباسية . كان بالحميمة من أعمال عمان . قتله مروان سنة ١٣١ ﻫ بحران .

ابن محمد فيشده وثاقاً ، ويبعث به إليه في خيل كثيفة ، فوجّه الوليد إلى عامل البلقاء فأخذ إبراهيم وهو جالس في مسجد القرية فأخِذَ وهو مُلفف ، و حُمِلَ إلى الوليد ، فحمله إلى مروان فحبسه في السجن شهرين ، وقد كان جرى بين إبراهيم ومروان خَطْبٌ طويل حين مَثَلَ بين يديه ، وأغلَظَ له إبراهيم ، وأنكرَ كل ماذكره له مروان من أمر أبي مسلم ، فقال له مروان : يامنافق ، أليس هذا كتابُك إلى أبي مسلم جواباً عن كتابه إليك ، وأخرج إليه الرسول ، وقال : أتعْرِفُ هذا ؟ فلما رأى ذلك إبراهيمُ أمسَكَ ، وعَلِمَ أنه أُتِيَ من مأمنه

مقتل إبراهيم وجماعة معه : واشتد أمر أبي مسلم ، وكان في الحبس مع إبراهيم جماعةٌ من بني هاشم وبني أمية : فمن بني أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشي أن يخرجا عليه ، ومن بني هاشم : عيسى بن علي ، وعبد الله بن علي ،

وعيسى بن موسى (١) ؛ فذكر أبوعبيدة الثعلبي — وكان معهم في الحبس — أنه هجم عليهم في الحبس وذلك بحرّان جماعةٌ من موالي مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذي كان فيه إبراهيم والعباس وعبد الله، فأقاموا عندهم ساعة ، ثم خرجوا وأغلق باب البيت ، فلما أصبحنا دخلنا عليهم ، فوجدناهم قد أُتِيَ عليهم ، ومعهم غلامان صغيران من خدمهم كالموتى ، فلما رأونا أنسوا بنا ، فسألناهم الخبر ، فقالا : أمَّا العبَّاسُ وعبدالله فجُعل على وجوههما مخادٌّ وقُعِدَ فوقَهما فاضطربا ثم بردا ، وأما إبراهيم فإنهم جعلوا رأسه في جراب كان معهم فيه نورة مسحوقة ، فاضطرب ساعة ثم خَمَدَ .

---

(١) عيسى بن علي وعبدالله بن علي من أعمام السفاح : ولد الأول في المدينة وسكن بغداد وتوفي بها . كان ناسكاً معتزلا الأعمال السلطانية (٨٣ — ١٦٤ ﻫ) . أما عبدالله بن علي فقد سبقت ترجمته .

وعيسى بن موسى : من أمراء بني هاشم ومن ذوي النجدة والرأي فيهم وهو ابن أخي السفاح . له شعر جيد . ولاه عمه السفاح الكوفة ، وجعله ولياً للعهد بعد المنصور، ولكن الأخير خلعه من الولاية مات بالكوفة . (١٠٢ — ١٦٧ ﻫ) .

وكان في الكتاب الذي قرأه مروان من إبراهيم إلى أبي مسلم أبياتٌ من الرجز بعد خطب طويل ، منها :

دونَكَ أمراً قد بدت أشْراطـــــه

إن السبيـــلَ واضـــحٌ صِراطُـــهُ

لم يبقَ إلا السيفُ واختِراطُهُ

وقد ذكر في كيفية قتل إبراهيم الإمام من الوجوه غيرُ ماذكرنا ، وقد أتينا على جميعِ ماقيل في ذلك في الكتاب الأوسط ، وكذلك ماكان من قَحْطَبَة (١) وابن هُبيرَة (٢) على الفرات ، وغرق قحطبة فيه ، ودخول ابنه الحسن بن قحطبة الكوفة .

---

(١) قحطبة : هو قحطبة بن شبيب الطائي : قائد شجاع صحب أبامسلم الخراساني . وهو أحد نقباء الدعوة العباسية ، هزم نصر بن سيار عامل الأمويين وأمير العراق يزيد بن هبيرة . غرق خلال المعركة في الفرات سنة ١٣٢ هـ .

(٢) ابن هبيرة : هو يزيد بن عمر بن هبيرة : أمير من قادة الدولة الأموية . ولي العراقين في أيام مروان بن محمد . قتله السفاح بواسط . (٨٧ — ١٣٢ هـ) .

موقعة الزاب بين عبد الله بن علي ومروان : وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير (١) ، وعقد عليه الجسر ، وأتاه عبد الله بن علي في عساكر أهل خراسان وقوادهم ، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فالتقى مروان وعبد الله بن علي ، وقد كردس مروان خيله كراديس ألفاً وألفين ، فكانت على مروان ، فانهزم ، وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم ، فكان فيمن غرق في الزاب من بني أمية ذلك اليوم ثلاث مئة رجل ،دون من غرق من سائر الناس، وكان فيمن غرق في الزاب في ذلك اليوم من بني أمية إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، وهو أخو يزيد الناقص ، وقد قيل في رواية أخرى : إن مروان كان قد قتل إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه ، وكانت هزيمة مروان من الزاب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

أهل حرّان ومروان : ومضى مروان في هزيمته حتى

---

(١) يوم الزاب : كان على الزاب الأعلى بين الموصل وأربل .

أتى الموصل فمنعه أهلُها من الدخول إليها ، وأظهروا السوادَ لما رأوه من تولية الأمر عنه ، وأتى حران — وكانت داره ، وكان مقامه بها — وقد كان أهْلُ حران قاتلهم الله تعالى حين أزيل لعن أبي تراب — يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه — عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا عن إزالته ، وقالوا : لاصلاةَ إلا بلعن أبي تراب ، وأقاموا على ذلك سنة حتى كان من أمر المشرق وظهور المسوِّدة (١) ماكان ، وامتنع مروانُ من ذلك لانحراف الناس عنهم ، وخرج مروان في أهله وسائر بني أمية عن حران ، وعبر الفرات ، ونزل عبد الله بن علي على باب حران ؛ فهدم قصرَ مروان ، وقد كان أنفق عليه عشرةَ آلاف ألف درهم ، واحترى على خزائن مروان وأمواله ، وسار مروان فيمن معه من خَواصِّه وعياله حتى انتهى إلى نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه ، وسار عبدُ الله بن علي حتى نزلَ دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليدُ بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألف مقاتل ، فوقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار

---

(١) المسودة : هم لابسو السواد من أصحاب الدعوة العباسية .

ونزار على اليمن فقتل الوليد بن معاوية ، وقد قيل : إن أصحابَ عبد الله بن علي قتلوه وأتى عبدَ الله بنَ علي يزيدُ بنُ معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبدُ الجبار ابنُ يزيد بنِ عبد الملك بن مروان فحملهما إلى أبي العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة ، وقَتَلَ عبدُ الله بن علي بدمشق خلقاً كثيراً ولحق مروانَ بمصر ، ونَزَلَ عبدُ الله بن علي على نهر أبي فطرس ، فقتل من بني أميةَ هناك بضْعاً وثمانين رَجُلاً ، وذلك في يوم الأربعاء للنصف من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وقُتِلَ بالبلقاء سليمانُ بن يزيد بن عبد الملك وحُمِل رأسهُ إلى عبد الله بن علي ، ورحلَ صالحُ بنُ علي (١) في طلب مروانَ ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد (٢) ، وعامر

---

(١) صالح بن علي : أمير عباسي ، عم السفاح والمنصور ، تولى مصر والشام وفلسطين أيام السفاح والمنصور . أنشأ مدينة أذنة في الأناضول. توفي في قنسرين سنة ١٥١ هـ .

(٢) عبد الملك بن يزيد الخراساني : قائد عباسي من الولاة تعقب مروان بن محمد حتى قتل . ولي مصر ثم خراسان توفي سنة ١٦١ هـ .

ابن إسماعيل المَذحِجي (١) ، فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتره ، وهَجموا على عسكره وضربوا بالطبول ، وكبَّروا ونادوا : يالثّارات إبراهيم ، فظن مَنْ في عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائرُ المسوِّدة ، فقُتِلَ مروان ، وقد اختلف في كيفية قتله في المعركة في تلك الليلة ، وكان قَتْلُهُ ليلةَ الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

ولما قتل عامرُ بنُ إسماعيل مروانَ وأراد الكنيسةَ التي فيها بناتُ مروانَ ونساؤه إذا بخادم لمروانَ شاهرٌ السيفَ يحاول الدخولَ عليهن ، فأخذوا الخادم فَسُئِلَ عن أمره ؛ فقال : أمرني مروانُ إذا هو قُتِلَ أن أضربَ رقابَ بناته ونسائه فلا تقتلوني ؛ فإنكم والله إن قتلتموني لَيُفْقدَنَّ ميراثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : انظر ما تقــول ، قال : إن كذبتُ فاقتلوني ، هلموا فاتبعوني ، ففعلوا ، فأخرجهم من القرية إلى موضع

---

(١) عامر بن اسماعيل : قال ابن قتيبة : هو من أهل خراسان كان على مقدمة صالح بن علي وهو الذي قتل مروان .

ومل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فاذا البُرْدُ والقَضيبُ ومِخصَرَ (١) قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بني هاشم ، فوجه بها عامر بن إسماعيل إلى عبد الله بن علي ، فوجه بها عبدُ لله إلى أبي العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاءُ بني العباس إلى أيّام المقتدر ، فيقال : إن البُرْدَ كان عليه في يوم مَقْتَلِه ، ولستُ أدري أكُلُّ ذلك باقٍ مع المتّقي لله إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — في نزوله الرّقة أم قد ضيِّع ذلك .

بنات مروان بين يدي صالح بن علي : ثم وجّه عامرُ بناتِ مروانَ وجواريَه والأسارى إلى صالح ابن علي ، فلما دخلنَ عليه تكلمت ابنةُ مروان الكبرى ، فقالت : ياعمّ أميرِ المؤمنين ، حفظ الله لك من أمْرك مايحبُّ لك حِفْظَهُ ، وأسْعدَك في الأمور كلّها بخواصّ نِعَمِه ، وعمَّك بالعافية في الدنيا والآخرة ، نحن بناتُك وبناتُ أخيك وابن عمّك ، فَلْيَسَعْنا من عَفْوِكم

(١) المخصر والمخصرة : كالسوط . أو قضيب كان الملك يأخذه بيده يشير به ويصل به كلامه . قال حسان :

يصيبون فصل القول في كل خطبة إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

ماوَسِعَكُمْ من جَوْرِنا ، قال : إذن لانَسْتبقي منكم أحداً رَجُلاً ولا امرأة ، ألم يَقْتُلْ أبوك بالأمسِ ابنَ أخي إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في مَحْبَسِهِ بحرّان ؟ ألم يقتل هشامُ بنُ عبدِ الملك زيدَ بنَ علي بنِ الحسين بن علي وصَاَبَهُ في كُنَاسة الكوفة ، وقَتَلَ امرأةَ زيدٍ بالحيرة على يَدَيْ يوسف ابن عمر الثقفي ؟ ألم يقتلِ الوليدُ بنُ يزيد يَحيى بنَ زيد وَصَلَبَهُ بخُراسان ؟ ألم يقتل عبيدُ الله بن زياد الدعيّ مسلمَ بنَ عقيل بنِ أبي طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيدُ ابن معاوية الحسينَ بنَ عليّ على يَدَيْ عُمَرَ بنِ سَعْدٍ مَعَ من قُتِلَ بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحَرَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهنّ على يَزيدَ بنِ معاوية وقَبْلَ مَقْدَمِهِنّ بعث إليه برأس الحسين بن علي قد ثقب دماغهُ على رأس رمح يُطاف به كُوَرَ الشام ومدائنها حتى قَدِمُوا به على يزيد بدمشق كأنما بَعَثَ إليه برأسِ رَجُلٍ من أهلِ الشِّرْك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفَ السَّبْي يَتَصَفَّحُهُنَّ جنودُ أهلِ الشامِ الجُفاةُ الطَّغامُ

ويطلبون منه أن يَهَبَ لهم حَرَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم استخفافاً بحقّه صلى الله عليه وسلم وجراءَةً على الله عز وجل ، وكُفْراً لأنْعُمِه ، فما الذي استبقيتم منا أهْلَ البيت ؟ لو عدلتم فيه علينا ! قالت: ياعمّ أمير المؤمنين لِيَسَعْنا عَفْوُكم إذاً ، قال : أما العفوُ فنعم قد وَسِعَكم ، فإن أحْبَبْتِ زَوَّجتُك من الفضل بنِ صالح ابنِ علي ، وَزَوَّجتُ أختَك من أخيه عبدِ الله بن صالح ، فقالت : ياعمّ أميرِ المؤمنين ، وأيُّ أوَانِ عُرْسٍ هذا ؟ بل تُلْحِقنَا بحرّان ، قال : فإذاً أفعل ذلك بكُنّ إن شاءَ الله ، فألحقهنّ بحران ، فعَلَتْ أصواتُهنّ عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشَقَقْنَ جيوبهن ، وأعْوَلْنَ بالصِّياحِ والنَّحيب ، حتى ارتجَّ العسكرُ بالبكاء منهنّ على مروان .

فكان مُلْكُ مروانَ إلى أن بُويع أبوالعباس السَّفّاح خمسَ سنين وشهرين وعشرة أيام على حسب ماقدمنا ذكره في هذا الكتاب من التنازع في مدة أيامه ، ومن وقت أن بُويع أبو العباسِ السفاحُ إلى أن قُتِلَ ببوصير ثمانية أشهر ، فكانت مُدّةُ أيامهِ إلى أن قُتِل خمسَ

سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقد قدّمنا ماتنازعوا فيه من مقدار سنه وغير ذلك من أخباره ، وقد أتينا على مبسوط أخباره فيما سلف من كتبنا .

عبد الحميد بن يحيى الكاتب : وكان كاتبه عبدَ الحميد بنَ يحيى بن سعد (١) صاحبَ الرسائل والبلاغات ، وهو أوّلُ من أطال الرسائلَ ، واستعمل التّحْميدات في فُصولِ الكُتُب ، واستعمل النّاسُ ذلك بعدَهُ .

وذُكِرَ أن مروانَ قال لكاتبه عبدِ الحميد — حين أيْقنَ بزوال مُلْكه — قد احْتَجْتُ أن تَصيرَ مع عَدوّي وتُظهِرَ الغَدْرَ بي ، فإنّ إعجابَهم بأدبِك وحاجتَهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حُسْنِ الظّنّ بكَ ، فإن استطعت أن تنفعَني في حياتي ، وإلا لم تعجز عن حِفْظ حُرَمي

---

(١) هو عبد الحميد الكاتب ، أول من أنشأ أسلوب الرسائل في الأدب العربي . قيل : إنه كان معلماً للصبية ثم أصبح كاتباً في بلاط هشام ابن عبد الملك ومن بعده في بلاط مروان بن محمد وقتل معه في بوصير سنة ١٣٢ هـ .

بعد وفاتي ، فقال له عبد الحميد : إن الذي أشرتَ به عليَّ أنفعُ الأمرين لك ، وأقبحُهما بي ، وما عندي إلا الصبرُ حتى يفتحَ اللهُ أو أُقتلَ مَعَكَ ، وقال :

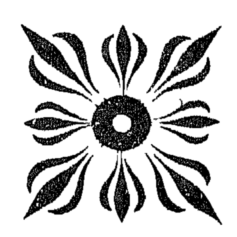
أُسِرُّ وفـــاءً ثم أُظهِرُ غَــــدْرَةً

فمن لي بعذر يُوسِعُ الناس ظاهِرُه؟

* * *

الفهرس

٢٥٠٠ ط ١ / ١١ / ١٩٨٨



سعر النسخة داخل القطر
٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
١٥٠ ل.س

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٨٨